الغزو الفكري
والرد
على افتراءات المستشرقين

محمد علوه

الأقصى
للدراسات والترجمة والنشر

موافقة الطباعة رقم: ٧٠٥٧٥

دمشق – سوريا – هـ: ٦٣٤٥٣٩١ – ص. ب:١٦٢١٢

e.mail: Mohammadk@visto.com

الطبعة الأولى /٢٠٠٢/

التنفيذ الفني

إبراهيم موسى طلوزي

الإهداء

إلى الذين يفتشون عن الحقيقة ليهتدوا بها في ظلمات الحياة .

وإلى الذين اهتدوا إليها ولكنّهم لم يملكوا الجرأة على البوح بها إما خوفاً أو حسداً أو افتراء أو تجريحاً .

وإلى الذين تعمدوا تشويه هذه الحقيقة كيما يسود الباطل على الحق والظلام على النور .

إلى هؤلاء جميعاً . . . .

أهدي هذا الكتاب .

محمد عللوه

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

اللهم إنا نعوذ بك من عثرات الأقلام بعد الإفهام، ونعوذ بك أن نشرك بك شيئاً ونحن نعلم، ونسألك مما تعلم ولا نعلم، اللهم جنِّبنا مواطن التهم والافتراء ودوافع الإحن والبغضاء، وباعدنا عن زلة العقول، وعصبية النفوس ونوازع الجاهلية، وأن نقول في أي امرئٍ مالا نعلم، أو نتهمه بما ليس فيه، أو نفتري على الله ورسوله ظلماً وزوراً، كما فعل ويفعل هؤلاء المستشرقين.

منذ أن كانت رسالة الإسلام كانت عصبيات الجاهلية وحمق الوثنية والخوف على الجاه والسلطان فبادر هؤلاء إلى اعتراض سبيل الدين جهلاً بحقيقته وتمسكاً بتقاليد عفى عنها الزمن وعبادة أصنام لا تستطيع نصر أنفسها فضلاً عن أن تنصر عبّادها.. وما كان الإسلام عليها ليحمل السيف في وجوه عبدة الأوثان لمجرد عبادتهم لها وإن كانت عبادتهم مناقضة لمبدأ التوحيد فيه. ولهذا ترى رايات التوحيد سارت إلى جانب كل العقائد والأديان ففي منطق القرآن ما يكفي من حجج وبراهين لإثبات وحدانية الله بحيث لا يستطيع أعظم المفكرين وأكبر المعاندين نقضها، ألم ترى إلى النمرود كيف ادعى أنه يحيي ويميت، فلما قيل له ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] كيف بهت وأقيمت الحجة عليه.

وأنت تجد في التاريخ نماذج كثيرة لهذا الحجاج الديني بين أهل التوحيد وشرك الديانات الأخرى.. ومن عظمة هذا الدين أنه لا يملك إلا أن يدلي بالحجة والبرهان حين يعرض نفسه على الناس، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من يحيى عن بينة، وأما ما وراء ذلك فما جعل الله للمسلمين على عبدة الأوثان سبيلاً إلا إذا حملوا السيف في وجوههم.. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ۞ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۞ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۞ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

ويوم رفرفت رايات الإسلام خفاقة في الأرض وامتدت إلى حدود الهند والصين والأندلس وحتى فرنسا وحدود سويسرا... هناك تطلعت الصليبية الحاقدة بعين البغض لهذا الدين، فكان أن افتعلوا حروباً صليبية لأسباب واهية ماكرة ظاهرها تأمين سلامة طريق حجاجهم وباطنها من قبلهم العذاب والقضاء على الإسلام، ولهذا لم يرعووا عن ذبح ستين ألفاً من المسلمين يوم دخلوا بيت المقدس ولم يتورع أحدهم أن يكتب إلى ملكه بأنهم كانوا يخوضون في بحيرة من الدم للوصول إلى القدس.

وعندما انتفض الإسلام من جديد ونظمت كتائبه واستطاع طرد الصليبيين بعد قرنين من الزمان عاثوا فيهما فساداً، هناك تفتحت في الغرب عيون رمد وصحت قلوب أسكرتها الأحقاد، إذ كانوا يظنون من قبل أن قوتهم مانعتهم من أن يخرجهم المسلمون ولكن أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، فلم تجدهم تسع حملات صليبية ولا استنفار جيوش أوربا كلها فكان أن بدؤوا يفكرون جدياً في وسيلة أخرى غير الحرب للقضاء على الإسلام.

كانت وسيلتهم الأولى إرسال أبنائهم ورجال الكنائس إلى مدارس المسلمين وجامعاتهم في الأندلس، بحجة الاطلاع على علوم المسلمين والانتفاع بحضارتهم، والإسلام لا يعرف احتكار العلم وإنما من أهدافه الكبرى أنه دين الرحمة للعالمين، ولهذا لم يمانع المسلمون في ذلك بل فتحوا مدارسهم لأبناء الغرب واستجابوا لنداء ملوكهم لإرسال معلمين مسلمين إلى جامعات الغرب ليدّرسوا فيها.. وهكذا قامت أعظم حملة ترجمة ونقل لعلوم المسلمين أشرف عليها ملوك أوربا وسدنة الكنائس. وقد ساهم أحبار اليهود بترجمة الكتب إلى اللاتينية، وتم نقل هذه العلوم، ولكن بقي خوف الغرب من أن تتسلل تعاليم الإسلام ووحدانيته التي نقلوها إلى أبنائهم وهو ما لا يرضى عنه سدنة الكنائس، في الوقت الذي ودّ فيه رجال الكنسية الاستئثار بتلك العلوم وعدم السماح للإسلام أن يصل إلى أبنائهم، ولهذا بدؤوا بتأليف الكتب وتشويه المفاهيم الإسلامية الصحيحة والطعن فيها وتزييف الحقائق وحصار الفكر الأوربي عن أن يفكر إلا في نطاق رجال الكنيسة وتعاليمها الموضوعة.. وكان في ذلك أكبر غلطة أقدم عليها رجال الكنيسة حيث ساروا في الطريق المعادي للعلم والعقل.

مما دعا أبناءهم أن يقفوا منهم موقف الند للند، فانقلب بعضهم شيوعيين ملحدين، والبعض الآخر تحوّل إلى اللادينية، والعلماء منهم ساروا في ركب العلم.. وانتهت النصرانية بذلك إلى أن تصبح كنائسها خاوية تباع بالمزاد حتى في إيطاليا حيث مقر الفاتيكان..

ولو عقل رجال الكنيسة حقيقة الإسلام -وهم يعرفونها- واستجابوا لنوازع العقل والضمير لعلموا أن الإسلام ما كان يوماً ليرفع راية العدوان ضد أهل الكتاب، وكيف يعاديهم وهو الذي يقدس المسيح عيسى بن مريم وأمه البتول؟ وهو الذي يقدس أنبياء التوراة بل أنه لا يعتبر المسلم موحداً ما لم يعترف بأنبياء التوراة والإنجيل؟ وعلى الرغم من كل ما فعله ويفعله أبناء التوراة والإنجيل بالإسلام والمسلمين.

أريد حياته ويريد قتلي   عذيرك من حبيبك من مُراد

إذن لم تكن إلا الأحقاد دافعاً لهؤلاء كي يقفوا هذا الموقف من الإسلام ولم يحملهم على مناهضتهم له إلا رؤيتهم لهذا الدين تخفق راياته في الأرض، وعلى الرغم من أنهم بنوا أصول حضارتهم على ما ترجموه وتعلموه من المسلمين وكتبهم ومخطوطاتهم، فإن كل ذلك لم يفدهم بشيء إلا مضاعفة الأحقاد على الإسلام وأضطغان الكراهية ضد أبنائه:

وكم علمته نظم القوافي   فلما قال قافيةً هجاني.

وما أسرع ما قاموا في القرن الثالث عشر بإنشاء المدارس الاستشراقية التي راحت تعد لدراسة القرآن الكريم وترجمته ودراسة الحديث النبوي والتاريخ الإسلامي، وكان لهم من الطعن فيهما ومن التعصب الواضح ضد المسلمين الأثر بليغ في خلق مشاعر الكراهية عند أبنائهم لهذا الدين، وبهذا عمل رجال الكنيسة على اتساع الهوة بين المسيحية والإسلام.

وبقيام الثورة الصناعية في الغرب منذ القرن السادس عشر الميلادي تطلع الأوربيون إلى بلاد العرب والإسلام وإلى ما تتمتع به من خيرات وطرق تجارة ومواد أولية، فكان أن انطلقت الحملات الاستعمارية مستهدفة فيما تهدف إليه القضاء على الدين. وقد أدرك هؤلاء الأوربيون ورايات العثمانيين تخفق إلى جانب بحيرة كونستانس في سويسرا، أدركوا أن الإسلام هو العدو الأول لهم فكان أن سارت الحملات الاستعمارية إلى جانب جيوش التبشير والاستشراق وصولاً إلى هدف واحد القضاء على الإسلام.

وبهذا قامت المدارس الكنسية التبشيرية والاستشراقية الغربية والصهيونية، ونظمت جيوش الدعاة والمبشرين والكتّاب، وتقدمت هذه الجيوش الغربية تحتل وتدمر وتستعمر وتستعبد وتنهب خيرات الشعوب، فكانت النهضة الصناعية خيراً لشعوبها ولكنها كانت شراً على باقي الشعوب، إذ ما لبثت أن اخترعت الأسلحة الفتاكة وراح الغرب يتآمر على حياة الشعوب، ويخلق الفتن والحروب ويقضي على بقية الحرية والكرامة التي ثبتتها الأديان.

في هذا الوقت ومنذ قرنين كان الدور البارز لتلك المدارس الاستشراقية وأبنائها هو القضاء على الدين، وقد تهيأت لهؤلاء وسائل النهوض والنشر لكتاباتهم، والدفع ببعضهم إلى رتبة الأستاذية في الجامعات مقابل أن ينفذوا برنامج تلك المدارس في تشويه الإسلام.. ولهذا قامت تلك الحملات، بالدعوة للقضاء على لغة القرآن ثم ثنوّا بالقرآن نفسه جملة وتفصيلاً، فنفوا أن يكون وحياً أوحاه الله إلى رسوله وادعوا أن الرسول وضعه ـ ليزيلوا عنه صفة القداسة ـ وتفننوا في تلفيق الأسباب التي دعت الرسول إلى وضع القرآن، رغم أن كل ما في كتاب

الله من نبوءات ولغة وأحداث وقصص وتوحيد ما يدفع احتمال أن يكون من كلام البشر، وقد تكررت تلك المطاعن من عشرات المستشرقين ليتم توثيقها والتوقيع عليها، ونظراً لعدم امتلاكهم للحجج القاطعة على صحة افتراءاتهم لم يجد كتّابهم سبيلاً إلا أن يكرروا هذه الافتراءات ويتوارثوها فيما بينهم، ظناً منهم أن ويلز ومرجليوث ونيكلسون ولامانس وشاخت وبروكلمان وغيرهم إذا وّقعوا عليها تصير بذلك حقائق دافعة، ولكن تلك الافتراءات لم تكشف إلا عن جهل هؤلاء المستشرقين وعصبيتهم وتعاميهم عن قول الحقيقة، وقد وصل الحد ببعضهم إلى افتعال أسباب واهنة جداً بل ومضحكة أحياناً سخر منها حتى مواطنهم، وإلا فمن يصدق أن كتاباً مقدساً كالقرآن بنى حضارة إسلامية دامت ثمانية قرون، واستعار الغرب بردتها فبنى حضارته عليها، هذا القرآن على ما فيه من بلاغة وإعجاز لغوي وفكري وحضاري ومستقبلي، من يصدق أنه ليس إلا أوهام إنسان مصاب بالصرع، أو كلام صاحب مخيلة واسعة، أو أنه ليس إلا سجع كهان، أو أنه امتداد لكتاب الإنجيل أو التوراة؟.

ولما كانت السنة والأحاديث النبوية الركن الثاني في الإسلام، والمتمثلة في أقوال النبي وأفعاله وأحواله، واقتداء المسلمين بها. لهذا كله وجه المستشرقون سهامهم إلى الإسلام وإلى بني الإسلام، فزعموا أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يقل من الأحاديث إلا ما ندر، وأن كل الأحاديث ما هي إلا من أقوال المسلمين ومحاولاتهم في القرون الثلاثة الأولى، وضعوها ليوضحوا الإسلام للمسلمين في البلدان المفتوحة، ومن أجل ذلك تراهم طعنوا في أحاديث النبي وفي رواة هذه الأحاديث ورجالها كالبخاري والنسائي وابن ماجه. كما طعنوا بفقهاء المسلمين كالليث بن سعد والزهري وابن عباس، ولم يسلم من سهامهم أحد، فإذا

وجدوا حاكماً مسلماً، أو خليفة خرج في نظام حياته الشخصية أو العامة عن الإسلام، حملوا ذلك على الدين نفسه وزادوا فيه، وإذا رأوا حاكماً عادلاً في دولة ما وقد مثّل الإسلام في أبهى مظاهره، أحاطوه بافتراءاتهم حتى يخرجوه من الدين، كذلك فعلوا مع عمر بن عبد العزيز.. وإذا قرؤوا خبراً مفتعلاً لمؤرخ حاقد أو زنديق كافر، نقلوه وحللوه وصادقوا عليه واتهموا الصحابة ليطعنوا في أهليتهم لنقل الأحاديث ويبرروا ادعائهم بأنهم وضعوا الأحاديث ونخلوا رسول الله ﷺ إياها .. وقد يصل السخف بأحد هؤلاء المستشرقين أن ينقل أخباراً من كتاب مؤلفه مجهول ـ كما فعل غلودتسهير ـ أو ينقل الخبر فيظهر جزءاً منه ويخفي الباقي ليدعم بذلك رأيه ـ وهذا أخبث طويةً وأشد فساداً وقد يعمد إلى خبر ظاهر فيبدو منه فهماً جديداً يكون مفاده الطعن في هذا الصحابي أو ذاك ـ ولهذا لم يسلم من افتراءاتهم أحد.

ويجد المرء عندما يقرأ كتاباتهم أن روح البغضاء والحقد تستولي على شغاف قلوبهم.

وخاصة عندما يصوّرون تاريخ المسلمين ورجال الإسلام وقادته في الفتوحات، فتجدهم وقد احمرّت أحداقهم وتوترت عروقهم فراحت أقلامهم تقطر السم الزعاف حقداً وحسداً، وبهذا رأوا في هارون الرشيد، صاحب الليالي الحمراء، ومحمد الفاتح، متوحش في فتوحاته، وصلاح الدين، هادم معابد النصارى، وخالد بن الوليد، قاتل مالك بن نويرة.

وقد ادّعوا أن الفتوحات الإسلامية أمارات غزو واحتلال وأن الفاتحون لصوص... وأنت لا تملك إلا أن تسخر من هؤلاء عندما

تنصت إلى عكس تلك الآراء من مواطني هؤلاء المستشرقين، الذين راوحوا يعيبون عليهم مثل تلك الآراء المخالفة لمنهجية العلم والتاريخ والبحث.. فإذا قرأت ما كتبه المنصفون منهم وقارنت بينه وبين افتراءات هؤلاء الحاقدين أدركت حقيقة تعمدهم تشويه الإسلام، وإخفاء الحقائق، فإذا علمت أنهم لا يملكون من الحجج إلا أوهاها، ومن البراهين إلا أضلّها، أدركت حقيقة هذه الحملة الاستشراقية الظالمة التي يشنها الغرب على الإسلام.

ولكن الغريب في هذه الحملة أن أبناءها هؤلاء وقد راحوا يطعنون بالقرآن والإسلام ونبي الإسلام ولغة القرآن، وبالتاريخ والحضارة والتراث، ويزيفون الحقائق، ويبحثون في التاريخ بعين حاقدة وقلوب أكلها البغض، وينفثون بسمومهم على صفحات كتب تجاوزت الستين ألف كتاب، وقد نسوا أنهم إنما يسيئون بهذا إلى دين سماوي يعترف بدينهم، دين بنى حضارة دامت ثمانية قرون، ومازال منذ أربعة عشر قرناً بتعاليمه ومبادئه ونظمه وعقيدته وسياسته وعدالته يشع بالنور على شعوب العالم، ونسوا كذلك أنه لا يمكن لدين مُزوَّر أن تكون له مثل هذه العظمة في النفوس، بعد وفاة النبي بأربعة عشر قرناً ـ وفي وقت غياب قوة المسلمين كما لا يمكن لدين إذا كان مزوراً أن يحقق كل هذا الانتشار والتوسّع. فإذا عرفت أن نبوءاته العلمية والمستقبلية مازال الغرب نفسه يكشف أسرارها، وما زال القرآن يتلاقى مع العلم في أصدق ما يتوصل إليه العلم، عرفت عندئذ حقيقة عناد هؤلاء المستشرقين وحربهم على الإسلام وأن حربهم تلك ما هي إلا حملة ظالمة متعمدة تقوم كل الدلائل والبراهين على نقضها. ولهذا فأنت تستغرب وباستهجان بالغ

مقولة ـ ويلز ـ أن الإسلام لم ينتشر إلا وقد صادف شعوباً بليدة سياسياً وحكومات أنانية. أفيمكن عقلاً ومنطقاً والإسلام ينتشر في خمسين دولة إسلامية يتعامل معها الغرب سياسياً واقتصادياً وثقافياً أن تكون تلك الشعوب بليدة سياسياً؟ بل والإسلام ينتشر في كل بلدان الغرب نفسه وهو الدين الثاني في فرنسا أفيمكن أن تكون شعوب الغرب كذلك ـ والإسلام يزحف إليها ـ بليدة سياسياً.

إن مصيبة هؤلاء المستشرقين أنهم تعمدوا هدم الإسلام ولكنهم لم يعرفوا كيف ولا من أين تؤكل الكتف.هذا إن كانت الكتف قابلة لأكل أصلاً. ويوم دخل عمرو بن العاص معسكر أحد الروم نبهه الحاجب ـوكان عربياً ـ بالتلميح، إلى تورطه بالدخول إلى الروم بقوله: يا عمرو أحسنت الدخول فأحسن الخروج ففطن عمرو فكان أن احتال على الملك بأنه إذا تركه سيأتي له بقادة المسلمين، وخرج سالماً، ولكن هؤلاء المستشرقين إن أحسنوا الدخول إلى مدارسهم الاستشراقية للطعن في الإسلام وأهله فما نراهم يحسنون الخروج إلا وقد شوّهت وجوههم ومرّغت عقولهم بالتراب، بعد أن ندت عنهم من أمثال تلك السخافات التي لم تعد تقنع حتى أبناء الغرب نفسه.

ومما يحزّ في النفس أن يلج هذا المولج منهم أدباء وعلماء كبار لهم باع في دراسة لغة المسلمين وآدابهم وتاريخهم الإسلامي كبروكلمان وغيره...ولكنك إن عرفت هيمنة المدارس الاستشراقية على هؤلاء، أدركت أنهم لم يعد في إمكانهم إلا أن يقولوا ما يتلى عليهم، وقليل من هؤلاء من استجاب لقول الحقيقة ومنهجية البحث، والتجرد من الأهواء والعواطف والعصبيات والأنانيات أو غرور الاطلاع وسعة العلم، وقليل

منهم سلمت أقدامهم من العثار والزلل وأفهامهم من الحقد والحسد فعبروا عن الحقائق كما هي أوكما ينبغي أن تكون.

والحقائق لا يمكن أن تكون مخبوءة، لدرجة لم يستطع هؤلاء أن يهتدوا إليها رغم أبحاثهم، ولكن عين المبغض لا تظهر إلا المساوئ وعين الرضا عن كل عيب كليلة، ونحن لا نرتضي من هؤلاء، أن يرضوا عن إسلامنا وديننا وقرآننا ونبينا دون مناقشة أو دراسة، ولكننا نطلب منهم أن يكونوا عند قول الحقيقة منصفين، وعند موضوعية البحث كما يدعونها وضمن نطاق منهج العلم كما يريد العلم.. أما أن يستجيبوا لنزوات الكنيسة ورغباتها ولأهداف التبشير وآرائه وللصهيونية وأغراضها فيصل بهم الغباء إلى حد أن ينفوا عن رسول الله أن يكون تسمّى بمحمد، أو يجعلوا له ولداً اسمه عبد مناف، أو يجعلوه رضي عن أصنام قريش ثم تخلى عن ذلك، ويصل بهم الأمر إلى غزو المسلمين في لغتهم ودينهم وقرآنهم وثقافتهم وتاريخهم وحضارتهم وبلدانهم لينشروا مقابل ذلك دينهم ولغتهم وثقافتهم وحضارتهم، ويصلوا إلى درجة تزييف الحقائق والقيم والمفاهيم دون حجة أو دليل فتلك لعمري قاصمة الظهر التي تدين هؤلاء المستشرقين في علومهم ومناهجهم وقيمهم وحضارتهم.

لقد آن الأوان لنكشف الستار عن الحقائق التي ظلت مشوهة عدة قرون، وآن الأوان ليعرف الغرب نفسه ويفهم هؤلاء المستشرقون حقيقة ما أقدموا ويقدمون عليه في مدارسهم الاستشراقية وجامعاتهم ورسائلهم الجامعية والأكاديمية من تزييف وقلب للحقائق وعدوان على الإسلام وأهله. كان الإسلام ـ وما يزال ـ ترتفع راياته حتى في غياب أبنائه

وضعف قوتهم وسلطانهم، وفي الوقت الذي تقف فيه كل الأمم الكبرى في مواجهته، وتلك إشارة كافية لإثبات أنه دين سماوي، فإذا درست حقائقه وآياته الباهرات أدركت صحة ما يدعو إليه وعظمة ما يسعى إليه هذا الدين.. الغاية الكبرى لهذا الدين هي وحدة البشرية وتلاقي الإنسانية على الحق والخير والسلام وتلك مفاهيم عجزت كل المذاهب الغربية في غياب الدين إن تنشرها في الأرض، ولعل أبناء الأرض اليوم يفهمون هذه الحقيقة وأن هذه الرسالة التي احتضنت شريعة موسى وعيسى عليهما السلام، أهلٌ أن تجمع بين أبناء الأرض في وحدة إنسانية رائدها الحب والخير للجميع.

الحروب، والفتن والثورات المفاسد والرذائل، تلوث الأرض، وعدوان الشعوب والنظم الاقتصادية غير المستقرة والجوع وإراقة الدماء، وكراهية الإنسان للإنسان وعبودية الإنسان لأخيه الإنسان.. كل ذلك لا يستطيع أن يمحو آثاره إلا الإسلام.

ولعل الغرب يدرك في آخر هذا القرن هذه الحقيقة ـ وهو يعلمها حق العلم ـ فيقف مصافحاً هذا الدين ليسيرا معاً في بناء المجتمع الإنساني والخالي من العبودية والجوع والظلم والذل والقتل والاضطهاد والتمييز العنصري والغدر بالشعوب...

وعندها يعلم الجميع حقيقة الإسلام الذي يحتضن أبناء الإنجيل وأبناء التوراة وأبناء العالم كلهم في وحدة إنسانية شاملة، يتساوى فيها الجميع في نطاق الحب والعدل والأمن والسلام كما قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.[الحجرات: ١٣].

الفصل الأول

المجتمع الإسلامي

مجتمع متميز

(صفاء العقيدة)

يوم أذن الله تعالى للإنسان أن يعمر هذه الأرض، أحاطه بعنايته ورعايته فمنحه عقلاً حكيماً وفكراً صائباً يردعه عن أن تهوى به النفس الأمارة إلى الحضيض، ويأخذ بيده إلى حياة أفضل وطريق أسلم، فيكون خليفته كما أراد له أن يكون.

ولكن ما يعتلج في نفس الإنسان من شهوة وحب ونفس أمارة وشيطان يسوّل، كثيراً ما يطيح به فوق هذه الأرض فتزهو به النفس ليظلم أو يفسد أو يقتل، ويراوغه الشيطان حتى ليجعل مع الله إلهاً آخراً أو يدعي الألوهية لنفسه، وقد تحمله زخارف الحياة إلى أن ينحرف عن الطريق الذي رسمه الله له والغاية التي من أجلها أوجده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] لكل ذلك أحاطه الله تعالى برعاية دائمة زيادة على ما منحه من عقل مدبر، وكانت رعايته له بما أنزل من شرائع ورسالات سماوية وأنبياء ورسل حملوا له في كتبهم السماوية شرائع تصلح بها حياة البشر إن استجابوا لها... وقد أعذر الله تعالى إلى خلقه في كل ما أرسل إليهم من كتب ورسل، وفيما خلق لهم من عوالم تشد العقل للتفكر والتدبر وصولاً إلى الخالق الحكيم. فالأديان إذن ليست ترفاً عقلياً لا حاجة لنا بها، بل هي ظواهر إنسانية واجتماعية لابد منها، ويتحسس بها كل إنسان عاقل، ويدرك بفطرته أن له صلة بموجود أعلى منه وأعظم، يلجأ إليه لتحقيق رغباته الجسدية والروحية، ويتجلى هذا في تعلق الشعوب البدائية بقوة عليا كالشمس والمطر والقمر والأصنام بغض النظر عن بطلانها ليروا فيها المنفذ والمخلص والمساعد في كل ما يرغبون. وهؤلاء خوطبوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ

لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] فرد الله عليهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقد تكون هذه الصلة قائمة على الفكر والعقل فيتساءل الإنسان بفطرته وهو يقلب بصره فيما حوله من أرض وسماء، محاولاً إدراك هذا الموجود الأعظم، فإذا أحسن النظر بعقل ثاقب اهتدى إلى الله:

ففي كل شيء له آيةٌ   تدل على أنه واحد

وهذا ما اعترف به عبدة الأصنام أنفسهم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت: ٦١].

فالإنسان في هذا الكون وما فيه من عوالم ومخلوقات لا يمكنه أن يعيش دون أن يحسّ ويتأثر بهذه العوالم بل لا يستطيع أن يظل غير عابئ بها إلا إذا كان ملحداً أو كافراً، ولما كان الإنسان لا يمكنه أن يظل بدون عقيدة، وإذا عرفنا أن الدوافع التي تهيب به أن يفكر في هذا الكون وخالقه، أكثر من أن تحصى، لكل ذلك كان الإلحاد مصيبة المصائب على البشرية ولم تستطع كل نظريات الفلاسفة وتأويلاتهم وتأليههم للإنسان مرة والطبيعة مرة أخرى أن تخلق من الناس بشراً سوياً، بل أدت إلى تناقضات متداخلة وفوضى في السلوك وانعدام في الروابط الإنسانية، وانهيار في المفاهيم الأخلاقية وتفكك في البنى الاجتماعية فضلاً عما خلفت من انهيارات نفسية أدت إلى بروز ظاهرة الإجرام والانتحار.(١)

وهاهي أوربا اليوم، والعالم أكبر شاهد على ما آلت إليه حضارة الإنسان، فعلى الرغم من الرقي المادي والتطور الاقتصادي، إلا أن ذلك لم يكن إلا سبباً في شقاء الإنسان، حيث فقد العقيدة الصحيحة التي يؤوب إليها فيجد راحته وسعادته.. إن كل فلاسفة الغرب لم يستطيعوا بكل مذاهبهم ونظرياتهم وتأويلاتهم أن يوصلوا هذا الإنسان إلى بر السعادة فضلاً عن العبثية والإلحاد والفوضى التي آلت إليها تلك المجتمعات، وهذا أكبر شاهد على أن هذا الإنسان لا تصلحه إلا العقيدة المبنية على الاعتقاد بإله واحد وعلى العقل الذي آمن به بعد أن رأى الدلائل البينة على وجوده.

وقد خلق الله تعالى الإنسان، من رحمته، مفطوراً على الوحدانية «كل مولود يولد على الفطرة...» وقد يحلو لبعض العلماء أن يردوا هذا الاعتقاد إلى إحساس لا شعوري طريقه العقل الباطن والإلهام، ومهما يكن من الأمر فإنه شعور غير اختياري لا يستطيع المرء التخلص منه، ألم تر إلى ذلك البدوي الذي تمعن الأرض والسماء وما فيهما فقال موحّداً دون أن تهديه رسالة ولا نبوة [أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا يدلان على الحكيم العليم]؟

والذين رأوا ذلك الرأي ـ أن الوحدانية ليست فطرة ـ هم الذين فصلوا بين الدين والدولة، واعتبروا الدين أفيون الشعوب، فكان من وراء ذلك حيرة الإنسان وضلاله وعبثيته.. مما ينبئنا أن هذه الفطرة ليست شعوراً خارجياً بل هي إحساس مستقر في أعماق النفس، ولكن قد تغشاها زخارف الحياة وهوى النفس والأفكار السقيمة فتميتها مع الأيام

ولتوكيد ذلك نرى أن الإنسان كثيراً ما يرتد من دائرة الإلحاد ليؤوب إلى رحاب الله فيعود موحداً مستجيباً لفطرته السليمة التي فطره الله عليها، وفي إسلام عشرات بل مئات الفلاسفة والعلماء على مدى التاريخ وفي أيامنا هذه أكبر دليل على هذه الفطرة السليمة.

وقد يرى بعضهم أن الاعتقاد أمر قائم على الإرادة والاختيار ولا يمكن تجريد الاعتقاد منهما، وهي نظرة أنصار علم الكلام، وفيها دليل على حرية العقيدة التي أعطيت للإنسان وتكليف في حدود الطاقة الإنسانية وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن ـ لا إكراه في الدين ـ وذلك بعد أن وضعت القدرة الإلهية في الإنسان فطرة سليمة وعقلاً مفكراً وكوناً عظيماً يكون مدعاة لأن يهتدي إلى الله، ثم كانت الرسالات السماوية خاتمة المطاف لدلالة الخلق على الله، وبهذا ترى أن الدين طريقه العقل والإلهام، والتفكر والتدبر في ملكوت الله..

وسواء كانت الدوافع التي تدفع الإنسان إلى اعتناق العقيدة هو شعور بالحاجة حيث تجد راحته النفسية أو هو الشعور بالخوف من عالم مجهول أو من قوة الطبيعة وسيطرة الإنسان أو هو التقليد للآباء والأجداد ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فإن الإنسان لا يستطيع أن يظل خارج دائرة عقيدة يعتقدها، وهذا ما يصور الرغبة الذاتية المنبعثة من داخل كل إنسان نحو التعلق بقوة غيبية تساعده أو ترد عنه.. إذ هو من الضعف أمام عوارض الطبيعة كريشة في مهب الريح وذلك على الرغم من كل ما ملك ويملك اليوم من القوى المادية للدفاع عن النفس، بل هو ليبدو اليوم - وقد ملك الذرة

والصاروخ - أحوج ما يكون إلى عقيدة يتفيأ ظلالها ويجد فيها أمنه وأمانه.

وهذا بالذات ما يفسر لنا ظهور أشكال العبادات في الأمم السالفة، حيث عرفنا عبادة الشمس والنار والحيوان والنبات، بل إن الإنسان حتى يظل على صلة دائمة بهذا الإله، عمد إليه فصنعه بنفسه من حجر أو طين أو تمر أحياناً... وأدار من حوله فلسفته في الحياة والوجود.

ومع تطور الإنسان، تطور مفهوم الدين نحو البحث عن كائن أعلى، وقد تعددت هذه الكائنات العلوية كإله الحب وإله المطر وإله الخمر وإله المعرفة ثم تطورت هذه العبادة إلى فكرة التثليث فالوحدانية.. أما المفهوم الديني عند الغربيين فقد انحدر عن أفكار. مختلفة فالله في نظر اليونان لم يكن واضحاً، وهو عند أرسطو خالٍ من الإرادة لأنها طلب وهو منزه عن الطلب وبالتالي فهو لا يعلم شيئاً عن الكليات ولا عن الجزئيات كما أنه لا يعقل شيئاً عن ذاته ومن هنا كان مفهوم الألوهية عند أرسطو مشوهاً[٢].

ومثل ذلك نجد أن هذا المفهوم كان غامضاً حتى عند أكبر فلاسفة اليونان وهو أفلاطون الذي اعتبر أول مؤله منهجي وضع الألوهية كنظرية فلسفية في بلاد الإغريق من خلال - نظرية المثل - والتي ملخصها أن الأشياء المادية في هذا العالم الحسي الذي يزدريه أفلاطون هي التي تمتلك الفاعلية لأن الأشياء لا تسكن على حال واحد فهي تحاول الوصول إلى كمالها عن طريق التشبه بالمثل قدر الإمكان، كما أننا نجد

أن أفلاطون لا يستقر على رأي واحد بخصوص علة هذا العلم فمرة ينظر إلى هذه العلة على أنها «مثال الخير» ومرة يصفها «بالصانع» ومرة ـ بالمبدع ـ وأخرى ـ بالمهندس الأعظم أو يسميها «مليكنا الأعلى» أو هي «الحي بين الآلهة» وهذا يعني أن مفهوم الألوهية لم يكن واضحاً عند اليونان[٣] ومثل هذه المفاهيم لا شك تركت أثرها على الفكر الأوربي وشوهته في فهمه للدين.

الرسالات السماوية:

لقد كانت الرسالات السماوية التي تنزلت على أنبياء الله عزو وجل نجاة للإنسان من قبل تلك المفاهيم التي انحدر إليها الإنسان والضياع الذي تردّى فيه، فكانت تتنزل على قدر فهم الإنسان وتطوره فتمنحه الاستقرار والأمن والطمأنينة، وما يستطيع أن يقطع به الحياة بسكينة ليصل إلى الله بقلب سليم وعقيدة ثابتة.

وقد تلاقت هذه الدراسات السماوية على مفهوم التوحيد وأثبت القرآن الكريم هذه الوحدة العقيدية بين الأنبياء بقوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۞وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤] ثم ذكر الغاية من إرسال هؤلاء الرسل ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥].

بنو إسرائيل والتوراة:

كانت رسالة موسى عليه السلام تملك من الدلائل والمواعظ والعقائد ما تجعل من حياة الناس حياة فضلى لو فقه اليهود ذلك، ولكنهم وقفوا منها موقف المعارض فضيعوا على أنفسهم فرصة لا تعوض، وما كان هؤلاء اليهود إلا خلقاً من خلق الله يسري عليهم ما يسري على الأمم، ولقد احتضنتهم العناية الإلهية عن طريق إرسال رسول من أولي العزم وهو موسى عليه السلام، والذي جاءهم بالتوراة، الكتاب السماوي، ولكنهم لخبث نفوسهم وفساد طويتهم لم يتقبلوا آيات التوراة ومواعظها، وقد بلغ من اعتناء الله بهم أن أرسل إليهم بعد ذلك عشرات بل مئات الأنبياء. والمريض إذا اضطر أهله إلى إحضار عشرات الأطباء له فلا يعني هذا إلا تحكم الداء فيه، وكذلك كان بنو إسرائيل قد خبثت معادن نفوسهم وفسدت أخلاقهم، وقد ظهر من شأنهم مع سيدنا موسى ما ينبئ عن قسوة قلوبهم ونواياهم الفاسدة، فلما عرضت عليهم التوراة تولوا ورفضوا حتى هُدِّدوا بإلقاء جبل الطور عليهم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣] كل ذلك رحمة من الله بهم لعلهم يتوبون أويذكرون وهو لا يريد أن يعذبهم إلا أنهم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] هؤلاء القساة المجرمون، قتلة الأنبياء عبر التاريخ جاءهم موسى عليه السلام ليطمئن من غرورهم وكبريائهم ويهديهم سواء السبيل، وليخلصهم من ظلم الفراعنة الذين ساموهم الذل والهوان، ولكن

نفوسهم كانت قد أُشربت الذل والاضطهاد، فلم يخرجوا معه حتى أتوا منكرا من الفعال فكان أن استقرضوا الذهب من المصريين وهربوا به مع موسى، ولما دخلوا به طور سيناء بعد أن نجاهم الله تعالى من فرعون وعبروا البحر بمعجزة ربانية ورأوا ذلك بأعينهم، وظللهم الله بالغمام من حر الشمس وأنزل عليهم المن والسلوى، لم يصلحهم كل ذلك إذا ما لبثوا ـ بعد أن مضى موسى إلى مناجاة ربه ـ أن انصرفوا عن التوحيد إلى عبادة العجل ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١] ثم كان أن عفا الله عنهم من بعد ذلك، ولكن كل هذا الاعتناء من الله بهم لم يجدهم في تخليصهم من رذائلهم وقد أعذر الله إليهم بنبيه موسى والأنبياء من بعده، وقد لاقى منهم سيدنا موسى من ضروب الرفض والإنكار والمقارعة ما لا يتحمله إلا نبي من أولي العزم وقد أشار إلى ذلك نبينا محمد ﷺ (لقد أوذي موسى أكثر ما أوذيت فصبر) (٤) وقد أشار القرآن الكريم إلى عنادهم وكفرهم وتكذيبهم للرسل بل وقتلهم مما تميّزوا به من بين الأمم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] ولما سئلوا في ذلك لم يجدوا في الدفاع عن أنفسهم إلا قولهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

ولقد لخص الله رذائلهم بدءاً من الكفر وعبادة العجل ونقص العهود وقتل الأنبياء ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رسول الله وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧].

كل ذلك كان منهم بعد أن بلغوا رسالة الله عن طريق موسى عليه السلام ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠] وأخبر عن تبليغهم الرسالة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦]. وعلى كثرة ما قاسى موسى عليه السلام منهم آمن منهم فئة قليلة ولكن البقية الباقية كانت على مثل تلك الأخلاق التي وصفها القرآن بل إنهم ما لبثوا أن انحرفوا عن التوحيد إلى عقائد شتى، فإذا كانوا في زمن موسى وهو بين ربوعهم عبدوا العجل فماذا تتصور أن يفعلوا إذا غاب عنهم؟ إذ ما لبثوا بعد موته أن عبدوا البشر وألّهوا العزير وتاهوا في دروب الضلال وخرجوا عن جادة الحق ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ ورد عليهم ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٠]. وبهذا حرفوا الوحدانية أن تكون لله وحده ومن قبل عبدوا العجل في قصة مثيرة حقاً لأولئك الذين استسلموا لعقيدة التوراة بعد أن رأوا المعجزات والخوارق، بل إنهم ما لبثوا أن حرفوا صورة الإله نفسه فكان إلههم - يهْوه - ظالماً قاتلاً يأمر بذبح الأمميين «غير اليهود» ذبح النعاج إذا ما انتصروا عليهم... وبهذا

حرفوا الوحدانية عن طريقها الصحيح، واكتسبوا بذلك لعنة الله الأبدية لهم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

يقول اللورد ماركولي الكاتب الإنجليزي الشهير: «ولطالما أذّن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديماً في دينهم من البدع مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون إلههم إله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال» (٥).

ولقد أعذر الله تعالى إلى اليهود بعد موسى عليه السلام، حيث أرسل إليهم السيد المسيح وقد زادت جرائمهم فسفكوا الدماء وقتلوا وتعدوا.. وخرجوا عن تعاليم الله من جديد ولم يفهموا من دعوة السيد المسيح إلا أن يرفع نير الامبراطورية الرومانية عن كواهلهم، ويقيم لهم مكانها امبراطورية يكونون هم فيها الجنس الأفضل، ولكنه لم يوفق إلى ذلك فعملوا على التآمر عليه، وراحوا بعد تحريف التوراة يعملون على تحريف الإنجيل مما جعل أبناء النصرانية لا يهتدون إلى التوحيد الصحيح.

النصرانية والتثليث:

أرسل الله تعالى عيسى عليه السلام ليطمئن من غرور اليهود وجرائمهم لعلهم يتوبون أو يذكّرون، وجاءهم بالتوحيد الخالص ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١] فآمن به الحواريون وهم قلة وما لبث مَنْ بعدهم أن ألهّوا المسيح ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ..﴾ [التوبة: ٣٠].

وهكذا لم تجْدِ مع اليهود كل تعاليم السيد المسيح من الحب والصفح والمحبة والسلام، ولم تكن تلك القيم إلا دروساً جوفاء بالنسبة إليهم لم يستفيدوا منها بشيء، وما لبثت النصرانية بعيد قرن من السيد المسيح أن انقسمت إلى فرق ومذاهب، يقول ماركولي: «ولم يسلم تابعوا المسيح من النصارى أن يصيبهم في إيمانهم ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم، فتمثل الإله لهم في صورة آدمي يمشي بينهم ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا في ذلك للعالم في لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القّسيسين والرهبان بعد ذلك العديد من الآلهة»[٦] وقد أكد القرآن الكريم هذه الرؤية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] كما صور الغاية التي من أجلها اتخذوهم أرباباً ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] ولم تستطع الكنيسة أن تحافظ على صفاء العقيدة النصرانية بعد أن حرّفت في القرن الثاني تحريفاً لم يعد بالإمكان العودة بها إلى نقائها، وماسر بقائها حتى اليوم واستمرار التبشير بها إلا أنها على تحريفها ما زالت تملأ فراغاً عجزت الوثنية أن تملأه أو لأنه حيل بين هؤلاء القوم وبين الإسلام بما يقوم به الاستعمار والتبشير والاستشراق.

ويرى الأستاذ جنيبير أن هؤلاء الذين كتبوا سيرة المسيح وحياته كانوا متأثرين بنْزعاتهم الشخصية حيث لم يكونوا يفرقون بين الخيال والواقع ويقول: إذا كانت المسيحية تعتمد أساساً في سردها وعقائدها على نصوص الأناجيل، فإن تصفح هذه الأناجيل وحده يكفي لإقناعنا بأن

مؤلفيها قد توصلوا إلى تركيبات واضحة التعارض لنفس الأحداث، مما يحتم القول أن مؤلفي هذه الأناجيل لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ويستلهموا تاريخاً ثابتاً بل اتبع كلٌ هواه، ولم يكن عملهم سوى الربط بكثير من المهارة بين أطراف الروايات وأن يشكلوا منها سيرة افتقرت إلى الوحدة الحقيقية.[٧]

وإذا كانت عقيدة التثليث وبنوّة المسيح لله من أركان النصرانية فإن جنيبير يقول: «بأن النتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هي أن عيسى لم يدّع قط أنه هو المسيح المنتظر ولم يقل عن نفسه أنه ابن الله» ويعتقد جنيبير: «أن يكون عيسى قد تصور نفسه –عبد الله– وعبد كلمة عبرية وهي تترجم في اليونانية، بمعنى خادم أو طفل على حد سواء وليس من العسير أن تتطور عندهم كلمة طفل إلى ابن» ولكن مفهوم ابن الله نبع من عالم الفكر اليوناني والذي قال بذلك هو اليهودي بولس وهو من يهود المهجر ادّعى رؤية المسيح وابتدأ التبشير بجملة من العقائد الطارئة على المسيحية والتي صارت مع الزمن هي العقائد الأصلية، واعتبر بولس المؤسس الحقيقي للمسيحية الحالية.

وجنيبير نفسه يرى أن عقيدة التثليث أيا كان تفسير المعتنقين لها، إنما هي ضرب من ضروب الشك وصريح الكفر، وقد بدأت تلك العقيدة بالتدريج تكتسب تلك الرؤية وبدأها بولس حيث كان يرى في عيسى « إنساناً سماوياً » وأنه تمثلت فيه روح الله فكانت تلك بداية للإضافات التي تطلع إليها المؤمنون بإلحاج والتي انتهت بالتقريب بين الله والمسيح ومن ثم التوحيد بينهما.

إذن فعيسى الذي كان ـ إنساناً سماوياً ـ عند بولس، وسبقت عناصره الروحية في الوجود وجوده الجسدي ومبتدأ حياته هو الروح الإلهي نفسه، هو الروح ذاته. وجاء عيسى إلى الأرض لينشئ إنسانية جديدة هو آدمها، إنسانية مثقلة بالخطايا فجاء ليحررها من خطاياها بقبوله أن يعيش عيشة الإنسان المحقر وأن يموت ميتة الإثم، المشيئة« بالصلب» وأنه صورة الله الخفية وهو أول الخلق ففيه وبه خلقت سائر الكائنات» (٨) لا ريب أن هذه صورة للنبي عيسى عليه السلام لا تقبلها عقول البشر فلماذا يصلب نفسه وهو الإله ولماذا لا يفتديها وعنده القدرة على ذلك إن هذا ليس إلا افتراء من اليهود في تشويه حقيقة السيد المسيح عليه السلام.

هذا الوصف للسيد المسيح وجدوه في رسالة بين رسائل بولس فظنوها وحياً إلهياً حتى صارت دعامة من دعائم اعتقادهم، وكان التصور الثاني عند بولس أن المسيح هو «اللوغوس» أي فيض الله، ومن ثم صار مرادفاً له فالمسيح هو الله، والتصور الثالث هو أن المسيح لم يكن إنساناً إلا ظاهراً وأنه لم يمتحن ولم يمت إلا في الظاهر..

وقد انصبت جهود المسيحيين بعد ذلك على التوفيق بين هذه التصورات الثلاث فلم تفلح في إقناع الناس فلجأت مكرهة إلى ما أسمته بالأسرار..

إذن كان عمل الكنيسة هو أن تسعى إلى تقريب عيسى من الله، إضافة إلى تفسير تلك الألفاظ التي ظهرت من رمز الآب والابن وروح

القدس في شخصيات ثلاث تتميز معالمها يوماً بعد يوم ولم يكن للعقول أمام ذلك، من حل: إلا التخلي صراحة عن التوحيد والتسليم بالتثليث أو التخلي عن التمييز بين الشخصيات الثلاثة في الله أو القول بأن كلاً من هذه الشخصيات ليس إلا جانباً جوهرياً من جوانب الذات الإلهية الواحدة.

وقد ضاعت الحقيقة وسط التفسيرات والنظريات اللاهوتية في دروب لم يعد المنطق يدرك معالمها، ولم يجد الإمام البوصيري إلا أن يسخر من تلك العقيدة التي لم تعد تعرف كنهها : فتراه يقول:

خبرونا أهل الكتابين من أين أتاكم تثليثكم والبَداء[٩]

ما أتى بالعقيدتين كتابٌ واعتقاد لا نص فيه ادعاء

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بيناتٌ أبناؤها أدعياء

ثم راح يسخر من هذا الثالوث الذي لا يكاد يبين:

أإله مركب ما سمعنا بإلهٍ لذاتهِ أجزاءُ

والمعضلة التي تواجهها المسيحية في الغرب في هذا التناقض بين ما تضمنه الكتاب المقدس وبين ما انتهى إليه العلم الحديث من مكتشفات أثبتتها التجربة وهذا ما أوقع هؤلاء المتعلمين في حيرة بين احترامهم للكتاب المقدس وبين ما انتهوا إليه من علوم.

وقد أدت دراسة نصوص الكتاب المقدس إلى نقد متنه وتمحيصه وإصلاح عبارات كثيرة مغلوطة فيه، وكثيرون لا يعرفون أن أقدم نسخة مخطوطة للعهد الجديد ترجع إلى القرن التاسع الميلادي وأقدم نسخة يونانية مخطوطة للعهد الجديد ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، وأن النسخ القديمة للكتاب المقدس تختلف الواحدة عن الأخرى في نقاط كثيرة.. وهذا بالذات ما جعل الكنيسة تلجأ إلى الرمز في تفسير هذه النصوص، لأن الرمز كان المخرج الوحيد من المواقف الحرجة التي فرضتها تلك النصوص، ولكن الرمز نفسه لم يؤدّ إلى تفسير تلك النصوص بقدر ما أدى إلى إدخال مفاهيم مسيحية جديدة ضمن النصوص القديمة..

وقد كان تفسير النصوص تفسيراً رمزياً من المشكلات العقيدية، وما لبث أن صرخ كالفن رافعاً عقيرته بإنكارها: «يجب أن نرفض رفضاً باتاً كل التفاسير الرمزية التي قام بها أورجينوس وغيره»، كما قام لوثر بحملة عنيفة ونقد شديد للتفسير الرمزي وقال: «إن التفاسير الرمزية هي افتراضات فارغة وهي أشبه بنفايا الأسفار المقدسة» (١٠).

وإن سئل هؤلاء ماسر هذا الاعتقاد عندكم بأن المسيح هو الله؟ أجابوك: «قد وجدنا الله في المسيح أفضل شخص نعرفه. ولهذا لن نفسر الله في أقل من ذلك..».

وهذا يؤكد مقولة أن النصارى يطلبونه إلـهاً محسوساً مثلما فعل اليهود من قبل، مما يؤكد أن بولس اليهودي نفسه هو الذي أعطى -الله- هذا التفسير، وأنه هو المسيح بعينه.. فقد كان يـهودياً متعمقاً في مبادئ ضيقة لطائفة عبرانية ثم وجد أن كثيراً من المعتقدات القديمة التي كان متمسكاً بها لم يعد في إمكانه الثقة بها فغيّر تفسيره للأسفار المقدسة.. كما ثبت لدى رئيس قسم الأديان في جامعة باريس «أن أغلب الفقرات التي يظهر فيها أنها من الأناجيل يبدو أنها صدرت عن محرري الأناجيل لاعن عيسى».

وهذه دائرة المعارف البريطانية مجلد ١١ اعترفت: «بأن كل قول مندرج في الكتب المقدسة ليس إلهامياً وأن الذين يقولون إن كل ما في الأناجيل إلـهامي لا يقدرون على إثبات صحة دعواهم» (١١). ويعلق بوكاي بأن هذه أقوال تدعم مقولة القرآن في تصحيح عقيدة النصارى ونبذ التثليث وانتقاده بشدة مما يؤكد على وحدانية الدعوة النصرانية في أصولها الأولى.. وقد أكد هيجل أن السبب الذي من أجله تحولت المسيحية من ديانة تدعو إلى المحبة والحرية إلى ديانة تقول بالسلطة والعبودية، سبب ذلك هو تسلل بعض العناصر اليهودية إلى المسيحية وقد عرض فولتير كذلك بالمسيحية وعقدة بنوّة المسيح لله من خلال استشهاده بعبارة ـ مكسيم المادوري ـ في خطابه إلى أوغسطين: «إنه لإنسان جدُّ غبي هذا الذي يشك في وجود إله عظيم أزلي لا نهائي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد» (١٢).

وتحت قلم فولتير هذا راحت تتهاوى العقائد المسيحية فهو يقول: «فعقيدة التثليث لا توجد في الأناجيل فضلاً عن أنها تستعصي على الفهم وإن القول بثلاثة أشخاص وجوهر إلهي واحد هو إدخال خطأ شنيع في دين المسيح وترويج للشرك».

وأما آريوس فقد كان على حق عندما وجد أن التثليث لا يمكن فهمه وآثر تصور المسيح كإنسان، كما أثبت أنه له طبيعة واحدة هي الطبيعة الإنسانية، وهذا يتلاقى مع نظرة القرآن الكريم إلى السيد المسيح ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣١]. وبهذه المفاهيم التي لا تنطبق في العقل مع المسيحية حدثت القطيعة بين العلم والدين وانصرف العلماء بعيدا عن الدين لكنهم رأوا في العلم الحقيقة واضحة، ولكنهم لم يهتدوا بالعلم وحده إذا ما لبثوا أن ألّهوا الطبيعة مرة، ومرة الإنسان، وهذه النظرة إلى النصرانية هي التي نظرها أبناء الغرب حتى المفكرون الكبار منهم أمثال ديكارت وكانت وهيجل إن لم تكن نظرتهم للدين نظرة تاريخية استقرائية ولعل جملة من المؤثرات حالت بينهم وبين الإسلام، مما فوّت عليهم فرصة نادرة كان يمكن أن يتعرفوا خلالها على دين الله....

وبهذا ترى أن النصرانية أثمرت تضارباً بين العلم والدين بحيث لم تستطع الكنيسة إقناع هؤلاء العلماء فترددوا إلى مذاهب عقلانية مختلفة ضلوا في ثناياها، وصار الدين ثوباً يلبسه كل فرد ـ لا الجماعة ـ ويخلعه متى شاء، في حيرة لم يهتدوا منها بعد.

الإسلام ونقاء العقيدة:

إذا كانت عقائد الديانات السابقة عند اليهود والنصارى قد انحرفت عن توحيدها الخالص لله، ومن ثم شابتها شوائب الشرك والإلحاد وابتعدت بذلك عن أصولها الصحيحة، فإن الإسلام ـ وبعقيدة التوحيد ـ استطاع أن يثبت ذاتيته كما أثبت نقاء عقيدة الأنبياء من قبله وبذلك صحح مسار الانحراف في عقيدة أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، وتابع رفع لواء التوحيد والأخلاق والقيم العالمية مما جعله ديناً عالمياً موجهاً للإنسانية جميعاً ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقد بني اعتقاد المسلم على فطرة سليمة فطر الله الناس عليها، وعقل حكيم يقيم الدليل على وجود الله بالحجة والمنطق والبرهان ودون إرغام أي إنسان على ذلك إذ «لا إكراه في الدين» وإنما عن طريق إقامة الحوار الفعال والنقاش الهادئ دون سب أو تحقير لأحد، ومع كل الاحترام لأصحاب الآراء المخالفة ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا...﴾ [آل عمران: ٦٤]. فإذا ملكت الحجة على عدم وجود الله اتبعناك وسرنا معك ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وإن لم تملك الحجة والدليل على ذلك فالقرآن يقدم لك الدليل المقنع على وجود الله.

وقد حاور القرآن الكريم المشركين وعبدة الأصنام، متسائلاً عن هذه الأصنام ومدى المنافع التي تمنحها لمن يعبّدها، ومدى قدرتها على الخلق:

ـ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤].

ـ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥].

ـ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [فاطر: ٤٠].

وقد عبرت قرون وآباؤهم يعظمونها ويقدسونها ويقدمون لها الذبائح فعزّ عليهم تركها ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وقد عاتبهم الله تعالى بشدة ونبه عقولهم التي استمرأت العيش في وحول التقليد الأعمى للآباء دون تفكير أو محاكمة ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، فما ملكوا من أمرهم إلا أن نسبوا إشراكهم إلى الله أيضاً فقالوا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وهكذا أسقط في أيديهم ورأوا أن الحجة قد قامت عليهم فآمن من آمن وبقي على ضلاله من رفض قبوله الحقيقة والبرهان الساطع، ورفعت راية التوحيد ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وشهدت الملائكة على ذلك ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وأعلنت راية التوحيد دون إرغام لأحد وخوطبت الأمم ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] وأمر رسول الله ﷺ بالجهر بهذه الكلمة ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾ [المائدة: ٦٧] فقام رسول الله يعلن ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، وحمل المسلمون هذه الراية المباركة بعد

رسول الله ﷺ وما زالت ترفرف في أرجاء العالم ووسط مئات العقائد الزائفة التي لا تملك الدليل والبرهان، ما زالت تغزو قلوب الفلاسفة والعلماء والمثقفين فيستجيبون لما فيها من قوانين ونظم وشرائع تلتقي مع الفطرة الإنسانية والعقل الرشيد والرقي الحضاري للإنسان.

مفهوم الألوهية:

يرى بعض علماء الاجتماع أن مفهوم الألوهية ما هو إلا فكرة مجردة لم تكن في متناول المجتمعات البدائية، وهي فكرة تحتاج إلى ذهنية قادرة على التجريد، وهذا يعني أنها فكرة لا تولد مع الإنسان بل هي مما يكتسبه المرء بعد بذل مجهود ليرتقي من المحسوس إلى المجرد، حتى إذا وصلت المجتمعات البدائية إلى فكرة المقدس فإن هذا المقدس بالنسبة إليها ليس إلا تمثّل الجماعات البشرية ذاتها..

ولفظ ـ مقدس ـ عند اسبينوزا تطلق على كل ما يؤدي إلى التقوى وإلى الدين، فإذا كانت هذه الكلمات مقدس وإلهي ـ قادرة على أن تحث من يقّرون بها على التقوى أصبحت هذه الكلمات مقدسة وأصبح الكتاب مقدساً، فإن تخلى الكتاب كلية عن هذه التقوى كما تخلّى عنها اليهود من قبل أصبح حبراً على ورق وضاعت قدسيته كلية وأصبح معرضاً للتحريف.

وقد رأى اسبينوزا أن هذا المفهوم للمقدس بهذا المعنى لا يتطابق مع مفهومه مع المسيحية. وهذا دوركايم عالم الاجتماع اليهودي يرى في مفهومه للمقدس أنه يفترض عدم وجود عالمين أرضي وسماوي أو عالم

مقدس وعالم غير مقدس، وإنما الموجود في نظره هو هـذا العـالم الـذي نعيش فيه، وهو عالم الطبيعة وإنما تأتي عنده فكـرة المقـدس مـن خـلال التطور الذي يصاحب تطور المجتمعات البشرية لهذا فهو يـرى أن مفـهوم الألوهية هو مفهوم قابل للتطـور[١٣]. وقـد بنـى نظريتـه تلـك علـى رؤيـة خلفاء داروين الذين عمموا نظرة داروين، فـإذا كـان الإنسـان متطـوراً عـن قرد فلا مانع أن تطبق هذه النظرية لتعم الدين والأخلاق والقيم، والفرض من كل ذلك معروف وهو تدمير الديـن والأخـلاق والقضـاء علـى كلمـة التوحيد. وهو ما وصلت إليه المجتمعات الغربية اليوم..

إن مفهوم الألوهية عند دوركايم هو المجتمع الذي يسبغ على هـذا المفهوم فكرة القداسة، وهو يرى أن القداسة نفسـها لا تخـرج عـن نطـاق الواقع الأخلاقي للمجتمع، أي أن مفهوم الألوهية عنده لا يعدو أن يكـون هو المجتمع، (وأصحاب هذا الـرأي كمـا تـرى يـرون أن الديـن ظـاهرة اجتماعية تولدها الجماعة من أجل إرضاء حاجياتها الروحيـة والمعنويـة ومـن هنـا قـام دوركـايم بتأسـيس ديـن البشـرية الكونـي « الكليانيـة الاجتماعية » والذي يصبح فيه المجتمع هو مرجع نفسه، فإذا آمن بفكـرة ما، فرضت نفسها كحقيقة لا تنـاقش ولا تـرد ومـن يخـرج عليـها يدفـع الثمن باهظاً)[١٤] وتستمر هذه الحقيقة حتى يأتي وقت آخر تسـقط فيـه، لكي يتبنّى المجتمع حقيقة أخرى مكانـها، فـانظر إلـى هـذه الدوامـة فـي الاعتقاد والتي يدور فيـها هـذا المجتمـع الغربـي، فبعـد أن حذفـوا الديـن والعقيدة من حياتهم، راحوا يتخبطون فيما يعتقدون، ولا يستقر لهم حال، وانظر كيـف انتـهوا إلـى فوضـى عقيديـة وانتشـر بينـهم الإلحـاد والعبثيـة

والتحلل، وكيف استطاع هؤلاء الصهاينة قلب الحقائق عن طريق مذاهب ونظريات علمية بهلوانية زعموا فيها أن المجتمع هو الله وأنه هو الذي يحاسب نفسه بنفسه. ولكن نسي دوركايم أن يحدد لنا من هذا الذي سيقوم بالمحاسبة وهل سيرضى الباقون به، ألا يمكن أن تبرز هنا العصبيات والأجناس، نعم لقد حصل هذا وظهر الجنس الممتاز المتعالي. عند الألمان وعند الصهاينة، والحقيقة أن مفهوم الألوهية لايمكن أن يصدر عن تلك القوى الميكانيكية الإلهية التي سماها دوركايم (بالعقل الجماعي) أو روح الجماعة فهي تسمية غامضة تضيع من خلالها المسؤولية لتتسلمها فئة تفرض آراءها أو تسمح بتغيير العقيدة كما يشاء الإنسان، بحيث تحول الغرب من الاعتقاد بأن المجتمع هو الله ليصبح الإنسان هو الله، يعتقد ما يشاء. وبهذه العقيدة ساد الإلحاد واضطرب المجتمع في الغرب وما زال الإنسان يحيا فيه في حيرة وخواء نفسي وروحي كريشة في مهب الريح مما يؤكد أن هذا الدين الذي رآه دوركايم ليس إلا مظهراً خارجياً حقيقته أنه مستقر في أعماق النفس وأنه حاجة ملحة لايمكن الاستغناء عنه.

مفهوم الألوهية عند المسلمين:

لم يعد الله في الفكر الإسلامي هو الخير المحض فقط ولا هو المهندس الأعظم عند أفلاطون أوالمعقول المجرد، وإنما هو ليس كمثله شيء، الله في مفهوم الفكر الإسلامي هو أول الحقائق الأزلية وهو وجود بغير علة وهو الكامل كمالاً مطلقاً لا شريك له ولا ند ولا ضد، وهو

البسيط لا تركيب فيه سواء من حيث الوجود أو الماهية، وهو ليس شيئاً محدوداً لأنه كل شيء بدون تحديد وهو ليس بجسم ولا مادة ولا صورة جسم ولا مادة معقولة لصورة معقولة، وهو واجب الوجود وجوده يشمل كل وجود، وهذا الوجود ليس إلا ذاته لأن موجوده هو عين ذاته أي هو الوجود بذاته وصفاته، ومن ثم فهو الكامل لا يشوبه نقص وهو الموحد، لا يستمد وجوده من غيره ذلك لأنه وجود بغير علة بل هو مبدأ كل وجود وهو عند الغزالي ليس بجوهر لأن الجوهر لابد أن يكون متحيّزاً بحيّز، وليس بعرض لأن العرض يوجد خارج الجوهر، فالله لا شريك له ولا ندّ، انفرد بالخلق والإبداع.

هذه المفاهيم للألوهية تمثل مفهوماً متطوراً لعلماء الإسلام قياساً إلى ما عرفته عقول اليونان، فنجد الفارابي وابن سينا قد قسما الوجود إلى واجب الوجود وهو الله وممكن الوجود، وهذا الممكن يشمل كل شيء إلا الله، وهذا التقسيم يتسّم بالجدّة والإبداع ولا نجد له نظيراً في الفلسفات السابقة عليها، بل إننا لنجد هذا المفهوم الإسلامي للألوهية امتد إلى الفلسفة خلال العصور خاصة عند ديكارت وابن سينا كذلك كان يرى إن إثبات وجود الله لا يحتاج إلاّ إلى تأمله، وها هو ديكارت يتابع ابن سينا في ذلك إذ يقول: « إن المعنى الذي لدينا عن سائر الأشياء لا يتضمن ضرورة الوجود بل إمكانه فحسب» ويقصد الوجود الممكن، أما الوجود الضروري في واجب الوجود فيرى « أنه يكفي للبرهنة على وجود الله أن تكون ضرورة الوجود متضمنة في المعنى الذي لدينا عنه» (١٥). أي أن هناك ممكن الوجود « وهي الأكوان ما عدا الله» وواجب

الوجود «وهو الله». ومن هنا نرى ـ كما يقول الأستاذ عيسى الفقي : «تأثير ابن سينا في فكر وفلسفة ديكارت في تفرقته بين واجب الوجود وممكن الوجود وكذلك في إثباته أن واجب الوجود لا يتأتى إلا عن طريق تأمل وجود هذا الواجب، ومن أن الوجود لا يمكن أن يلتمس من براهين خارجية، وإنما من داخل النفس والأنا ذاتها، وبتأمل عقلي باطني ومن هنا يتبين لك زيف وادعاء من ادعى من هؤلاء الغربيين «بأن العقلية الشرقية غير قادرة على التفكير المجرد، وأن ما وجد من تفكير تجريدي في الفكر الإسلامي إنما هو من الفلسفة اليونانية مترجمة إلى العربية.. وقد رأينا فساد هذا الرأي بعد أن عرفنا أن فلاسفة اليونان لم تكن عندهم في تفسير الألوهية إلا أفكار مشوشة مضطربة، وأن فلاسفة العصر الحديث كديكارت إنما كانوا يتابعون فلاسفة المسلمين في تلك المفاهيم[١٦].

ثمرات العقيدة الصحيحة:

هذه العقيدة القائمة على التوحيد الخالص هي التي غرسها رسول الله ﷺ في قلوب أولئك العرب والبدو الجفاة عبدة الأصنام فماذا كان من ثمراتها .

قبل أن نبدي لك ثمرات العقيدة في نفوس المسلمين يجب أن تعلم أن انتزاع الشرك المتربع في ثنايا قلوب هؤلاء العرب لم يكن شيئاً سهلاً فقد أخفق دعاة المسيحية من قبل أن يحولوهم عن عبادة الأصنام، ولكن وعلى الرغم من استقرار تلك العقائد الباطلة في نفوسهم

وتعظيمهم للأصنام ومجادلتهم في ألوهيتها واعتزازهم بها لكونها ميراث الآباء والأجداد، إلا أن الإيمان والتوحيد والعقيدة الصحيحة استطاعت أن تجد إلى قلوبهم سبيلاً على يد النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ، فكان أعتى العتاة منهم ما إن يرى رسول الله أو يصافحه أو يسمع كلامه، حتى يسارع فيستجيب إلى نداء هذا النبي ودعوته إلى الإسلام، ألا ترى إلى عمر وقد جاءه غاضباً يريد قتله كيف انتهى في جلسة واحدة مع رسول الله فصار منه الخليفة الفاروق، وهو مَنْ وصفه النبي «لو كان نبيٌ بعدي لكان عمر».

ولا تظنّن ما ظنه البعض من أن لرسول الله ﷺ سحراً يسحر به الناس كما كان المشركون يرونه، وقد أدى بهم هذا الظن أن يمنعوا من يعرفونه من مقابلة رسول الله حتى لا يسلم، وقد بلغ منهم ذلك الظن في رسول الله ـ أنه ساحر ـ مبلغاً جعلهم يرفضون رأي من اثار عليهم طريقة للخلاص من رسول الله ﷺ بأن يقيدوه على ظهر جمل ويدعوه في الصحراء حتى يموت، فرفضوا هذا الرأي بدعوى أن لرسول الله ﷺ لساناً يسحرهم بكلامه، فيخلصونه ويسلمون معه ويعودوا لقتالنا. وما مقولة الوليد بن المغيرة: «إن هذا إلا سحر يؤثر» إلا مقولة من خدعه هؤلاء المشركون عندما شعروا بأنه رجع من عند رسول الله بوجه آخر غير الوجه الذي ذهب به، وظنوا أنه أسلم فمازالوا به ـ بعد أن امتدح كلام الله ـ حتى قال عن آيات الله إنها سحر ورسول الله ساحر..

لقد ربّى رسول الله ﷺ في هؤلاء، أنوار الإيمان، فلما رسخ الإيمان في قلوبهم أطلق أيديهم في نشر هذه الرسالة، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس، وقبل ذلك وفي بدء الدعوة تحّملوا الإيمان والتوحيد الخالص، تحملوا الآلام والقتل والتعذيب، والجوع ويوم حوصروا في شعب أبي طالب ٢٨ شهراً لم تلن لهم عزيمة ولا وهن لهم عود حتى أُذن لهم بالهجرة فهاجروا بعقيدتهم وتركوا أموالهم ودورهم وتجارتهم، وحتى زوجاتهم اللاتي رفضن الذهاب معهم فكانت الهجرة بذلك أقسى امتحان لهؤلاء حتى نزلت الآيات بالتنديد بالذين لم يهاجروا معهم وأن الهجرة صارت فارقاً ما بين أهل الإيمان وأهل النفاق والشرك، وفي هذا درس عظيم بأن أصحاب العقائد يرون الهجرة ـ بعيداً عن مواطن الكفر ـ أولى بهم حفاظاً على إيمانهم وعقائدهم، لأن في عدم الهجرة قتلاً للمسلمين وضياعاً للدين، وإن كان النبي ﷺ أنبأنا بعد ذلك: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية».

وهكذا قامت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بالعقيدة الصحيحة التي تتجاوب مع العقل، والتي تخطط لبناء محكم رعته الحكمة الإلهية بدستور هو القرآن الكريم، وما قامت دولة في التاريخ لها من الأركان والأسس والعقيدة الثابتة والمفاهيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية مثلما قامت عليه دولة الإسلام، فالقرآن الكريم دستور حكيم خالد أبدي يصلح لبناء العالم وليس لأمة العرب والمسلمون فحسب ورسول الله ﷺ النبي الحكيم ماعرف التاريخ له نظير في رفع صرح

الأمة، والتعامل مع أعدائها بكل حكمة وعقلانية، وامتصاص لنقمة العدو والحاسد والمبغض والمتعصب والمشرك بطريقة ما عرف التاريخ حاكماً تصرف مثل تصرفاته فكان لا يقصد في حروبه قتل عدوه وإنما قتل عداوته، وأمامك التاريخ يشهد على الملوك والحكام كيف أقاموا دولهم وممالكهم وكم أسالوا من دماء وأقاموا من مجازر، وأما رسول الله فلم يقتل في كل غزواته من المسلمين والمشركين ما يزيد عن خمسمئة إنسان، ومن قتل من المشركين لم يكن ليقتل إلا وهو يعلنها حرباً على المسلمين أو تآمراً عليهم.

هذه العقيدة الصادقة بنت مجتمعاً إنسانياً راقياً ما كان للعرب عهد به، وقد أنهكتهم الحروب مع أعدائهم وبين بعضهم بعضا، مجتمعا له دستوره وقانونه، دستور رسم حقوق الفرد والجماعة والصغير والكبير، الرجل والمرأة، فلا ظلم ولا طغيان ولا تسلط، ولا حقوق تهضم ولا امرأة تداس، ولا يتيم يُستولى على أمواله ولا عبد يُجار عليه ويضطهد، ثم هو دستور رسم الأبعاد الكبرى للدولة لتحيا في ظل قوانين السماء فلا فوضى سياسية أو دينية ولا ضياع ولا عبثية ولا تأويلات باطلة لآيات الكتاب، ولا أسرار يتكتّم عليها رجال الدين، بل ولا سلطان لرجل الدين في الإسلام حتى على من يعلمهم، فالحرية مكفولة والإرادة مضمونة ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

هذا المجتمع الإنساني العظيم الذي بناه رسول الله ﷺ ما كان له أن يوحد فيه هؤلاء العرب ويبنيه لولا الإرادة الإلهية والتوفيق الإلهي:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقد عجب كارليل كيف استطاع رسول الله ﷺ أن يغير من طباع هؤلاء الأعراب البداة رعاة الشياه والإبل، وعبدة الأصنام وكيف جعل منهم أمة صارت خير أمة أخرجت للناس، فخرجوا إلى بقاع الأرض يرفعون رايات الإسلام وهم ملتزمون بمبادئه فلم يْطغهم مالٌ ولا شهوات ولا نساء ولا دنيا ولا فتوح ولا ملك وسلطان، ترفعوا فوق حطام هذه الدنيا، وتبين لسكان البلدان المفتوحة أن هؤلاء المسلمين إنما أرادوا نشر دين سماوي يتلاقى مع العقول، ويحترم الأمم والشعوب ويمنحها حقوقها، فكان أن سارعت الأمم إلى الدخول في دين الله أفواجاً.. عجب كارليل لهذا النبي كيف استطاع أن يفعل كل ذلك في مدة قصيرة قضاها بين مكة والمدينة، ثم تابعه صحابته من بعده وخلال قرن من الزمن ليفتحوا نصف العالم.

بهذه العقيدة الثابتة إذن استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم في جزيرة العرب فيبنوا دولة عظمى ثم يمضوا لتحرير شعوب الأرض بعد ذلك، وما كان لأية قوة أو سلطة أو تآمر أو تغريب للفكر والعقيدة أن يغيّر من عقيدتهم، وحتى في أخريات حياة النبي ﷺ وزمن أبي بكر عندما قام بعض المتنبئين كمسيلمة وسجاح وغيرهما، ما كان لهؤلاء المتنبئين أن يحرفوا عقيدة المسلمين، وقد كشفوا سخف مسيلمة عندما راح يقلد آيات القرآن الكريم فجاء من الآيات بما افتضح به بين العرب أرباب

البلاغة، فأي حكمة أو عقيدة أو معرفة تجد في قوله: «يا ضفدع يا ضفدعين، نقّي ما تنّقين أولك في الماء وآخرك في الطين». ولما أراد أن يضع دستوراً للناس بعد أن تزوج بسجاح لم يجد إلا أن يسقط عنهم صلاة الصبح والعشاء.. ولهذا لم يمهله الخليفة الأول أبو بكر فعمل على القضاء عليه وتخليص جزيرة العرب من الوثنية والإشراك.

العقيدة الصادقة تفعل الأعاجيب، وما كان باستطاعة عدو أو حاسد أو يهودي أو وثني أن يحرف المسلمين عن حب الله وحب رسوله، أو يجد مطعناً في نبي الله أو في الإسلام، أو يجد أذناً صاغية من المسلمين لمثل ذلك. ألم يأتك نبأ ذلك الصحابي الذي سمع زوجته تسب النبي جهاراً، ولما تأكد من أنها تقول ذلك معتقدة له، قام فغمس سيفه في صدرها، ويصل الخبر إلى رسول الله فصعد المنبر وقال أنشد الله رجلاً عنده خبر هذه المرأة، فوقف الصحابي وقال أنا هو يا رسول الله. ولم فعلت ذلك، فقصّ الخبر على رسول الله ﷺ فقال ﷺ قولته المأثورة «لا ينتطح فيها عنْزان» أي سلمت يدك، إنه لا يجتمع حب رسول الله وبغضه في قلب واحد أو بيت واحد.

ولما وهنت العقيدة في النفوس بعد ذلك أمكن لدعاة التغريب والشرك والمذاهب الباطلة أن يدخلوا إلى بلاد المسلمين فيفرقوا ما بينهم، ويشعلوا نيران الفتن فكانت معركة الجمل وصفين، ثم تمادوا فأدخلوا العقائد الباطلة في مجتمعاتهم مما يتعارض مع سلامة التوحيد والفطرة السليمة فكانت فرق السبئية والأزارقة والراوندية والقرامطة قديماً ثم

البابية والبهائية والقاديانية حديثاً، ثم كان أن استعدت الأمم علينا، أمم ما كان لها أن تحكمنا لو كانت العقيدة الصحيحة موجودة ثم تراخت السنون وذاقت خلالها المجتمعات الإسلامية من عبث العابثين وكيد الكائدين واغتراب المبشرين، وتأويل المبطلين، وعدوان المعتدين وتآمر المتآمرين، ما غدت فيه هذه الأمة كما وصفها رسول الله: « تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها » فصرنا نهباً للأمم ومُغاراً يُغار علينا فلا نغير أو ساحة حرب تُغزى فلا نغزو وتقتحم ديارنا فلا نُدافع، وتهدد دولة من دول الإسلام وترمى بالصواريخ والطائرات فلا نتحرك لنجيب، نُباد كالخراف فلا نتأثر وتؤسر النساء فلا نثأر، ويتحرك بيننا ـ مَنْ لعنهم الله ليهدموا المسجد الأقصى ويرفعوا جدران هيكلهم المزعوم، ونحن مازلنا نادي بالعروبة والقومية والسلام الكاذب، ونستمع إلى توازن القوى وحقوق الشعوب، ونتراكض على أعتاب الأمم المتحدة وعلى أقدام أهل الشرق والغرب.

إن الله يأبى لأبناء هذه العقيدة الصادقة أن يُذَلُّوا وقد وعدهم بالنصر ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠] ويأبى لهم أن يُداسوا ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. ويأبى لهم أن يهونوا ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. مفتاح النصر بأيدينا وهو طريق العودة إلى الله والعقيدة الصحيحة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأسراء: ٩]. ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

كيف تضيع أمة القرآن دستورها، ومحمد ﷺ نبيها، والعقل والعلم دليلها وبرنامجها.. ألا إنها العقيدة تفعل في القلوب ما لا تفعله الذرة والصاروخ وهي أخوف ما يخافه المستعمرون اليوم ولهذا تراهم يعملون جاهدين على طمس هذه العقيدة وتشويه جمالها بما يوحون به إلينا من مبادئ هدامة وعقائد زائفة ومطامع دنيوية وشهوات ورئاسة وحب للمال والسلطان.

ولكن الله تعالى حفظ دينه وكتابه وهو القادر على أن يعلي شأن هذه الأمة ويردها إلى أمجادها إذا استمسكت بدينها ألم يقل ربنا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

***

مراجع الفصل الأول

(١) كتاب ـ العقيدة في القرآن ـ د. عبـــد الســـلام التونجـــي ـ منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ط١ طرابلس ١٩٨٦.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) مجلة رسالة الجهاد العدد ٨٧ مقـــال عيســـى الفقي (مفـــهوم الألوهية في الفكر الإنساني).
(٤) الحديث بمعناه لا بلفظه.
(٥) كتاب الإسلام دين الفطرة. عبد العزيز جاويش سلسلة الهلال.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) كتاب مجلة الدعوة الإسلامية العـــدد الســـابع ١٩٩٠/ مقـــال: صورة المسيحية في دراسات غربية ـ الصديق يعقوب.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) البداء: قال اليهود إن الشرائع لا تنسخ بعضها وإن النسخ نقيض البداء وهو ظهور مصلحة في الحكم كانت خافية على الله فـــي الأمر المنسوخ فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.
(١٠) مجلة كلية الدعوة الإسلامية العدد ١٩٩٠/٧ مقال الصديـــق يعقوب.

(١١) كتاب القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ــ د.موريس بوكاي ــ منشورات جمعية الدعوة الإسلامية.

(١٢) مجلة كلية الدعوة الإسلامية العدد ٧/١٩٩٠.

(١٣) مجلة رسالة الجهاد العدد ٨٧ مقال عيسى الفقي.

(١٤) كتاب مقاربات الحداثة ــ جان دومنياك ــ تعريب وتلخيص هاشم صالح في مجلة الوحدة عدد ٥١/.

(١٥) مجلة رسالة الجهاد العدد ٨٧ مقال عيسى الفقي.

(١٦) المجلة نفسها.

الفصل الثاني

الفكر الإسلامي فكر ملتزم

لم يكن للشعوب قبل الإسلام فكراً متكاملاً متميزاً تستطيع أن تخط به نقش روحها وحضارتها عبر التاريخ، ولكنه تجلى أعظم ما تجلى فيما أبدعوه من آثار عمرانية وأهرامات وقلاع وحصون، وأما ما عدا ذلك فكانت الشهوات والملذات تعصف بهم على الرغم من ذلك التطور العمراني، وما تلبث أن تودي بحضارتهم، وبهذا الشكل زالت أعظم الامبراطوريات في العالم زوالاً فكرياً قبل أن تزول أخلاقياً وعسكرياً فالإمبراطورية الرومانية عندما اتخذت النصرانية المحرفة ديناً لم يسعفها ذلك الفكر الوثني الملقح بالنصرانية، لأن ترقى سلم الحضارة أو تتابع المسيرة، بل كان عاملاً مسرّعاً على تدميرها والقضاء عليها، إذ ما لبثت الشهوات والفجور والخلاعة أن عصفت بالإمبراطورية، ولم يُنجدها من ذلك كل كبرياء الأباطرة ولا عظمة التاريخ المجيد لروما من أن تصمد أمام المسلمين أكثر من ستة أيام في معركة اليرموك.. وكانت النهاية. فوهن العقيدة ومن ثم وهن الفكر عامة داء ينخر في خاصرة الشعوب ولا يمكن أن تقوم بهما في حال الضعف أية حضارة، وربما لم تأت الرسالات السماوية إلا لترقى بهذا الإنسان من تقوقع فكره وجمود عقله في عبادة جمادات وأصنام لا تضر ولا تنفع، حتى مسخ فيه ذلك العقل، إذ أي كرامة أو فكر عند من يستنطق حجراً أو صنماً ليسأله عن تجارته أو زواجه أو مستقبله ثم لا يجيبه فيستسلم لهواه وتكون الفاجعة.

ولهذا كان أول ما طلع الإسلام علينا به هو تحرير هذا الفكر الإنساني وإيقاظه من هجعته، وإحياؤه بعد موته، كان ذلك بنزول أول آيات الكتاب الكريم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]

لقد طلعت شمس الإسلام على العقول المتحجرة التي ربطت مصيرها وحاضرها ومستقبلها بأصنام لا تعي عن نفسها شيئاً، فراحت تهز هذه العقول برفق ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. فلما عوتبوا في ذلك قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. ولما كان الله غير محتاج إلى النصير والشريك خوطب هؤلاء ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٤-٣٥]. فلما سئلوا أجابوا بالنفي فقيل لهم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦] مثل هؤلاء القوم ما كان لهم أن يصنعوا فكراً أو حضارة أو مجداً وهم على مثل تلك الحال، فلما بزغ فجر الإسلام بدعوة رسول الله ﷺ وبنزول القرآن بدأت ترسم معالم الفكر الإسلامي الأصيل الذي رسم صورة حياة جديدة للأمة العربية والإسلامية بعد ذلك.

فبينما كان الفكر عند الشعوب السابقة يرتبط بأوهام وخيالات وأساطير وآلهة مزعومة عند اليونان والرومان صار الفكر الإسلامي مرتبطاً بقيم سامية ترقى بالإنسان، فقد قام هذا الفكر على التوحيد والعدل والكرامة الإنسانية والإيمان بالله، ونادى بالحرية والعلم والعمل، ودعا إلى الإسلام والإخاء وجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة (١).وهذه القيم التي رصدها الفكر الإسلامي وجعلها دستوراً له ما كان لها أن تبلى

على الأيام إذ هي وحي من عند الله، وقانون نزل به الروح الأمين لتنظيم حياة الأمة الإسلامية والعالم أجمع.

وإذا كان الفكر يولد ولا يجلب وإذا كان إنتاجاً إنسانياً غير قابل للاستيراد والتصدير[٢] فإن له إذن سمة وعلامة يتميز بها فكر أمة من فكر أمة أخرى. والفكر عامة إن هو إلا منهجية التفكير لأمة ما في قضايا الوجود والألوهية والحياة والمستقبل، أي التشريع الكامل الذي يرسم للأمة طريق صلاح دينها ودنياها، حاضرها ومستقبلها فلا يمكن لك أن تفصل بين الأمة وفكرها لأنك ستحكم عليها عندئذ بالموت، ولعل هذا معنى المقولة المعروفة «أنا أفكر إذن أنا موجود».

لقد كان الفكر الإسلامي وما يزال شعاعاً يضيء سراديب الفكر الجاهلي الإنساني المتخلف ليخرجه من ظلمات دفن فيها العقل، وتعطلت سبل الحياة، فهو يحث الأمم لتنهض من جديد بقيادة الأمة العربية والإسلامية لتجعل من الإنسان حياة وعمارة الكون، ومن العقل والفكر طريقاً لإنقاذ هذا الإنسان من عثراته، ومن الدين حامياً وحافظاً له من أن تزل به القدم بين شهوات نفس أمارة أو هوى مرذول أو ظلم طاغية أو عبودية غير الله.

ولهذا كان الدين الإسلامي بما يحمله من مثل ذلك الفكر جوهرة خالدة في وجود أمتنا بل هو سمة هذا الدين في رقيه وتطوره، فأنت تجد هذا الفكر يتجلى في عقل المسلم وحياته وتقاليده وعاداته ووعيه وتعامله مع الآخرين، بحيث يدع المسلم متوازناً بين المادية والروحانية،

فلا تميل به الشهوات المادية ولا تبعده الروحانية أو تدفعه ليعتزل الحياة، إذن فالفكر الإسلامي فكر فعّال وليس جامداً، يحيا مع الناس وبينهم وهو فكر مبدع متطور متجددٌ بما يملك من المواءمة بين المعتقدات وواقع الحضارات الأممية، فهو يحاول أن يستفيد من كل صالح ومن كل علم وخير وفضيلة عند الأمم، وها أنت ترى بامتداد الإسلام إلى بلدان العالم ورغم تميّز الحضارات الإنسانية، ترى كيف استطاع هذا الفكر أن يستوعب تلك الحضارات ويهضمها ومن ثم يشكل حضارته الفريدة، بسماتها الخاصة عبر التاريخ. وليس سهلاً على دولة إسلامية وليدة وخلال قرن واحد أن تستوعب ذلك كله، وتكوّن لنفسها حضارتها المتميزة وتشق خطّها الإسلامي الفريد الحضاري والعلمي والأدبي والديني المتميز. إذا قدرت أنها راحت تواجه حضارات فارسية ورومانية عمرها يزيد عن ألف عام، وأخرى هندية وصينية... وبالتالي ليس سهلاً عندئذ أن يصمد الفكر الإسلامي إذا لم يكن مؤسساً على قواعد متينة وأصول ثابتة خاصة إذا عرفنا عراقة تلك الحضارات، بل وإذا عرفنا أن الفكر يولد في كل أمة ولا يجلب، وأنت ترى ان الفكر الإسلامي رغم كل ذلك قد قام على أصول صحيحة ثابتة ومقنعة تجلت في اعتمادها ركنين عظيمين صنعا حضارة المسلمين عبر القرون وهما القرآن والسنة.

وعندما ترسم طريقك أنت بنفسك فقد ترى أمامك لمسافة تتحدد بمدى رؤية عينيك. وفكرك وعندما يرسم لك المنهج رب العباد فلا يمكن إلا أن يكون طريقه النجاح والاقتناع والقبول من كل الشعوب.

وذلك لا يتأتى إلا بصدوره عن حكيم عليم بما يصلح البشر ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

فما هي سمات هذا الفكر الإسلامي:

١ـ السمة الأولى لهذا الفكر قيامه على قاعدتين عظيمتين هما الكتاب والسنة، وهما منهجان حكيمان ودستوران باقيان إلى يوم القيامة رسمت من خلالهما معالم حضارة عالمية إنسانية، وتهدي العالم إلى سعادته ﴿الم۞ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢] وقد وصف رسول الله ﷺ القرآن فيما رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم» قلت يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين وذكره الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يختلف على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه»(٣).

فهذا الفكر الذي يقوم على كتاب الله الذي يدعو إلى التوحيد الخالص ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هذا الفكر استطاع أن يقضي على الفكر الوثني عند الجاهليين ويزيل اسطورة ألوهية الأصنام ويخلص الإنسان من عبادة عير الله، ومن ثم يأخذ بيده إلى طريق عبودية إله واحد قادر على كل شيء وعن طريق تشريع

سماوي رسم العلاقات بين البشر أنفسهم وبينهم وبين الله وسوّى وقسم وأعطى ومنع وأمر ونهى وبشّر وأنذر، وهدد وتوعد ورغّب ورهّب في أسلوب حياة لا نجد له نظيراً في الوجود. إذ ضمن حق كل ذي حق مهما كان لونه أو جنسه أو دينه وسوّى بين البشر جميعاً بقانون « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».

واستمع معي إلى شهادة المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون واصفاً هذا الدين وذلك الفكر: « وللإسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين أدخل إلى العالم التوحيد المحض، وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض.. وفي هذه السهولة سرّ قوة الإسلام، والإسلام خال مما نراه في الأديان الأخرى، ومما يأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد وبمساواة جميع الناس أمام الله ».

ثم انظر إلى استنتاجاته فيما تركه هذا الفكر التوحيدي من أثر: « وساعد وضوح الإسلام وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم كما ساعد بتلك المزايا على اعتناق كثير من الشعوب النصرانية الإسلام كما نفسر به السبب في عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً سواءاً أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة » [٤].

هذا الفكر الذي يحتوي العقيدة والتشريع والعبادات والمعاملات ونظام الحياة لا يمكنك أن تجد فيه ثغرة أو مطعناً. تنْزيل من حكيم حميد. ولا يمكنك إذا التزمت بمنهاجه إلا أن تحقق ما أراده من السعادة

لك وللناس جميعاً، ومن السير في طريق من الضياء والنور والهدى فلا تزل بك قدم ولا تتعثر بك رجْل.

تلك هي الحضارة الإسلامية التي عرفتها البشرية منذ القرن السابع والتي عجب لها التاريخ وما يزال يعجب من أولئك الرعاة البداة رعاء الشياه والإبل كيف انتقلوا من عبودية أصنام وأحجار إلى عبودية الملك الجبار، وكيف تحولوا من فكر الجاهلية حيث الجهل والتطير والخرافات والأوهام والتقهقر الحضاري إلى أن صاروا خير أمة أخرجت للناس.

والفكر الإسلامي بأصوله القائمة على التوحيد كان دائماً قادراً على أن يحتفظ بذاتيته الخاصة، يأخذ من الفكر البشري ويترك، وقد عجزت كل القوى في أحلك الظروف أن تصهره أو تخضعه أو تفقده مقوماته، وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد استطاعت احتواء الدين والفكر اليهودي ومن ثم استطاعت احتواء الدين والفكر المسيحي فإنها قد عجزت عن أن تحتوي الإسلام والفكر الإسلامي الذي أخذ منها ما شاء ورفض ما شاء، وذلك أدعى لأن تصهره، ولكنه استطاع بعد صراع طويل أن يجعل لنفسه ذاتية خاصة مستمدة أصولها من الكتاب والسنة[٥] بل أنت قد عرفت من قبل ان فلاسفة الغرب كديكارت وغيره كانوا عالة على هذا الفكر في تفسير الألوهية والوجود، سرقوا منه ما شاؤوا وادعوا منه لأنفسهم ما أرادوا.

٢ـ والسمة الثانية لهذا الفكر هي الحرية :الحرية هي السمة الملازمة للتوحيد في الفكر الإسلامي فأنت موحد إذن أنت تملك فكراً حراً في مناقشة قضايا العقيدة والحياة، وأنت متحرر من قيود الوثنية والعبودية لغير الله، ومن قيود المادية والصنمية والشهوات البهيمية، بل ومتحرر من قيود العلوم والإبداع وما تنفخه في النفس من كبر وعجب وغرور، وكذلك متحرر من نزوات النفس الأمّارة، ومن كل ما يعوقك جسماً وروحاً عن بناء هذا الكون بما هو أفضل. وهذا مفهوم إنساني رائع يعمل على تقدم الإنسانية في كل مجالاتها.

ثم إن الحرية في الفكر الإسلامي تعني ضمان الحرية لعقائد أهل الكتاب وهو ما لم تستطع اليهودية والنصرانية ضمانه للشعوب بل عرفنا سعادة النصارى من خلال حكم المسلمين لهم، وقد روى البلاذري أثر هذه الحرية والسعادة في نفوس الذميين فقال أهل حمص مخاطبين المسلمين: « لدينكم وعدلكم أحب إلينا والله مما كنا فيه من الظلم والغشم.. ثم أقسموا على ذلك والتوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد »[٦].

وهذه الحرية عملت كذلك على إطلاق العقل الإنساني من قيوده ودفعته للخروج من إطار الوثنية ومسخ إنسانية الإنسان وعقله وفكره. يقول سانهلير: « إن الإسلام أحدث رقياً عظيماً جداً فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة فارتفع عن مستوى قيود المعابد والكهنة من ذوي الديانات المختلفة إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة »[٧].

بل لا نجد أوضح وصفاً لهذه الحرية من وصف غوستاف لوبون حيث يقول: «إن الإسلام هو الذي علم الإنسانية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين وقد كان يظن انهما لا تجتمعان»(٧).

وليس بعيداً عنا فعل اليهود بالمسيح عليه السلام، كما أنه ليس بعيداً عنا اضطهاد النصرانية للشعوب ـ وما زالت ـ وتعصبها الذي لم يدعها تعرف معنىً للتسامح وحرية العقيدة. وأين هي هذه الحرية عندهم إذا كان المبشرون والمستشرقون قد تآمروا وما يزالون على الإطاحة بهذا الدين، بينما نجد أن القرآن الكريم يرسم صورة هذه الحرية وأنها حق لكل إنسان حتى في العقيدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقوله ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الأسراء: ٨٤]. وقوله ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فهذه هي الصورة المشرقة التي تستطيع احتضان الأديان السماوية والعقائد الإنسانية دون جور أو ظلم أو إرغام لأحد وهي الضمينه بعد ذلك لصلاح هذه البشرية وتعايش الشعوب ضمن نطاق مبدأ سام يعترف بحقوق الجميع وحرية الكل دون حسبان لجنس أو لون أو دين.

ولكن الحرية بتلك المفاهيم لا تعني الفوضى والعبثية والخروج على قواعد السلوك والأخلاق والتحرر من القيم، وخروج الإنسان على قواعد الفضيلة وضوابط العقل والمنطق الإنساني. وإنما تعني تحرر الإنسان من رق التقليد الأعمى، وتربيته على حرية الفكر واستقلال الرأي والتخلص من عبادة الأهواء واحترام آراء الآخرين في حدود يقبل بها

العقل الإنساني عامة لعدم وجود دليل ينقض تلك الآراء والقيم، في حين يمتلك هو الدليل على صواب تلك الأفكار بما تتركه في المجتمع من حياة إنسانية هادئة وسير بالمجتمع الإنساني في طريق النجاة والسعادة والخير للجميع.

وبهذا ترى أن الفكر الإسلامي يختلف تماما عن منطق الفكر الأوروبي الحديث والمتغير تبعا للظروف المادية والمستوى الحضاري والتطور الصناعي، حتى صار الفكر عندهم رديفا ـ للموضة ـ يستبدله الإنسان كيف شاء ومتى شاء، وبهذا صار الإنسان الغربي على كف عفريت، لم يعد يرسو على فكرة ما حتى تكون قد تغيرت إذ لا وجود لأصول ثابتة لهذا الفكر بعد أن تحول من الوحدانية إلى عقيدة الثالوث ثم بعد أن ثار على الثالوث نفسه وطلقه، وتسلمت زعامة هذا الفكر فئة من فلاسفة الصهيونية أو الغربيين العلمانيين، فراحوا يبثون السموم من خلال نظريات ومذاهب يدعون أن فيها تفسيرا للحياة والوجود وأنها تمنح الحرية المطلوبة للإنسان العربي ـ بمعزل عن نتائج هذه الحرية وعواقبها الوخيمة ـ والتي قد كرستها الصهيونية العالمية والدوائر الإمبريالية العلمانية لاستعباد الإنسان وإفساد حاضره ومستقبله، وكان أخطر هذه النظريات والمذاهب.

الوجودية: فهذا المذهب تجده قد عزل الإنسان عن عالمه الروحي ودعا إلى معنى وجود الإنسان لنفسه عن طريق تحلله من كل ما يرتبط بالمجتمع من نظم وقواعد وقوانين وعادات وتقاليد، وأن يطلق نفسه على

هواها لتهيم في كل واد. بل إن الوجودي لا يقف عند اختيار شيء لأن ذلك قد يقيده وفي هذا جور على وجوده الذي يفقده إذا هو خضع لشيء أو تقيد بشيء فلا بيت ولا زوجة ولا ولد ولا وطن.. ولا دين أخيرا.. فالوجودية بهذه المعاني لطخة عار في جبين البشر تطمس معالم الإنسانية في الإنسان، إذ تقوم على إنكار كل ما لا يؤثر في حياة الفرد تأثيرا حاضرا ومباشرا. لأن الإنسان في تصور الوجوديين لا يحيا حياتين بل حياة واحدة، فالله والبعث والحساب والجنة والنار كلها عند هؤلاء أضغاث أحلام صورها للإنسان الضعف الإنساني وجسدها له واقعه الأليم ولهذا فالإنسان الجبان عند هؤلاء هو الذي يفر من الواقع ويدفن نفسه في تلك الخرافات (الأديان والأخلاق) وإنها لصفقة خاسرة عندهم أن يلقي المرء بهذا الذي بين يديه من الحياة والمتع والشهوات مهما كان تافها، طمعا في أضغاث أحلام من الأماني والوعود الدينية وكأنهم تمثلوا قول الشاعر.

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو

ولهذا فليكن الإنسان شجاعا ليخلع أردية الزيف والضلال من ديانات ومعتقدات وعادات وتقاليد وآمال كاذبة وليخرج إلى الحياة عاريا من كل شيء جسدا وعقلا وروحا فإن فعل ذلك كان الإنسان الجديد الذي يكون قد عاش حياته وحقق وجوده. واستمع معي إلى ملخص آراء هؤلاء الوجوديين على لسان زعيمهم سارتر: « إن ما ينبغي أن تكون عليه حياة الوجودي هي توديع ما يسميه الجبناء وجدانا

وضميراً والاستجابة لداعي الحيوانية وتلبية كل ما تدعو إليه شهواته، ونبذ كل التقاليد والتعاليم الاجتماعية وماتواطأ عليه الناس من الجهة الأخلاقية، وتحطيم القيود التي ابتدعتها الأديان والفلاسفة وتبنتها المدنية ثم تطليق الحاضر وسلخ المرء منه متجهاً نحو الأمام إلى المستقبل قفزاً إلى المصير المحتوم، إلى الهاوية، إلى الموت إلى العدم الأبدي» (٨)

هذه هي حرية الفكر الأوربي وهي كما ترى تقف في مواجهة الفكر الإسلامي متحدية القيم والشرائع والديانات والعادات والأفكار لتجعل من الإنسان حيواناً أعجم لا يحل حلالاً ولا يحرم حراماً، ينطلق كالدابة يرعى من الشهوات والمحرمات ما يشاء، وبهذا الشكل انتشرت أفواج الهيبيز تجوب شوارع المدن الأوروبية، ترتمي هنا وهناك كالسوائم، ينامون في الطرقات ويمارسون ما شاؤوا من المحرمات.

الحرية حق لكل إنسان ولكن يجب أن تكون مضبوطة بضوابط تجعل منها الخير للجميع ولا يمكن أن يجعل لهذه الحرية حدوداً إلا الشريعة والعقيدة الربانية الصحيحة، التي تعطيك حقك وتوجب عليك الواجب، والتي تملك من وسائل لترغيب ما يدفعك لتعمل لخير الجميع، وتملك من وسائل الترهيب ما يزجرك عن أن تكون وجودياً كسارتر عاري الخلق والدين والأهداف والقيم ولهذا كان الإيمان بالله واليوم الآخر عاصماً للمرء المسلم ورادعاً له عن أن يخرج عن طور العقل الإنساني ليصبح كالسائمة ترعى مع الدواب الحشائش. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا يؤكد حقيقة أن كل ما كتبه هؤلاء المفكرون الغربيون في نقد الأديان إنما هو منصب على دين العرب أساسا، وأن نقل هذه القضية إلى الفكر الإسلامي نوع من التمويه الخبيث والدس الرخيص، ذلك أن الفكر الإسلامي لم يعرف في تاريخه أزمة خلاف بين المبادئ والقيم والواقع المعاش، ولا كان فيه هذا الصراع بين الدين والدولة ولا هذا التناقض بين الفكر المشروع والحياة التي يحياها المسلم، وما خروج المسلمين اليوم ليسبحوا في تيار الغرب وإباحيته وعريه وفجوره إلا شيء يدانون به ولا يدان به الدين، فنحن نقيس الرجال بالحق ولا نقيس الحق بالرجال لأن الرجال تتغير والحق لا يتغير. فإذا درست تاريخ هذا الدين عرفت أنه لم يعرف في تاريخه اضطهاد رجل الدين كما هو الحال عند رجال الكنيسة وفعلهم بإخوانهم من البروتستانت من قتل وتذبيح، بل ليس عندنا هذا التحلل من سلطان الدين كلية ومن ثم ليس عندنا هذا الفصل بين الدين والدولة. بل هناك قيم ثابتة وأصول معتقدة لا يمكن أن تتبدل أو تتغير، وليس هذا فحسب بل إننا لنسمع الأستاذ أنور وجدي يعمم ذلك في الإسلام في كل مجالات الحياة حيث يقول: « وما من قضية تطرح في مختلف مجالات الفكر والعقائد والثقافة إلا ولنا نحن المسلمون نظرية أصيلة فيها ومفهوم شامل ومنهج متكامل. لقد قدم الإسلام للبشرية منهجا متكاملا للفكر والحياة والمجتمع والحضارة وهو منهج تطبيقي عملي وليس منهجا نظريا ومثاليا إنه منهج القرآن القائم على الأصالة الربانية والحق » (٩).

٣ ـ والسمة الثالثة لهذا الفكر هي أنه فكر شمولي متطور يحيط بعلوم الدين والدنيا ويجمع بين المادة والروح فلا يدع الإنسان حيواناً بهيمياً يرتع في الشهوات ولا يدعه راهباً يتقوقع في ديرٍ بعيداً عن الناس، إنه يسمو به بجناحي الفكر والقلب، والدين والدنيا في وسطية سامية الأهداف ترقى بإنسانية الإنسان وتجعله عنصر خير وفضيلة للعالم. هذا الفكر نظم حياة الإنسان والمجتمع، والأفراد والجماعات والأمم والشعوب، ونظم حياة الإنسان مع نفسه ومع مجتمعه ومع ربه، وفق دستور رباني سماوي خالد لا يمكن لمن اتبعه إلا أن يفلح في الحياة، بينما اقتصر الفكر الأوربي على جناح المادة وحدها، فالعلم الذي ساروا في طريقه لا يعترف إلا بالمادة التي يتعامل معها وشكلها وتصنيعها، أما عالم الميتافيزيقيا «عالم الغيب» فليس للعلم فيه شأن وليس من اختصاصه دراسة ذلك، وبذلك خسر الفكر الأوربي عالم الروح وما فيه من قيم ثابتة وعقيدة الدار الآخرة والثواب والعقاب والتقيد من ثم بقيود الخلق والشرع والدين.

وهذا لا يعني ـ كما يقولون ـ أن الفكر الإسلامي متقوقع ضمن عقائد وأفكار بالية بحجة تخلفه الحضاري، فليست عقائد المسلمين وأفكارهم بالية، وليس تقدم الغرب الحضاري دليل رقيٍّ إنساني، فالمادة وحدها لا تخلق إنساناً سوياً عادلاً محباً للشعوب، فالحرية في مفهوم الحضارة الغربية تعني التحرر من كل شيء وفعل كل ما يخطر ببالك، ولو درست ماذا أنتجت تلك الحضارة وماذا قطف الفكر الأوربي من ذلك كله، هل انتهى إلى حياة سعيدة هادئة، هل استطاع تحرير الإنسان

من قيود الأغلال والظلم وعبودية غير الله. وهل استطاع أن يجعل للإنسان كرامة أو خلقاً أو ديناً..؟

ومهما ارتأى الغربيون من مذاهب ودعوات جديدة فستظل قاصرة عن أن تحيط بالإنسان جسداً وروحاً وفكراً وعقلاً وقلباً، بل إن معظم تلك المذاهب إنما بنيت على مادية تلك الحضارة فأطلقت الحرية للإنسان ورمت به في أتّون الشهوات والفجور.

وإن مجرد تقليد المسلم للغرب في ذلك إنما يعني الرق بعينه وقد حرر الإسلام الإنسان من هذا الرق إلى الأبد، وإن أخصّ خصائص التقليد هو الاتباع من غير رويّة ولا فهم ولا اقتناع، فالتقليد إذن هو إبطال وظيفة العقل، وهذا لا يمكن أن يسمح به الفكر الإسلامي، سيقولون: «كيف ستتحضرون إذن هل ستظلون خارج دائرة الحضارة؟» ونقول: من الذي ختمَ لهؤلاء أن حضارتهم هي منتهى الحضارات وقمتها وما تتطلع إليه الشعوب كلها، ومن الذي أعطاهم هذه الهوية، ليست حضارةً أن تملأ بطنك وفرجك ثم تروح لتستعبد غيرك غير مبالٍ بدين ولا عدالة ولا قيم، ليست حضارةً أن تهيم على وجهك كالدابة في عري فاضح وفجور متعمد وشهوات شيطانية، فإذا علمت أن أبناء هذه الحضارة نفسها راحوا ينتقدون وسائلها وغاياتها وأهدافها، بل وراح البعض منهم يمتدحون حضارة المسلمين، إذ جاء في شهادة للأديب الفرنسي أناتول فرانس قوله: «ليت شارك مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي، إن انتصاره عليه أخرّ المدنية

عدة قرون»[١٠] ولا يغير من الموقف اليوم كون حضارة الغرب غزت العالم ولكنه غزو ماديٌ شهواني أفسد حياة الناس ودينهم وتقدمهم، وإذا عرفت أن أبناء هذه الحضارة هم الذين راحوا ينتقدونها عرفت أنه بقدر ما تملك من وسائل مادية لسعادة البشر فأنت تملك من القيم اللاأخلاقية التي ستدمر هذه الحضارة، إذ ليس لهذه الحضارة جناح القلب والروح والدين ليجعل من الإنسان المتطور الصناعي الغني إنساناً يحترم الشعوب ويقدرها ويعمل على إفادتها فعندما تريد أن تتطور فهذا لن يكون حقيقة إلا من داخل الدين نفسه لا من خارجه كما يقول د. محمد أحمد الغمراوي: «إذا كان المسلمون يطلبون النجاة فليطلبوها داخل الإسلام لا خارجه وهم يخطئون طريق الرشد إذا قلدوا الغرب في نظمه الاجتماعية». إذ ما من قضية تطرح على الساحة الوطنية أو القومية أو الدينية إلا وللدين فيها رأي سديد وعلم مفيد.

والغريب أن نسمع مقولة المبشر د.جلوور في مقال له كتبه عام ١٩٦٠: «القرآن خليط عجيب من الحقائق والخرافات ومن الشرائع والأساطير والأوهام الفاسدة» والأعجب من ذلك أن هؤلاء الغربيين في القرون الوسطى تكالبوا على الفكر الإسلامي الذي صنعه القرآن في الأندلس والجامعات الإسلامية وراحوا ينهلون من منابعه حتى بنوا حضارتهم[١١].

٤ـ والسمة الرابعة لهذا الفكر أنه منفتح الثمرات للفكر البشري ولا يعرف خلافا بين العلم والدين. وقد استوعب كل الحضارات العالمية وهضمها وصبغها بصبغته الدينية والأخلاقية والروحية وتحولت البشرية عن طريقه إلى أمة واحدة وجسد واحد. بل وحتى ارتضت الشعوب أن تصوغ ثقافتها بلغة القرآن، وبذلك صهر الفكر الإسلامي كل ثقافات الشعوب وحضاراته وشكل منها ثقافة إسلامية واحدة كل ذلك بفضل الكتاب -القرآن- والسنة النبوية، وهذا ما لم تستطعه حتى اليوم أي دولة عظمى فوق هذه الأرض.

فالعقيدة جمعت القلوب على مبادئ واحدة فيها المساواة والعدالة والاحترام للغير والاستفادة من كل فكر خلاق. أما الكنيسة فقد حجرت على الفكر والثقافة إلا ما يرضى عنه أرباب الكنيسة من آراء وإن كانت تخالف العقل والعلم والمنطق.. ولما كانت أفكار الكنيسة هذه من التناقض والاختلاف بحيث لا تقبلها العقول السديدة لهذا خرج هؤلاء النصارى عن سلطانها حتى تم لهم بعد معارك طاحنة فصل العلم عن الكنيسة والدين عن الدنيا.

وليس المهم أن تستطيع الفصل بين الدين والدولة ولكن المهم أن تعرف كيف تستخدم حريتك هذه التي منحتها لنفسك ـ في غياب الدين. فهل أحسن هؤلاء الغربيون صنعا بهذه الحرية وبذلك الفكر العلمي الذي ساروا في طريقه؟ إنهم لم يفهموا الحرية إلا حرية شعوبهم ولا التقدم إلا تقدم إبنائهم، ولهذا لم يمنعهم العلم ولا الحرية من أن يستعبدوا الشعوب ولو بقوة السلاح ويجعلوا البلدان أسواقا لمنتجاتهم في أبشع

عدوان عرفته الإنسانية في القرون الأخيرة وأبشع استغلال ونهب لخيرات الشعوب وخلق التمايز بين الدول فهاتان الدولتان العظيمتان وهؤلاء الخمس الكبار ويليهم الدول العشرون الصناعية ثم الدول النامية، لقد آل تقدمهم الصناعي العلمي وتفتيشهم عن الأسواق إلى تحولهم من عبودية الأفراد إلى استرقاق الشعوب والأمم نفسها. نعم إن الفكر الأوربي شمولي، ولكنه يشمل العبودية والتسلط والقهر والنهب.

أما عندنا فلا نعرف هذا البعد بين العلم والدين بل هما في الإسلام أخوان توءمان يجمع بينهما المسلم في وسطية تجعل من دينه حارساً على علمه وتجعل من علمه خادماً لدينه وللبشرية جمعاء. ولهذا استطاعوا تأسيس أعظم حضارة عرفها التاريخ والتقت من خلالها الشعوب على مبادئ الحب والصفاء وتبادل المنافع وتطويرها ما أمكن من علوم الأمم والانتفاع بها ثم السير بركب الإنسانية في السبيل الأقوم متخذاً من الكتاب والسنة الدليل الهادي: « تركت فيكم أمرين ما أن تمسكتم بهما فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي ».

منهج الفكر الإسلامي:

يقوم هذا الفكر على منهج متكامل أساسه الكتاب والسنة وأداته العقل، وإذا كان الغربيون قد زعموا أن حضارتهم قامت على مناهج علمية تجريبية متجاهلين دور المسلمين في تلك المناهج فإنه ذلك لا يغير من الحقيقة شيئاً والتي اعترف بها أكابر علمائهم من أن أئمة العرب والإسلام هم واضعوا أصول تلك المناهج وهم الذين طبقوها

فعلياً قبل قرون من محاولة علماء الغرب بعثها وتطبيقها في العلوم والطبيعيات ثم في العلوم الإنسانية مؤخراً.. ولم يلبث هؤلاء الغربيون أن اتهموا العقلية العربية بالاعتماد على الخرافة والأساطير وأنها ليست عقلية علمية كل ذلك ليصح لهم أن ينفوا كونها أوجدت ذلك المنهج العلمي وطبقته فعلاً وكان صاحب تلك الدعوى الظالمة الفيلسوف الفرنسي رينان. وقد أحسن صنعاً الدكتور محمود القاسم في الرد على رينان. وأثبت أن تلك المناهج ليست إلا مناهج عربية إسلامية(١٢).

وقد كان ذلك المنهج مما استنبطه هؤلاء المسلمون من كتاب الله وقد لخص د.الغمراوي أسس هذا المنهج بقوله: «إن سبب تقدم الإنسان في ميادين العلوم هو عدم قبوله شيئاً على أنه حق حتى يقوم عليه البرهان والدليل القاطع أولاً ثم الرجوع إلى التجربة والمشاهدة والتمحيص ثانياً». وفي معرض الخلاف بين العلم والدين يحدد الدكتور الغمراوي شمولية الدين في نظرته وسبقه العلم: «ومهما يكن من اختلاف في الغاية بين العلم والدين فإن كل غاية العلم هي بعض غاية الدين والطريق الذي يسلكه العلم إلى غايته هو جزء من الطريق الذي يأمر الإسلام بسلوكه»(١٣).

وقد اهتم القرآن الكريم بالعقل وبدعوته له إلى البحث والتفكير والتبصر ورسم أمامه جملة من الضوابط التي تسير به في الطريق الصحيح وصولاً إلى النتائج المتوخاة فكان أن دعا إلى تحرير العقول من التقاليد والأوهام والعادات الموروثة، ودعا إلى التجرد من الميول والأهواء عند البحث العلمي ومن التثبت قبل إصدار الحكم في قضية

علمية وأكد على دقة الملاحظة التي تدفع إلى التجربة، ونبّه المسلم إلى ألاّ يفتي فيما لا يعلم ولا يطلق أحكامه دون تثبت كما نبّه إلى رجوع العالم إلى الصواب إذا تبين له الخطأ وأن يرضخ للحقيقة ولو كانت عند عدوه.

وقد تبين من خلال الصراع بين الفكر الإسلامي الأصيل وبين ورثة الفكر اليوناني أن الفكر الإسلامي في المنهج العلمي الذي اتبعه قد طبق هذا المنهج العلمي حتى في الدراسات الإنسانية في عهد مبكر وقبل محاولة الغرب تطبيق ذلك في القرن السابع عشر على يد أوغست كونت ثم على يد دوركايم أوائل القرن العشرين، ولكنك بالمقارنة تجدها مأخوذة عن المناهج الإسلامية وإن جحد الغربيون ذلك.

هذا هو الفكر الإسلامي وتلك هي سماته ومنهجيته القائمة على الكتاب والسنة، ولما أدرك الغرب ذلك كله عز عليهم أن يجدوا هذا الفكر قد أدى دوره فخلق أمة عربية إسلامية لها منهج متكامل في التوحيد والفكر والأخلاق والقيم، وبنى حضارة عالمية اقتفى هؤلاء الغربيون أثرها. ولما كان لهذا الفكر دوره الكبير طالما هو بقي قائماً على هذين الأصلين الكريمين وفي خلق هذه الأمة وتجديد حضارتها، لهذا عمد أبناء الغرب وسدنتهم إلى غزو هذه الأمة في معاقل فكرها، ولجؤوا إلى الطعن في لغتها ودينها وحضارتها. فما هي ماهية ذلك الغزو...؟ ذلك ما سنوضحه في الفصل القادم.

***

مراجع الفصل الثاني

(١) كتاب مشكلات الفكر المعاصر. الأستاذ أنــــور الجنــدي ــ مجمــع البحوث الإسلامية العدد ٥١/ عام ١٩٧٣.
(٢) مجلة رسالة الجهاد والعدد ٩٤ومقال جمال سلطان ــ حركة التنوير العربية الحديثة.
(٣) تفسير القرطبي ــ المجلد الأول ــ طبعة دار الشعب .
(٤) كتاب حضارة الإسلام. عن مقال للدكتور ــ شوقي أبو خليل ــ حول غوستاف لوبون في مجلة الجهاد عدد ٩٣.
(٥) كتاب مشكلات الفكر المعاصر ــ أنور الجندي.
(٦) كتاب ــ الغزو الفكري والتيارات المعادية ــ مقالة د. علي عبد الحليم محمود ــ الرّياض ١٩٨١.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) الغزو الفكري والتيارات المعادية. مقال د. عبد الكريم يونس الخطيب ص ٤٣٢.
(٩) مشكلات الفكر المعاصر ــ أنور الجندي.
(١٠) كتاب أجنحة المكر الثلاثة د. عبد الرحمن حبنكة.
(١١) مجلة رسالة الجهاد العدد ٩٥ مقال المنهج عند المستشرقين د. عبــد العظيم الدريب.
(١٢) كتاب دراسات في الفلسفة الإسلامي د.محمود القاسم- دار المعارف ط٥/١٩٧٣.
(١٣) مجلد مجلة الرسالة لعام ١٩٣٦.

الفصل الثالث

الغزو الفكري

اقتضت حكمة الله ألا يقوم نبي ولا رسول بدعوة في قومه إلا وناهضه الملأ منهم وناصبه العداء أهل البغضاء، وفي ذلك محض ابتلاء من الله ليعلم الناس أن الحياة مبنية على التمحيص والابتلاء والاختبار، ولابد لأهل الفلاح أن يمتحنوا ولأهل الشقاء أن يختبروا ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]. ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

ولابد للمؤمن في بدء دعوته من شيطان يضله ونفس تفسده ومنافق يحسده ومبغض يبغضه ولم يسلم من ذلك حتى الأنبياء وتلك هي سنة المرسلين ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ولما كانت دعوات الأنبياء قائمة على العقل والفكر والإيمان بدءاً من إصلاح الأفهام والعقول لتستقيم على شرع الله، لهذا كان أعظم الابتلاء لهؤلاء الأنبياء ومن تبعهم، هو ما يقوم به أهل الباطل من تشويش وأصحاب الفساد من إضلال وتحريف وهو ما عرف في زماننا -بالغزو الفكري- وقد ابتلينا نحن في الأرض بشيطان الإنس والجن، واقتضت حكمة الله أن يدع الفرصة سانحة لإبليس ليضل من يضل من الخلق: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وقد أذن الله عز وجل له ليقوم بهذا الدور ليكون اختباراً لإيمان المؤمنين وصلاح الصالحين، فقال له: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا–إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

هذا الإغواء وذاك الإضلال الفكري والعلمي للناس في الحياة لا يطول الشيطان به المؤمن بشيء: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] ولكنه قد يفلح أحياناً فينال منك فتسهو عن دين الله وعن ذكر الله وقد تفعل السوء والإثم وتقع في الذنوب، ولكن ما يلبث ذكر الله والإيمان أن يرداك إلى الله من جديد ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] ولكن سلطان الشيطان على المؤمن وإغواءه ليس إلا من قبيل الوسوسة التي ما يلبث المؤمن أن يصحو منها لائذاً بحصن ربه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

فأنت إذاً مبتلىً بالشيطان يغزو فكرك وعقلك، ومبتلىً بالدنيا تحرف فكرك عن شرع الله إن تماديت في شهواتها، ومبتلىً بالناس أنفسهم –شياطين الإنس– يعملون على إفساد دينك وخلقك..

ولما كانت دعوات الأنبياء قائمة على إحياء الفكر والعقل والقلب لذلك فأنت تجد في قصص هؤلاء الأنبياء ضراوة هذه الحرب الفكرية التي يكيد فيها لهم شياطين الإنس والجن ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد برع شياطين الإنس في الإفساد بوسائل عدة من الإرجاف والتشنيع واختراع النقائص وإلصاقها بالأنبياء، وإثارة الجدل وإطلاق الشبهات واقتراح المعجزات تعجيزاً لهم، وكثرة السؤال عناداً، حتى استخدموا أساليب الاستهزاء والاستخفاف والسخرية منهم بغية أن يسقطوا عن هؤلاء الرسل ما يحيط بهم من القداسة والرزانة والكمال.

فهؤلاء قوم نبي الله صالح عليه السلام استكبروا وراحوا يفسدون الضعفاء ممن اتبعوا صالحاً. ويشككون في نبوته ويعلنون لهؤلاء بأنهم كافرون برسالته: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

وهؤلاء قوم هود راحوا يسفهون دعوة نبيهم لينقصوا من مكانته في قومه ويقضوا على دعوته ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. وهم أجهل الجاهلين فلما دعاهم إلى الله جمدت عقولهم وأفكارهم على عقيدة الآباء

والأجداد الباطلة فأجابوه ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. وهذا أخطر ما تبتلى به الأمم، جمود الفكر وركود العقول وتقليدها لضلال الآباء والأجداد.

وهؤلاء قوم شعيب وقفوا في طريق دعوته وراحوا يصدون الناس عنه بالقول والفكر وحرف العقول فخاطبهم ربهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]. فماذا كانت نتيجة نصيحة شعيب لهم؟ راحوا يحملون السلاح في وجه النبي ويهددونه وتابعيه ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] غزو فكري وعملي في نفس الوقت واستخدام لسلاح الاضطهاد الجسدي والفكري لتجميد عقل النبي وعقول من تبعه لتستجيب إلى عقول الجاحدين ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ هذه الصور العديدة عرضها علينا كتاب الله عز وجل لنتدبر ما تحمله من دلالات مستقبلية للمسلم بأنك إذا غُزيت ذات يوم بالفكر والتسلط على عقلك وإيمانك واضُطهدت كما اضطهد الأنبياء والمؤمنون معهم فإياك أن ترجع إلى الكفر بعد إذ أنقذك الله من النار، أو تعود إلى العقائد الباطلة بعد أن هداك الله ونوّر بصيرتك، ألم تسمع ما أجاب شعيب به هؤلاء الملأ ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

ولم يقف الأمر مع هؤلاء عند هذا الحد حتى راح الملأ منهم يفسدون الناس من حول شعيب عليه السلام بما لهم من حول وسلطان ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] أي لئن اتبعتم شعيباً فكراً وعقيدة ودينا وإيمانا فيحشى عليكم من أن تخسروا الحياة، وتلك دعوة إلى تنفير المؤمنين من حول شعيب وغزو عقولهم وحشوها بآراء باطلة.

وتزيين الحق لهم باطلاً والباطل حقاً.. وهذا نفس ما يروجه المستشرقون في زماننا ومنذ قرون من أن الإسلام سبب تأخر المسلمين وفسادهم وانحطاطهم، وأن أفكاره وتعاليمه لم تعد تصلح لبناء المجتمعات الراقية المتحضرة التي يدعون أنهم وصلوا إليها من التحرر والخروج عن الدين والعبثية والفجور واتباع طرق الضلال.

ولنتابع معاً عرض هذا الغزو الفكري الذي قام به المشركون والمنافقون في زمان النبي ﷺ ليتأكد لنا أن كل غزو فكري أصيب به المسلمون اليوم، عندهم له شبيه ومثيل في كتاب الله عز وجل بل وعندهم الحجج التي يقاومونه بها فيجدون مخرجاً منه أو طريقاً للتغلب عليه.. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

لما جاء رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، ورغم معرفة المشركين الحقة بتميّز كلام الله من كلامهم –وهم سادة الفصاحة والبلاغة– ورغم اعتراف بعضهم به إلا أن الأكثرية راحوا يرمون هذا الكتاب بالسحر وبأساطير الأولين وبأن الرسول افتراه من عنده وادعوا أنه باستطاعتهم أن

يقولوا مثله ولكنهم لم يفعلوا فتأكد عجزهم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]. ولما امتدح الوليد بن المغيرة القرآن بعد أن سمعه من النبي ﷺ فقال: «والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر..»، فمضى إلى كبراء قريش وفيهم أبو جهل وظنوه قد صبأ، فقالوا له في ذلك فأجابهم: «أنتم تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه قط يخنُق، قالوا لا والله. قال: وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بشعر قط، قالوا لا والله قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذباً قط؟ قالوا لا والله قال: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قط ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا لا والله.. وكان النبي ﷺ يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه فقالت قريش للوليد فما هو؟ ففكر في نفسه ثم نظر ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥][1].

فإذا رأينا اليوم مرجليوث أو بروكلمان أو ويلز أو غيرهم يطعنون في كتاب الله فنقول لهؤلاء قد سبقكم بهذا من قبلكم . وسبقكم من طعنوا بالقرآن في زمان النبّوة ورد القرآن مقولاتهم وعجزوا أن يأتوا بمثله وما زال العجز قائماً.

وإذا كان القرآن سحراً فالرسول ساحر أو كاهن وهو نفس ما ادعاه اليوم هؤلاء المستشرقون سبحان الله نفس الافتراءات تتكرر، والحجج في أيدينا فما الذي يمنعنا أن نجيب هؤلاء المرجفين اليوم؟.

ولما نظر كفار قريش إلى النبي ﷺ رأوه بشراً مثلهم يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، فأخذوا بالمماثلة وظنوا أن النبي يجب أن تغاير حياته حياتهم، أو هكذا ارتأوه أن يكون بل طلبوا أن يأتي ومعه ملك أو يكون صاحب مال ليُسمع قوله أوصاحب جنة ذات ثمر: **﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً﴾** [الفرقان: ٧-٨].

كل ذلك منهم تعجيزاً له وليخرجوه من دائرة النبوّة حيث لا يمكنه أن يأتي بملك ولا بكنز ولا جنات.. وكذلك فعل المستشرقون افتروا على رسول الله ﷺ دعاوى ليزيلوا بها عنه نبوته فكان أن امتدحوا ذكاءه وعبقريته، كل ذلك ليجعلوه مثل البشر ليبطلوا ما يسمى بالوحي.. ومن ثم يكون القرآن من كلامه وتأليفه وصدق المثل (في كل واد أثرٌ من ثعلبة).

ولهذا جعل الله تعالى حجة الرسالة الخاتمة معجزة القرآن الذي خاطب الإنسانية على امتداد القرون، خاطب فيها العقل والفكر معتمداً الحجة والبرهان والدليل **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [النمل: ٦٤]. وقد كان محور القرآن المعجز في غزو الفكر الجاهلي واقتلاع جذوره هو الأدلة والبراهين والحجج والبينات **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [الأنعام: ١٤٩].

وقد أنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ وحياً أوحى إليه به جبريل: قال ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ» [رواه الشيخان]. وقد اشتمل هذا الوحي على تفصيل وافٍ لجوانب الغزو الفكري للمؤمنين حتى يكونوا على بينة ويواصلوا الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة ويردوا على الكافرين والمنافقين وأضرابهم من أهل الكتاب دعاواهم وشبهاتهم.

وقد سمى القرآن الكريم هؤلاء الذين تعمدوا الإفساد وإثارة الشبهات والطعن بأسماء عدة مثل الشياطين والسفهاء والمعوقين والمرجفين وأكابر المجرمين وأئمة الكفر وفي قلوبهم مرض.. كما نعت أساليبهم الخسيسة بالغرور والخبال والفتنة وزخرف القول ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ۝ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[التوبة: ٤٧-٤٨]. وهاتان الآيتان جاءتا في صدد الحرب الفكرية التي تولى أمرها المنافقون في غزوة تبوك، من تخذيل وإرجاف وإشاعات كاذبة والعمل على تفريق المؤمنين وتسريب الشبهات إلى صفوفهم وهذا أكبر جرماً من القتل: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ولكنهم لم يستطيعوا خديعة النبي لا بالقول ولا بالفعل ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فإذا سئلوا عن تلك الإشاعات والافتراءات وقامت عليهم الحجة أجابوا ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

فإذا حضرتْ مجالس النبوة، ومجالس العلم والفكر والتربية ولوا هاربين ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١].

وأخَطر هذا الغزو ما جاء على لسان منافق عليم اللسان جاهل القلب يبّيت المكر بالإسلام وأهله ولكن الله هتك أستار هؤلاء المنافقين بقوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرسول الله وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وكذلك فعل كثير من المستشرقين فأعلنوا إسلامهم نفاقاً، وادعوا المنهجية، وشهدوا بالإسلام كدين ولكنهم طعنوا في نبي الإسلام، فمدحوا وقدحوا في نفس الوقت، وبدلاً من أن يعترفوا بنبوته ﷺ -لأنهم أنكروا الوحي- راحوا يعترفون بعبقرية النبي وذكاء محمد ﷺ ... فهو كالبشر تماماً ولكنه يمتاز عنهم بذكاء خارق لا بوحي سماوي.

هؤلاء المنافقون في زمان النبي كانوا يتبعون نفاق القول بنفاق العمل ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رسول الله حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧] كل ذلك من أجل أن يعملوا على إخراج المسلمين من دين الإسلام وإبعادهم عن رسول الله ليصبحوا هملاً مشاعاً وكذلك فعل المستشرقون والمبشرون فقال قائلهم: «نحن لا نريد أن نعلمكم لتصبحوا نصارى بل لنخرجكم من

دينكم» وخاطب أحد المبشرين جماعته: «مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله».

فانظر إلى هذا النفاق، حتى في أداء رسالتهم النصرانية إلى الخلق يبيتون ما لا يرضى الله من القول والفعل والتبليغ ويستهدفون غايات دنيئة ينأى عنها أبناء الرسالات السماوية الكرام. هؤلاء المنافقون في زمن النبي راجوا يشوهون صورة النبي ﷺ بعد الطعن في القرآن –ومثل هذا قام به المستشرقون تماماً –كما سنرى-: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال آخرون: ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧]. وسيمر معنا عند تحليل نصوص المستشرقين كيف وصفوا النبي بالجنون والصرع والغيبوبة.

وراح فريق ثالث من هؤلاء يسخر من رسول الله حتى أوحى الله إليه مواسيا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

أما الكفار فقد وصف الله دورهم في هذه الغزوة الفكرية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وقد بلغ هذا الغزو الفكري عند هؤلاء المنافقين أن ابتنوا مسجداً في ظاهر المدينة لغرض دنيء هو التشويش على النبي ورسالته وإيقاع

الفتن بين المسلمين، وما لبثوا بكل وقاحة أن دعوا النبي ﷺ ليصلي فيه ويباركه لهم.. فنزل الوحي السماوي مخبراً النبي بنواياهم الخبيثة، وأهدافهم الهدامة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]. فكان أن منع الله نبيه أن يقوم فيه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨].

وكذلك فعل المستشرقون فافتتحوا المدارس والجامعات والكليات من أجل تحضير الشعوب وتمدينها وراحوا يدسون السم في الدسم حتى فرقوا هذه الأمة وسيمر معك دور الجامعات الأمريكية في الشرق لترى أهدافها البعيدة من التشويه ومسخ المسلمين وتفكيرهم تماماً كما أراد هؤلاء الذين ابتنوا المسجد الضرار.

ومثل ذلك فعل السامري زمن موسى عليه السلام وعندما مضى إلى الطور مناجياً ربه، فكان أن عمل السامري على حرف عقيدة فكر اليهود: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

ومثل ذلك أبدى قوم هود في حرف العقيدة وتشبثهم بآلهة الآباء والأجداد: ﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]. وكذلك فإن كفار قريش يرون أن اللات والعزى قد أصابت رسول الله، عندما توقف عنه الوحي..

فأنت ترى أن غزو أعداء الإسلام كان بالكلمة والرأي والحيلة وخلابة المنطق وبراعة العرض وشدة الجدل ولدادة الخصومة وتحريف الكلم عن مواضعه وغير ذلك مما يقوم مقام السيف في أيدي الجند. والمقصود من ذلك كله شل إرادة الخصم وهدم تماسك نفسه وإيمانه القوي، فيقبل بالتخلي عن فكرته ليذوب في بوتقة تفكيرهم.

وفي الصنف المقابل لهذه الحملة الفكرية كان يقف رسول الله ﷺ والصحابة يقارعون المشركين بكل فنون الحرب الفكرية المتاحة لهم وكان عمادها آيات القرآن التي تنزل، ومحاوراتهم مع المشركين بما في المحاورات من أسلوب فاق الشعر والنثر، وقد أدرك هؤلاء العرب الجاهليون أثر هذا القرآن، فكانوا لا يفلتون من تأثيره فيتسمعون إليه خفية. حتى تواصوا في النهاية ألا يفعلوا ذلك خشية تأثير القرآن الغالب عليهم، ولنفس السبب كان النبي ﷺ يدأب على غزو المشركين بالقرآن يغشاهم به في منازلهم ومضاربهم وأسواقهم ومجامعهم ومحججهم.

ولما هاجر النبي ﷺ وجد من الأنصار والأعوان ما أدى إلى توسعه في استخدام أساليب الغزو الفكري، فاستخدم سلاح الفكر على أوسع نطاق وخاصة الشعر والخطابة. فلما أعدت قريش شعراءها للطعن في النبي ﷺ والإسلام طلب الرسول ﷺ من الشعراء أن يردوا على قريش وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم فقال: « ما يمنع القوم الذين نصروا الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ». فأجابه إلى ذلك حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة.. ثم دعا حساناً ونصب له في

المسجد منبراً وقال له: اهج المشركين فإن روح القدس معك[٢]، وقال: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله».

وهذا يعني أن عليك أن تعرف سلاح عدوك حتى تستطيع أن تقاومه بسلاح مثله أو اشد فتكاً. ولهذا كان واجباً علينا التصدي لهؤلاء المستشرقين في غزوهم الفكري لديار الإسلام وطعنهم بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ، ومحاولتهم اقتحام حصوننا الإسلامية بافتراءات واهية زعموا فيها أنهم أصحاب مناهج ومحققو مخطوطات ليست لدينا، وأصحاب خبرة في تطبيق تلك المناهج على الدراسات الإنسانية.. ولذلك فنحن سنريش نبالنا بعد هذا الفصل ونأخذ أهبتنا لمحاولة رد الصاع صاعين لهؤلاء والذين لم تكن تعنيهم المنهجية ولا الموضوعية في دراساتهم الإسلامية بقدر ما يعنيهم تشويه هذا الدين وإخراج أبنائه منه مختارين.

الغزو الفكري الجديد:

تكالبت على هذه الأمة وعبر القرون أفواج الحاقدين، وتطلعت إلى تشويه هذا الدين وهَدْمه، فكان أن نامت هذه الأمة سنين طويلة، دب فيها الوهن الذي أصاب الأمم فأبعدها عن مصدر قوتها وسعادتها. وكان في مقدمة الأسباب التي أدت إلى وهن هذه الأمة تسرب الثقافات والأفكار الغربية وشيوعها في جوانب الحياة، ونحن نعلم عبر تاريخنا أن رسول الله ﷺ ذات يوم رأى في يد عمر صحيفة نقلها عن بعض أهل الكتاب فقال له: لقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوّكوا ولا يغرنكم

المتهوكون» والغريب أن هذه الأمة تهوكت في مجاهل الإسرائيليات التي عرفت بها متون الثقافة وحتى في تفسير القرآن[٣].

ثم كان أن غزتها الفلسفات الإغريقية المترجمة ومناقشة مسائل التوحيد والإلاهيات وعلى رغم أنها فلسفات وثنية في جملتها فقد اضطرب حبل هذه الأمة ووهن دينها وابتعد الكثيرون عن هدي الكتاب وسمْت النبوة، والتبس الأمر على الناس بحيث ثار البعض الآخر يعيبون على من تمسك بالكتاب والسنة، وبالتقليد، وهذا أعجب غزو تُغزاهُ هذه الأمة في دينها أن يتفرق أبناؤها حتى يرى فريق منهم، مَنْ تمسك بالكتاب والسنة بأنهم مقلدون جامدون وكأن التجديد عندهم أن تخرج عن الكتاب والسنة..

يقول ابن درباس: «ثم استسلمت هذه الأمة إلى الجدل الفلسفي والنقاش العقيم والذي لا يمكنه بحال من الأحوال أن ينشئ عقيدة أو يغرس إيماناً، ولما دخلت مرحلة الجمود الحضاري بدءاً من القرن العاشر الهجري، نتيجة عوامل الاستبداد السياسي والمظالم الاجتماعية، وإهمال علوم الحياة هناك تعطلت روح الابتكار وفقدنا نزعة التجديد وقعدنا عن الجهاد. وأدى كل ذلك إلى الجمود والركود الفكري، وخمود جذوة النظر والبحث فالتزم العلماء والمفكرون دائرة الحواشي والمتون وعكفوا على نصوص السابقين يتفقون فيها أعمارهم»[٤].

وبينما كان المسلمون يهجعون لاهين عن مصير محتوم ينتظرهم راح الغرب ينهض وتهيأت له عوامل الغلبة والقوة في أوربا. فتمرد على

الكنيسة ونبذ سلطانها الديني والسياسي بكل ما فيه من أخطاء وحجر على العقول واضطهاد للعلماء، فكان أن خسرت الكنيسة وزنها الديني في أوربا فتربصت بالإسلام وكان من أخطر جناياتها على الإسلام في غزوها الفكري دعاياتها الكاذبة ضده طوال الحروب الصليبية وما بعدها، وتصويره بصورة الدين الوثني حتى ادعى بعضهم أن محمداً ﷺ عابد وثن. كما صوروا هذا الدين بأقبح صورة وعّمموها بين أبنائهم مما عبّأ هذه النفوس بالحقد والكراهية والمقت للإسلام وأهله، وراحوا يتوارثون تلك الافتراءات وكأنها من المسلمات البديهية بلا فهم ولا دراسة ولا تمييز وسترى في عرضنا لبحث الاستشراق كيف كان يردد اللاحق من هؤلاء آراء السابق دون دراسة ولا تمحيص ودون أن تكون له شخصية علمية أو منهج علمي.. ولا تزال هذه الروح سارية في أغوار النفس الأوربية، وقد بلغ بعض هؤلاء المستشرقين في الافتراء حداً سخر بهم مواطنوهم فنهضوا فقاموا للرد عليهم لخروجهم عن طبيعة المنهج العلمي إلى السباب والشتائم والطعن دون أن يكون لدى أحدهم الدليل الذي يدافع به عن رأيه. وهذه الصليبية الحاقدة وذاك العرض السيء للإسلام هو الذي حال بين أوربا والإسلام فارتدوا إلى أصولهم الوثنية وأحيوا تراث اليونان والرومان القائم على الإلحاد المادي..

وحين شبت هذه الحضارة الغربية واستكملت عدتها راحت تتعامل مع العالم الإسلامي بروح الصليبية القديمة، وراحت الدول العلمانية تتحالف مع الكنيسة ويقوم فيها الرجل بدور الراهب المبشر والعالم المستشرق والجاسوس المحترف ضد الإسلام.

ولما حان دور التمدد الحضاري لهؤلاء القوم بفعل العصبية الحاقدة أو الصليبية المجرمة أو بحاجتهم إلى إيجاد أسواق استهلاكية لمنتوجاتهم، أو لأهداف أخرى كثيرة.. لما حدث ذلك كان معظم ذلك الامتداد لتلك الحضارة على العالم الإسلامي المواجه لهم، وعلى شكل غارة شاملة عليه، وكان الغزو هذه المرة ماكراً عنيداً وعى قادته تماماً مكامن القوة والضعف في نفوس المسلمين وعرفوا دور الإسلام الخطير في حياة أتباعه وكيف أنه كان يهزمهم في كل مرة يكون الإسلام فيها حاضراً في النفوس.

ومن هنا وجهوا سهامهم للقضاء على هذا الإسلام وتشعبت سهامهم لتطول كل شيء الناس والأرض والعقول والعقائد والأخلاق والأذواق والعادات والأفكار بحيث يتم تحطيم هذا الدين وقواعده وتشويه قيمه ومبادئه، كتابه ونبّيه، بل والطعن في كل شيء حتى في ماضي المسلمين وحاضرهم.. لقد أعلنوا غارة شعواء على عالمنا الإسلامي، والعجب أنه ليس لهذا العالم الإسلامي ذنبٌ إلا أن الإسلام ينتشر بين الشعوب انتشار النور في الظلمة. وأن الناس يقبلون عليه طائعين بلاضغط ولا إكراه، وأنه في رأي البعض الحاقد على الإسلام، يزاحم النصرانية ويحل محلها..

وقد كانت جناية هذا الغزو على الفكر والعقول أفدح من جنايته على الأرض واستعمارها، فقد برعت هذه الحضارة الغازية في أساليب الغزو الفكري وتأصيل المناهج الضالة وعرضها عرضاً مغرياً استخدمت

فيها من فنون المكر والخداع والتضليل مالم تعرفه من قبل وأتقنت إعداد المدارس التي تخطط لذلك، وتنفذ وترصد وتحلل وتقارن وترسم الخطط لتدمير الإسلام في نفوس أبنائه وعقولهم وبيد نفس أبناء الإسلام حتى ليصدق فيهم قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الحشر: ٢] [٥] وهذا أخطر ما أصاب أمتنا الإسلامية وما يزال الجرح ينزف وما زال المسلم يقاتل المسلم ويتآمر ضده ويحقد عليه، لقد أبعدوا الشقة بين المسلمين وفجروا دواعي الخلاف والعصبيات والقبلية والطائفية والحزبية والقومية واستخدموا لذلك كل ما يملكون من وسائل الثقافة والمغريات كالقصة والتمثيلية والمسرح والإذاعات والكتب والمجلات.

«لقد أفلح الغزو الفكري بخاصة والثقافي والحضاري بعامة في أن يعدد انتماءاتنا العقائدية وأن يصبغ أكثر الفئات العلمية لدينا بصبغة علمانية وأن يوجد أنظمة تعليمية وإعلامية في ظاهرها التقدمية والاستقلال والتطور، وفي باطنها غربة الانتماء، والانفصام عن الجوهر والأصالة إن الاستعمار الباطني ما يزال يكبل عقول نسبة كبيرة من الكفاءات الثقافية ويطمس على قلوبها حتى غدت مفاهيمها وعلاقتها بالله رثة مشوهة أو مبتوتة رافضة» [٦].

ولهذا كان مالك بن نبي يرى «أن الفكر في البلاد الإسلامية التي تحررت من الوصاية الاستعمارية لم تكتمل بعد شخصيته ولم يظفر بعد بحقه في السيطرة على وجوه الحياة وبقيمته الاجتماعية باعتباره وسيلة للعمل وأساساً جوهرياً للنشاط».

وهو يرى كذلك: «أن استدراك العقل المسلم لتخلفه التاريخي لن يكون ممكناً إذا كانت الإرادة مصفدة بأغلال التخلف، والتغريب، ولذا يجب تصفية هذه العوامل من إطار الممارسة الحضارية حتى تصفو الشخصية الحضارية المسلمة من عوامل الإعاقة وتنطلق نحو مقوماتها العقدية التي صاغت إنسان الحضارة الإسلامية الذي غير حركة التاريخ»(٧).

وقد تم ذلك كله للمستعمر بالغزو الفكري المتمثل بالمدارس والجامعات والمرأة ووسائل الثقافة. فكان أن قطفوا نتائج ذلك تدمير العالم الإسلامي وتشتيت أبناء المسلمين وتنشئتهم على حب الغريب والتسبيح بحمده وثقافته وعلومه وتقاليده ولباسه وطعامه وشرابه تماماً كما ذكر رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع..».

ورحنا نقلده في مناهجه وأساليبه وطرائق عيشه في الحياة كما يقول توينبي .. ولقد مكن هذا الغزو الثقافي والفكري -وهو الحرب الباردة- لأولئك الغربيين السيطرة على الأرض بالاستعمار وعلى الفكر بتشويه حقائق الإسلام والدين والقرآن والنبوة، وعلى وسائل العيش بما صدروا إلينا من مغريات، وعلى النفوس بما صنعوا من أزياء وموضات ماتزال تغزو أسواقنا.. وما كان لأوربا أن تصل إلى معشار هذه النتائج ولو ظلت ألف عام تحمل السلاح... وقد أدرك المبشرون الأوائل ذلك بعيد الحروب الصليبية فغيروا مخططاتهم السابقة واستهدفوا قتل فكر

الإنسان المسلم وتسميم عقله وتشويه ثقافته ودينه وقد عبر عن ذلك بكل أسىً وحزن عميق الشاعر الهندي المسلم بقوله: «يالبلادة فرعون الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ»(٨) تماماً مثلما فعلت أمريكا بالكليات الأمريكية بالشرق فقد قتلت أبناء المسلمين بحجة تعليمهم وتمدينهم ولم يلحقها العار ولا اللوم من أحد..

وقد تركز هذا الغزو الفكري على عدة أمور ومنها اللغة فكان أن طعنوا بلغة القرآن وحاولوا القضاء عليها، ثم طعنوا بالقرآن ونبي الإسلام وبالإسلام نفسه كمنافس للنصرانية ثم كان التركيز على تشويه التاريخ والحضارة والتراث الإسلامي، وتلك هي موضوعاتنا للفصول التالية.

***

مراجع الفصل الثالث

(١) تفسير القرطبي ــ المجلد العاشر ــ طبعة دار الشعب. ــ تفسير سورة الكوثر.

(٢) كتاب الإسلام والشعر د. محمود سامي العاني ــ سلسلة عالم المعرفة العدد ٦٦ لعام ١٩٨٣.

(٣) كتاب الغزو الفكري والتيارات المعادية ــ جامعة محمد بن سعود الرياض ١٩٨١.

(٤) المصدر نفسه ــ مقال د. عبد الستار فتح الله سعيد

(٥) المصدر نفسه

(٦) مجلة كلية الدعوة الإسلامية ــ العدد السابع لعام ١٩٩٠ مقال د. محمد مصطفى الحاج ــ جامعة الفاتح.

(٧) مجلة رسالة الجهاد عدد ٩٤ مقال سليمان الخطيب ــ مصر.

(٨) كتاب الغزو الفكري والتيارات المعادية ــ مقال د.عبد الستار فتح الله سعيد.

الفصل الرابع

الطعن في لغة القرآن الكريم

عندما تبدّى للاستعمار في القرنين الماضيين عجزه عن محاولة إخضاع العالم العربي والإسلامي بقوة السلاح، أدرك أن هناك من الوسائل ما يمكن إخضاعه بها ودون إراقة دماء.

ولما كان فكر كل أمة مرتبط بلغتها، وشخصية كل دولة وكيانها رهين بما تكتب به وتتكلم، ولما كان الاستعمار قد غزا كثيراً من بلدان العرب والمسلمين واستولى عليها أو جعل من نفسه منتدباً على تسيير أمورها، لهذا وجد الفرصة مناسبة لعدم إثارة القلاقل والحروب في هذه البلدان، فمع ادعائه محاولة تحضير هذه البلدان ومساعدتها لتسير في ركب التطور ومع محاولته إقامة حكومات وطنية فيها، محتواة من قبله فهو قد وجد الفرصة مناسبة لإخضاع هذه الدول وإلى الأبد، إذ كان في حسبانه أنه مع تطور الشعور وانتشار الوعي القومي، لابد خارجٌ من تلك البلدان ليستلم أبناؤها إدارتها، فكان أن تنبه إلى الأثر العظيم الذي يتركه الطعن في لغة هذه الأمة أو تشويهها أو قتلها واستبدالها بلغته وعرف أثر ذلك في تمزيق وحدة الأمة الدينية واللغوية.

وعندما تكون هذه الأمة هي الأمة العربية والإسلامية، وعندما يكون القرآن هو دستورها وكتابها، والعربية لسانها، وعندما يكون هذا القرآن قد أخذ بأيدي أبناء العروبة والإسلام إلى بناء حضارة عالمية سادت العالم ثمانية قرون وحضّرت ومدّنت أمماً وشعوباً ولها من الصحة والعافية والقوة ما تستطيع أن تنهض بالأمم الإسلامية حتى من العدم، بل لها من القوة ما تستطيع أن تقهر وقهرت جيوش الصليبيين

وحملات المغول والتتار، عندها فكر المستعمر جدياً بضرب هذه الأمة في أعمق أعماقها عن طريق تشويه لغتها، لغة القرآن، والادعاء بأنها لا تملك مفاهيم تعبر عن الحضارة الإنسانية، بمعنى أنها لا تستطيع مواكبة حركة التطور الصناعي والتقني والذي غزا العالم، وأنها بهذا الشكل ستكون سبب تخلف المسلمين. ما أعظم غيرة هؤلاء المستشرقين علينا وعلى لغتنا، ولكنها ليست بأعظم من غيرة الذئب على فريسته والتي راح يسوقها إلى وكره في النهاية.

فإذا أمكنه القضاء على لغة العرب فقد قضى على الفكر العربي والإسلامي وبالتالي على الشخصية الإسلامية والوجود الإسلامي بشكل عام. ولهذا راحوا يلقون في روع العرب والمسلمين ضعف لغتهم وقصورها عن استيعاب العلوم وأنه يجب أن تكون لهم لغة أخرى بل راحوا يدعون أن سبب تأخرهم هو استعمال الفصحى لصعوبتها، وأن العامية سهلة وأنها لغة الحياة في الأسواق والمنازل. وراحوا يدعون إلى إحياء العاميات المحلية في كل بلد والكتابة بها. وإلى جانب ذلك أخذوا يرغبون بثقافة الغرب ولغته. وقد كان جمال الدين الأفغاني من السابقين إلى التنبيه إلى الخطر الخارجي (الاستعمار) والخطر الداخلي (الاستعمار الثقافي) فقال منبهاً المسلمين إلى أساليب المستعمرين: [يتخذ الغربيون في الشرق أساليب عجيبة للقضاء على الروح القومية وقتل التربية الوطنية وتقويض الثقافة الشرقية فتراهم يزينون للشرقيين أن ينكروا على قومهم كل مأثرة ويلقون في روعهم أن ليس في لغتهم العربية أو الفارسية أو الهندية آداب تؤثر ولا مجد يذكر، ويوهمونهم أن قصارى

المجد للإنسان الشرقي في النهاية أن ينفر من سماع لغته وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها. وأن ما تعلمه من الرطانة الغربية هو غاية ما يستطاع بلوغه من الثقافة الإنسانية ثم يقول: «ألا ليت الشرقيين يدركون أنه لا لسان لهم وعدم وجود لسان القوم يعني أنه لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم فيهم أساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مآثر رجالهم»(١) وقد فطن إلى هذين الخطرين كذلك عباس محمود العقاد فعلق على زحف نابليون على مصر بقوله: «إن نابليون زحف على المماليك بجيشين جيش يحمل السلاح وآخر يحمل العلوم والفنون والكتب»(٢).

ولما كانت اللغة الفصحى ـ لغة القرآن ـ تحمل في طياتها شبحاً يهدد الاستعمار، لهذا ركز على تقويض هذه اللغة بأية وسيلة فراح يدعو المثقفين والأدباء إلى هجرها بزعم أن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة عامل من أهم عوامل التخلف الثقافي ـ وقاموا بنشر الدعوات التي تطالب بالأخذ بإحدى اللهجات كالمصرية والسورية والعراقية، وطوراً دعوا إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ودللوا على نجاح هذه التجربة بما قامت به تركيا، وطوراً دعوا إلى تيسير النحو وإسقاط بعض الأبواب منه.

وتسهيلاً لذلك وتمهيداً له أخضعت الدراسات الاستشراقية القرآن الكريم لخصائص وطبائع الأدب الأرضي البشري وتعاملت معه بعيداً عن القدسية الدينية التي يتعامل بها المسلمون مع كتاب الله. وهذا انعكاس لطبيعة تعامل المستشرقين مع كتبهم الدينية، فتعرضوا للقرآن

باعتباره مرحلة من مراحل الأدب العربي وقوموه بالمقاييس الأدبية الأوربية تارة والعربية مرة أخرى[٣] وقام بروكلمان فربط بينه وبين سجع الكهان ـ وسيأتي ردنا على هذه الفرية ـ وقام ماكدونالد وراح يتخبط فيما كتبه في دائرة المعارف الإسلامية واتهم القرآن بأنه من عند محمد وليس من عند الله وأنه يشبه سجع الكهان وادعى المستشرق جيب أن الظروف المحيطة ببيئة محمد ﷺ أملت عليه أفكار القرآن، وزاد الطين بلة ـ ويلز ـ فادعى أن اليهود قد هدوا النبي إلى الاعتقاد بإله واحد فجاء بآيات معينة أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك»[٤]. وقد حاول هؤلاء المستشرقون إزالة القدسية عن كتاب الله عز وجل ليتسنى لهم أن يطعنوا بلغته فكان أن ادعوا بأن «لغة القرآن بدائية لا تصلح للأخذ بالآداب الحديثة أي ما يسمى بالأدب الشعبي» ويقصدون به كل ما هو مكتوب بغير الفصحى، وكأن الأدب الشعبي العامّي هذا في رأيهم هو وسيلة الرقي والحضارة والتقدم وليس لغة القرآن اللغة الفصحى.

والغاية من وراء ذلك تفريق كلمة المسلمين عامة والعرب خاصة وزرع القطيعة بينهم وبين دينهم ولغتهم وثقافتهم وقطع الروابط بين جميع المسلمين إذ أن لغة القرآن هي الجامعة بينهم.

وقد أحرز الاستعمار بعض النجاح في ذلك بإخراج تركيا من حظيرة الشعوب التي تستخدم الحرف العربي والتي استعاضت عنه بالحرف اللاتيني . ومن ثم سارت تركيا في ركب التغريب فصارت غربية اليد واللغة واللسان والحضارة.

وقد ركز المستشرقون على قضايا تخدم فريتهم تلك، فكان تركيزهم على أدب الفرق والطوائف الإسلامية كما اهتموا بدراسة الأدب الماجن والمنحرف والشاذ في العصر الأموي والعباسي، وادعوا أن الوحدة العضوية في الأدب العربي غير موجودة، وادعى رينان أن العقلية العربية (غير تركيبية) وأن غنى الخيال وعمقه خصيصة للفكر الآري بينما العقل السامي (ومنه العربي) يفتقر إلى هذا العمق ـ عند رينان ـ بحجة أن عقيدة التوحيد تركت العربي والمسلم يعيشان في جمود وعلى وتيرة واحدة وهذا في نظره أدى إلى عقم الخيال وضعف التصوير في الملكة الشعرية العربية، ومحصلة هذه الافتراءات تنتهي إلى ضعف اللغة وعدم صلاحيتها لتعبر عن حاضر الأمة ومستقبلها.

والغريب أن تلقى هذه الافتراءات أذناً صاغية عند كثير من أدباء العرب كجرجي زيدان وطه حسين، وأحمد أمين وزكي مبارك ومنصور فهمي وأحمد لطفي السيد . وغيرهم.

وعندما استولى المستعمرون على بلاد العالم الإسلامي كانت معظم بلدان هذا العالم تمزج في تعليمها بين التعليم الديني والتعليم الحياتي (تعليم الحرف والمهن) بحيث يوازن المسلم بين عمل الدنيا وعمل الآخرة في وسطية تكفل للمسلم ألا يكون عالة على غيره، وتجعل منه عضواً فعالاً في هذه الأمة إذ أن العمل عبادة مثلما العلم والتعلم عبادة. ولما جاء المستعمرون أفسدوا على الناس حياتهم ودينهم ولغتهم وأمور معاشهم، وقد استعصى عليهم ـ الأزهر ـ وكثير من

المعاهد والكتاتيب التي تدرس لغة القرآن، ولكنهم لم يهدأوا حتى تم لهم انتزاع تدريس اللغة العربية والدين من معظم المدارس العامة بل صارت مادة التربية الإسلامية اليوم في مدارسنا لا تقارن بمادة الفنون بل هي تحذف من مجموع درجات الطالب عند دخول الجامعة.

ترى ما هي خطة الاستعمار في القضاء على هذه اللغة؟ كانت خطة الاستعمار تتضمن للقضاء على لغة القرآن ثلاثة فصول: الدعوة إلى العامية، والدعوة للكتابة بالحرف اللاتيني والدعوة إلى تيسير النحو أو حذفه.

أ ـ الدعوة إلى العامية:

يقول د. أحمد سوسة: «ترجع بدايات الدعوة إلى اللغة العامية إلى أوائل القرن الثامن عشر عندما أخذت دول أوربا تنشئ المعاهد الخاصة لتدريس اللهجات العربية العامية والغرض من ذلك تخريج السفراء والقناصل والجواسيس الذين يوفدون إلى البلدان العربية»[٥].
وتأخذ القضية وضعها الخطير بدءاً من المستشرق ولهلم سبينا عام ١٨٨٠ م والذي كان مديراً لدار الكتب المصرية فقام بوضع كتاب عن قواعد العربية العامية في مصر ضمن مخطط في الهجوم على الفصحى، ونادى باتخاذ العامية لغة أدبية واقترح الكتابة بالحرف اللاتيني، ولكن دعوته لم تنجح، وفي عام ١٨٩٣ أدرك ـ وليم ولكوكس ـ من كثرة تجواله في البلدان العربية أن الفصحى هي سر الترابط القومي بين العرب خاصة والمسلمين عامة، باعتبارها لغة القرآن، فكان أن سعى للفصل بين

العرب ولغتهم، فألقى محاضرة أبدى فيها تفاؤله بمستقبل الشعب المصري وأعرب عن ثقته وقدرته على اكتساب ملكة الاختراع والإبداع إن اتبع مشورته ودعوته للكتابة والتأليف باللغة العامية، وجدد دعوته إلى هجر الفصحى عام ١٩٢٦م لأنها دخيلة ـ وقد أشار حافظ إبراهيم إلى ـ ويلكوكس هذا ـ في قوله:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب

ينادي بوأدي في ربيع حياتي

ولما لم تنجح دعوتهم تلك قاموا بكتابة الكتب والمقالات ونشر آخر ما يسمى بالآداب الشعبية أو الفولكلورية باللغة العامية كالأزجال المصرية والأغاني الشعبية والأمثال. كما قامت فرنسا بمحاربة الفصحى في شمال أفريقيا حرباً شرسة أعنف من محاربة الاستعمار البريطاني لها في مصر فوضع مستشرقوها كتباً في دراسة اللهجات البربرية لتحل محل الفصحى وكان على رأس هذه الحملة الداعية إلى الكتابة بالعامية والحرف اللاتيني المستشرق لويس ماسينيون.

وقد نجحت تلك المساعي لبعض المستشرقين فراحت بعض الصحف تروج لهذه الدعوة، فمجلة المقتطف دعت عام ١٨٨١ م إلى كتابة العلوم بالعامية وشاركتها في ذلك مجلة الأزهر، وراح سلامة موسى ـ في مجلة الهلال ـ يثني على ويلكوكس لدعوته تلك ويضمن اقتراحه إلغاء الإعراب وتسكين أواخر الكلمات مدعياً أن العربية لا تخدم الأدب

المصري ولا تنهض به وإنما تبعثر الوطنية المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية ولهذا امتدح رسالة ويلكوكس وأيدها لدعوتها إلى هجر الفصحى ، وشارك في هذه الحملة الظالمة لويس عوض الذي دعا إلى نبذ الشعر الموزون وإحلال العامية، ومن العجيب عن هذين الرجلين سلامة موسى ولويس عوض أنهما كتبا بعد ذلك جل كتبهما باللغة الفصحى مما يدلك على الدور التآمري الذي قاما به مع هؤلاء المستشرقين.

ومن المؤسف أن ترى كثيراً من أدبائنا الكبار وقد شاركوا في هذه الحملة فكان منهم أحمد لطفي السيد داعية القومية المصرية الأول الذي نادى بتمصير اللغة العربية ومحمود تيمور داعية الفرعونية وعبد العزيز فهمي الذي نادى باستخدام الحروف اللاتينية وعيسى اسكندر معلوف الذي أظهر عداوة للفصحى. ودافع عن اللهجات السوقية مؤكداً مقولة المستعمرين(إن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة من أهم أسباب التخلف الثقافي في الدول العربية)(٦).

وبهذه الحملة ظهرت دواوين بعامية الشام وكذلك بعامية مصر، ولكن وجد الكتاب أنفسهم مضطرين لشرح معاني بعض الكلمات العامية ببيان المقابل الفصيح لها (وهذا من فضائح تلك الدعوة، وغباء أصحابها)، وإذا علمت أن اللهجات في العالم العربي كثيرة جداً، وأن عامية كل بلد وكل منطقة تختلف في البلد الواحد ومن منطقة لأخرى أدركت تعدد هذه اللهجات ومدى خطورة هذه الحملة. .

يقول د. علي عبد الحليم محمود: «أي عامية يروجون لها هل هي عاميات مصر العديدة أم عاميات الجزيرة أم عاميات المغرب العربي؟ وقد أتيح لي شخصياً أن أزور معظم بلدان العالم العربي وأن أسمع عاميات الصعيد في مصر والدلتا، وعاميات الكويت والأردن والعراق وتونس والجزائر والسعودية وأشهد أن هذه العاميات واللهجات لا تكاد تحصى وهي تستعصي على فهم الكثيرين من العرب أنفسهم»(٧)

وتوكيداً لهذه المقولة أقول: لقد عايشت ـ أنا كذلك ـ عامية المغرب العربي يوم كنت مدرساً للغة العربية في السبعينات ولمدة أربع سنوات وأشهد أني لم أستطع إتقان لهجة واحدة وهي لهجة أبناء المحمدية والدار البيضاء، وكثيراً ما كنت ألتقي بزملاء مدرسين من المغاربة عندما يعرض التلفاز المغربي أفلاماً مصرية كان واحدهم يقول لي: «يا أخي لم أفهم من الفيلم شيئاً البتّة. » ورغم ذلك إذا كلمت هؤلاء باللغة الفصحى أو عرضت عليهم مسرحية تتحدث بالفصحى ولغة القرآن ـ فهموها مباشرة. وحتى عوام المغاربة كنا نكلمهم بالفصحى فيفهمون علينا فوراً ونفهم عليهم. أبعد هذا من دليل على أن تلك الدعوة إنما هي دعوة استعمارية مغرضة غرضها الأول والأخير القضاء على دين المسلمين وعقيدتهم وكتابهم وتمزيق وحدة صفهم وحملهم على دراسة لغة العدو وثقافته وفكره. ومن العجيب بعد كل الردود التي قام بها الأدباء والمثقفون على أصحاب تلك الدعوة، أن يلتقي أعضاء مجامع اللغة العربية من دمشق وبغداد والقاهرة ومندوبون عن الأردن وليبيا والسعودية ولبنان في مؤتمرهم بدمشق عام ١٩٥٦ م ليجدد

بعضهم الدعوة إلى العامية، فنسمع أحمد حسن الزيات عضو المجمع العلمي بالقاهرة يقول: إن المحافظين من شيوخ الأدب قد سيطروا عليه أول نشأته (يقصد مجمع اللغة) ثم انتهى زمامه إلى الكتاب والصحفيين الذين نبهوا المجمع إلى أهمية العامية وإلى خطورة جمود اللغة بتخلفها عن مسايرة الزمن.[٨] ونقول للزيات: أين هو التخلف عن مسايرة الزمن، وهو يعلم علم اليقين أن كل علوم الطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء. تدرس في دمشق باللغة العربية ولم يجد المدرسون حرجاً ولا قصوراً في اللغة عن الإحاطة بمصطلحات كل العلوم، ألا يكفي هذا الدليل العملي برهاناً على نقض رأي الزيات وادعائه ذلك.

بل إن الزيات ليبالغ في دعواه ليقول: « إنه يسهل علينا تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية وإن علينا أن نسرع في دراسة عاميات الأقطار العربية المختلفة لإقرار ما هو مشترك منها سواء صح في معاجم اللغة أو لم يصح». ولا أدري هل استطاعت المجامع اللغوية بعد ذلك أن تصنع مثل هذا المعجم الجبار الذي سيوحد أقطار الأمة العربية من المحيط إلى الخليج وإذا كان قد وضع فمن الغريب حقاً أن الوحدة العربية تأخرت حتى اليوم.

ونستمع إلى د. طه حسين محاولاً عزل اللغة العربية عن الحياة وربطها بأن تكون لغة دين وطقوس وعبادات فحسب لا لغة أدب وفكر وحياة: « وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون وليست أقل منا إيثاراً لدينها ولا احتفاظاً به ولا حرصاً عليه، ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن

تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي بها صلواتها، فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر والقبطية هي اللغة الدينية لفريق الثالث والسريانية لفريق رابع وبين المسلمين أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي العربية، ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيماناً بالإسلام أو ذياداً عنه وحرصاً عليه».

ونحن لن نجيب د. طه حسين إلا بأمثلة من أولئك الذي استشهد بهم في كلمته تلك والذين يتكلمون لغتين لغة للدين ولغة للحياة. ففي فرنسا قامت ضجة اجتمعت لها بعض المجالس النيابية واشتركت فيها الصحافة حتى أن صحيفة اللوموند أقامت الدنيا لأن كلمات أوربية غير فرنسية قد تسربت إلى اللغة الفرنسية فخاف الفرنسيون من ذلك على لغتهم وأمتهم. وفي ألمانيا ـ في العهد النازي ـ أصر الألمان على أن يضعوا كلمات ألمانية موضع بعض الكلمات اللاتينية اليونانية التي كانت مستعملة. (٩)

وهؤلاء اليهود أنشؤوا دولة بإحياء لغتهم العبرية بدءً من إنشاء الجامعة العبرية في القدس عام ١٩٢٤–١٩٢٥م. ورغم الفارق بين لغة الدين التي استشهد بها طه حسين واللغة الفرنسية التي هي لغة العلم والحضارة فإن الفرنسيين لا يمكن أن يتخلوا عن لغتهم الفصحى ليكتبوا

بغيرها بينما نحن يتطوع طه حسين لنترك لغتنا لتظل لغة دين وننتقل إلى لغة غيرها. وما أصدق كلمة أستاذنا الأفغاني في هذا المقام: «لقد أنشأ اليهود بإحيائهم للغتهم دولة من العدم وأضعنا بإغضائنا عن عبث العابثين بلغتنا أمة من الوجود»[١٠].

والعجيب أن هذه الدعوات ليست إلا صدى لما ردده أعداء الأمة الإسلامية أمثال كرومر ودانلوب وويلكوكس وأشباههم كاسكندر معلوف ورئيف أبي اللمع. وفارس عمر، فهي حملة ضارية لتغريب اللسان العربي وإحلال لغات أجنبية مكانه أو لهجات عامية تؤدي إلى تمزيق وحدة الأمة والقضاء على تاريخها وفكرها وحضارتها.

والحقيقة أن الهجوم على الفصحى هجوم على الإسلام والأمة العربية ولهذا قام أبناء العربية الحريصون على لغتهم ودينهم وأمتهم فبينوا عدم صلاحية العامية للقيام بدلاً من الفصحى وبينوا أن الازدواجية في اللغات كلها أمر طبيعي ولا تناقض في ذلك ففي كل اللغات الأوربية توجد العامية والفصحى ويحرص الغربيون جميعاً على استخدام الفصحى في الآداب والعلوم وفي المدارس ولم يناد واحد منهم بإحلال العامية مكان الفصحى.

وأما دعوى صعوبة اللغة الفصحى ففرية افتعلها المستشرقون وقد ذكرنا لك كيف كان عوام المغاربة يفهمونها ويديرون الحديث معنا بعيداً عن اللهجات العامية وأما نحو هذه اللغة فهو أسهل بكثير من نحو كثير من اللغات الأوربية وأما ما قالوه من سهولة العامية فهو مغالطة فاستمع

إلى ولهلم سبينا وهو صاحب أول دعوة لإحياء العاميات: «بأنه أمضى عدة سنوات في دراسة العامية في مصر ولكنه لم يستطع الإلمام بها لتعدد لهجاتها واختلافها من بلد إلى آخر ومن حي إلى آخر». ولذلك راح يناشد كبار العلماء في مصر إلى تكوين هيئة علمية لإتمام ما بدأه هو وعجز عنه، والعجيب أن هؤلاء يستخدمون الفصحى من أجل الدعوة إلى استخدام العامية. . أفلا يشعرك عناد هؤلاء المستشرقين والمستغربين من العرب وتصميمهم على حملنا على العامية أنهم إنما يريدون إخراجنا من ديننا وعروبتنا وقوميتنا وحضارتنا رغماً عنا بدعوى أن العامية لاتصلح لأن تكون لغة العلم، وذلك على الرغم من أن الفصحى لغة مرتبطة بديننا وأنها أصلح من العامية وعلى الرغم من فهم الناس لها، وعلى الرغم من كلماتها واشتقاقاتها التي تقارب /٨٠/ ألف مادة في حين تجد أن مفردات العامية تسد حاجات الناس الضرورية فقط، فأنى للعامية أن تقوم مقام الفصحى وبهذا ترى أن الهجوم على الفصحى والدعوة إلى العامية ما هو إلا دعوة هدامة تهدف إلى القضاء على أهم مقومات الوحدة العربية وهي الدين المشترك واللغة المشتركة والتراث المشترك ولهذا بدأت بالدعوة لها أقلام استعمارية وحمل لواءها من أبناء العرب دعاة الإقليمية أو جهلاء الأمة أو عملاء الاستعمار.[١١]

ومع تطور العرب الحضاري تجد أن الفصحى أخذت تسترد مكانتها لتعود لغة الأدب والعلوم والحضارة وهي اليوم يترجم إليها وبها كل علوم العالم ولم يحدث أن ضاقت عن التعبير عن أي علم أو مادة، وأنت ترى اليوم كل صحفنا ومجلاتنا وكتابنا يكتبون بالفصحى،

والفصحى ميسرة يفهمها كل أبناء العروبة والإسلام ومما يعني لك أن تلك الدعوة الظالمة كانت صيحة في واد وإن تركت بعض آثارها في مسارحنا أو مدارسنا أو مجتمعاتنا.

ولم تكن هذه الوقفة للغة الفصحى لو لم يكن هناك قرآن وإسلام يقول أحد المؤرخين المعاصرين: « إن الإنجليز حين أعادوا إلى مصر تجربتهم التي نجحت في الهند وهي نشر اللغة الإنكليزية حتى تكون لغة التخاطب، ففرضوا التدريس بها، لم يقف في وجههم إلا الإسلام الذي يقدس العربية في حين كان الطريق ممهداً في الهند التي لم تكن لها لغة مقدسة »[١٢].

ب- الحرف اللاتيني والحرف العربي:

كانت الفرية الثانية لهؤلاء المستعمرين هي دعوتهم العرب إلى استخدام الحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي، ودللوا على رأيهم بنجاح تركيا في ذلك والحقيقة أن تركيا لم تنجح في ذلك وإنما نجح الاستعمار في القضاء على العربية لغة المسلمين في تركيا ونجح مصطفى كمال في جعل روح الأوربيين وعاداتهم تسري في الأتراك وهذا ما طمع فيه أعداء الإسلام، بأن تغزو المدنية الغربية أفكار المسلمين، وها هو بروكلمان المستشرق الألماني يعبر عن فرحته في اختفاء اللغة العربية من أصوات المؤذنين بالصلوات حيث أمرهم الطاغية أتاتورك أن يرطنوا بالتركية ويسمي بروكلمان هذا الفعل حرية (من ذلك الحين صار المؤذنون أيضاً يؤذنون للصلاة باللغة التركية ليس هذا فحسب بل إن

الحرية الدينية أدت إلى اعتناق عدد من الأتراك النصرانية سنة ١٩٢٣ وهو عمل كان القانون الإسلامي القديم يعاقب عليه بالقتل)[١٣] هذه هي الحرية إذن ـ في مفهوم بروكلمان ـ أن يترك الأتراك المسلمون لغة قرآنهم وإسلامهم ليسهل على المستعمرين تنصيرهم وتغريبهم لغةً وحضارة وتراثاً وفكراً، ولا أدري لماذا بقي بروكلمان نفسه يكتب بالعربية ويخرج المخطوطات وكتب الأدب والتراث، ولماذا بقي يهتم بتاريخ وأدب العرب، لعله يريد أن يخادعنا فيجعل من نفسه قيماً على تراث العرب في الوقت الذي يصدح فيه لإلغاء العربية في تركيا وتنصير بعض أهلها. ولعل هذا بالذات ما اكسبه رضا الكنيسة عنه والدعاية الكبيرة التي سارت له في البلاد في حين زميله ـ ريسكه ـ لم يمنح حتى كرسي في جامعة ولا مدرسة ثانوية.

وقد ذهب علماء الغرب الأوربيون إلى أن الحروف العربية والأوربية نشأت من أصل واحد هو الكتابة الفينيقية القديمة، وأن اليونانيون أخذوا حروف الكتابة عن قدماء الفينيقيين ثم أدخلوها أوروبا بعد أن أحدثوا فيها تغيرين: الأول كتابتها صارت من الشمال إلى اليمين، والثاني: زيادة الحركات على الحروف وجعلها حروفاً مستقلة بذاتها. أما الكتابة العربية فقد احتفظت لذاتها بالخصائص الشرقية فكتابتها من اليمين إلى اليسار والحركات فيها لاتعتبر حروفاً منفردة بذاتها. وعلى مذهب الأوربيين إذاً تكون حروفهم صنواً مشوهاً للحروف العربية.[١٤]

وقد زعم المستشرقون وجود صعوبة تعلم اللغة العربية وزين لهم غرورهم الخروج على قوانينها وضغطوا بجهودهم لاستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني ونشر العاميات ليخففوا العناء الذي يلقاه جند التبشير والاستعمار في تعلم العربية.

والحقيقة أنه لا مجال إلى الجمع بين العربية وهي لغة سامية وبين اللغات الهندية الأوربية لا في النطق ولا في الكتابة ولا في البيئة. والعجيب أن هؤلاء الدعاة الذين دعوا إلى الحرف اللاتيني لم يقصدوا العبرية (وهي لغة سامية ميتة وأغلب أهلها يعيشون في بيئات أوربية وأمريكية) لم يقصدوا العبرية ببعض ما قصدوا العربية من شرور، فإذا كان في الحرف اللاتيني خير لنا كما يزعمون فلما لم يبشروا به بين اليهود الذين أنشؤوا لهم دولة في أرض غيرهم فأحيوا حروفهم العبرية الميتة ولم يستخدموا الحروف اللاتينية؟ والجواب هو أن الدول الاستعمارية أرادت للصهيونية القوة والحياة وأرادت للعرب الفشل والموت.

وقد تولت جريدة «لاسيري الفرنسية في بيروت سنة ١٩٢٢ أول الاحتلال الفرنسي، تولت الدعوة إلى الحرف اللاتيني وضربت أمثلة من شعوب أعجمية حاولت هذه المحاولة في أذربيجان وأنقره. ونسيت تلك الجريدة أن التركية والأذربيجانية والأرمنية ليست إلا فروعا من أسرة اللغات الهندية الأوربية (السنسكريتية) فهي بعيدة عن السامية.

كما أن الحروف اللاتينية غير ثابتة اللفظ فالشعوب التي تفرعت لغاتها عنها كالفرنسيين والإنكليز والإسبان والإيطاليين والبرتغاليين. كل شعب يلفظ الحروف بصورة مختلفة عن الآخر أما نحن فتأتينا رسالة من مراكش أو الهند فنقرؤها كما كتبها صاحبها، بل نحن مازلنا نقرأ شعراً من شعر الجاهلية منذ ١٥٠٠ سنة فنلفظ كلماته كما لفظها قائلها، أما العامية فلا يضبط لفظ كلماتها لا اللاتينية ولا سواها.

زد على ذلك أن حروف اللغات اللاتينية مفككة بعضها عن بعض كأنها مسمارية بينما الكلمات العربية يلتصق أكثر حروفها وهذا الالتصاق قد يجعلها كتلة واحدة وكأنها كتابة اختزال ولأجل هذه الميزة الاقتصادية (العربية تحتاج إلى ورق أقل عند الكتابة من اللغات الأوربية) اختارتها منظمة الزراعة ذات عام لتكتب بها مطبوعاتها جميعاً. ثم إن اللغة بألفاظها وكتابتها تحفظ معانيها وقومية المتكلمين بها فهل يجوز أن نترك الكنوز المحررة بها لنرضي بعض المستشرقين؟ وهل يقبل هؤلاء أن نعرض عليهم ترك حروفهم واتخاذ حروفنا لتضبط ألفاظهم بها؟ ومن العجيب أن يرد على فرية صعوبة اللغة العربية المستشرق الفنلندي يوحنا كرسكو في مقالة أرسلها إلى مجلة المجمع العلمي العربي عام ١٩٢٤م نفى فيها أوهام الأوربيين في صعوبة تعلم العربية فقال: «وأما تعلم الحروف العربية وكتابتها فأسهل من تعلم الحروف الأوربية وكتابتها» وعرض هذا المستشرق إلى مقابلة أجراها ـ مرجليوث بين اللغة العربية والإنجليزية فقال: «وليس لنا من وسيلة البتة غير هذه الأوهام ـ الأوربية ـ أو بالأحرى (الإنجليزية) إلى فهم كلام مرجليوث في

جامعة لندن في صيف ١٩١١ فإنه قرأ حينئذ بياناً عن اللغة التي يجب أن تكون شائعة لتفاهم شعوب العالم كله، وانتهى إلى وجوب اتخاذ الإنكليزية واسطة لإدراك هذه الغاية فقال: «إنه لو تساوى عدد المتكلمين باللغة العربية وعدد المتكلمين باللغة الإنكليزية، لوجب تفضيل الإنكليزية على العربية لأن فيها استعمال الحركات والحروف الكبيرة C. B.A وa-b-c- وهي مزية تجعل الصحيفة الإنكليزية أوضح من العربية وأبين». فيعقب عليه المستشرق الفنلندي: «نعم نعم أيها الأستاذ، إن صحيفتك الإنكليزية أوضح وأبين لجيل الإنكليز والأوربيين أيضاً، وأما للعرب والهند والفرس والترك فالصحيفة العربية أظهر وأجلى، وإن أبيت إلا المكابرة فعليك برجل صيني لا ضلع له مع أحد منا وهو يفتيك في حقيقة الأمر فتعرف حينئذ أي الصحيفتين أوضح وأجلى»(١٥).

وكتب أستاذنا الكبير - سعيد الأفغاني ذات يوم (كنت والأستاذ محمد كرد علي في حديقة داره وإذ يدخل علينا زائر طاعن في السن يمشي بصعوبة وقدمه لي الاستاذ كرد علي. بأنه مرجليوث - وعرفه بي فهز رأسه وبدأ مرجليوث حديثه مباشرة: «إن حكومته - وزارة المستعمرات البريطانية - قد أوفدته بمهمة من لندن ليبيت ليلة في دمشق وثانية في القدس ليحط في الثالثة في مطار طهران على موعد مع الشاه. ما هي الغاية المستعجلة لهذا العجوز؟ الغاية هي قوله لكرد علي: «ما الذي أبطأ بالبلاد العربية عن الاقتداء بتركيا في اتخاذ الحروف اللاتينية ولم أضاعوا على أنفسهم هذا الرقي الباهر؟» فأجاب كرد علي بلطف بأن هذه الفكرة وراءها أضرار على العرب لا تحصى وأن الأتراك

أنفسهم أضاعوا مركزهم في الشرق بتبديل حروفهم، فماري مرجليوث مع كل ما سمع. وقال: « إن أمله وطيد في أن يحذو الشاه حذو أتاتورك، وأن العرب لا يحملهم على تغيير كتابتهم إلا حاكم قوي مثل أتاتورك»[١٦].

قاتل الله هؤلاء القوم ألم يكفهم أنهم استولوا على بلادنا فاستعمروها ونهبوا خيراتها وصرفونا عن كتاب الله وعن الإسلام وأدخلوا بيننا الخلاعة والعري باسم المدنية وسلبوا حضارتنا فصرنا عالة عليهم. حتى راحوا يرومون اليوم إلحاقنا بلغتهم وبلسانهم. ومرجليوث عاتب علينا لأننا إذا لم نقبل ذلك فقد ضيعنا فرصة حضارية كبيرة لا تعوض. ولا أدري ما هذه الغيرة التي عصفت بمرجليوث وبوزارة المستعمرات حتى ترسل هذا الشيخ العجوز ليقترح ذلك الاقتراح هل هي الغيرة على قرآن المسلمين أو لغتهم، وحضارتهم؟ لقد عرفنا كرمكم أيها الإنكليز يوم أصدرتم وعد بلفور ١٩١٧ ووقف أحد السياسيين ليصف هذا الكرم قائلاً: « إن الإنكليز كرماء إلى درجة أن واحدهم يهبك القميص الذي يلبسه جاره» وها هو مرجليوث يطلع علينا في أخريات أيامه ليجود علينا بمكرمة الإنكليز الثانية، فبعد أن ساعدوا على ضياع أرض فلسطين هاهم يلاحقوننا في البلاد العربية لنتخلى لهم عن لغتنا باسم الرقي والحضارة. ولكن مرجليوث نسي أن يقول لنا كيف سنقرأ القرآن عندئذ، لعله يريد أن نقرأه عندئذ بخمسين أو مائة لغة مترجماً. وعندها نصل إلى قمة الحضارة والمدنية كما وصف بروكلمان الأتراك بعد أن تخلوا عن الحرف العربي. قاتلهم الله أنى يؤفكون وقد تركت

حملة مرجليوث هـذه أثرها على شخصيات عربية تأثرت بها فهب القاضي الكبير عبد العزيز فهمي يدعو مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٤٣ إلى الأخذ بالحرف اللاتيني، واستمر الجدال في مجمع اللغة ثلاث سنين متكاملة انتهى برفض الدعوة وأسقط في أيدي هؤلاء المستعربين، وخسر هنالك المبطلون.

ج. خرافة صعوبة القواعد والإعراب:

يقول المرحوم الأستاذ سليم الجندي أيام الاحتلال الفرنسي لدمشق: [هبط المستشرق ماسينيون دمشق أوائل الاحتلال فاتصل بمعارفه من أعضاء المجمع اللغوي فألقى إليهم: « إن إهمال الإعراب ييسر تعليم اللغة على الأجانب ويكون في الوقت نفسه تجديداً يليق بمؤسسة كالمجمع اللغوي». فناقشه البعض وسكت الآخرون. وعرف الفرنسيون ألا جدوى من هذه المحاولة في سوريا، فعدلوا خطتهم بألا تكون الحرب كفاحاً وجهاً لوجه وإنما عن طريق ترداد شبهات أخرى منها ـ صعوبة الإعراب إلى أن دسّ أحدهم ـ وعلى غفلة من المجمع ـ مقالة عنوانها (أقرب الطرق إلى نشر الفصحى) وردد مقولة تفضيل العامية وأنها اختزال للفصحى، والجديد عند هذا الكاتب ـ كما يقول الأستاذ الأفغاني ـ هو اللعب بالتاريخ والافتراء على حديث رسول الله ﷺ حين حمله على نصرة هذه الدسيسة الأجنبية التبشيرية فقال في نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن التشدق والتقعر:

«وماذا عساه يكون أسلوب التكلف والتشدق المنهي عنه سوى الذي يمط به المتكلم صوته ويحرك شفاهه بحركات الإعراب؟ وهذا تطوع لتأييد الافتراء بتزييف التاريخ وتزوير المعاني على الألفاظ ومصادمة البداثة، وهو تطوع عجيب غريب»[١٧]. وانتهى هذا الكاتب الألمعي إلى أن «في إلحاق علامات الإعراب بالجمل التي تتألف منها أحاديثنا ومحاولاتنا تفريطاً في الوقت وتضييعاً له . وفي عدم مراعاتها توفيراً للوقت وحرصاً عليه». ولا ندري هل هو بهذا يخدم اللغة العربية أم الفرنسية، والعجيب بعد ذلك أن هذا الكاتب منح وسام ـ اللجيوردونور ـ الفرنسي . ولم يمنح الوسام العربي.

إن الدور التخريبي الذي يقوم به هؤلاء المستشرقون صار أوضح من أن يشك فيه، فهذا ماسينيون نفسه يصرح: بأننا «لم نبحث في الشرق إلا عن منفعتنا، لقد دمرنا كل ما هو خاص بهم وقد دمرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأدبهم».

أبعد هذا دليل نريد أن نتخذه عذراً لأولئك القوم فنصدق افتراءاتهم، فقد تواعدوا على تدمير لغة القرآن والإسلام للقضاء على المسلمين فكراً وحضارة وتراثاً وقد شهد ـ أعداء اللغة العربية ـ بما تحمل من مقومات التوحيد وأساليب البيان، يقول يوهان فك: «إن لغة القرآن تختلف اختلافاً غير يسير عن لغة الشعر السائدة في الجزيرة فلغة القرآن تعرض ـ من حيث هي أثر لغوي ـ صورة فذة لا يدانيها أثر لغوي في العربية على الإطلاق، ففي القرآن ولأول مرة في تاريخ اللغة

العربية يكشف الستار عن عالم فكري تحت شعار التوحيد لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة إلا نموذجاً واهياً من حيث وسائل الأسلوب ومسالك المجاز في اللفظ والدلالة»[(١٨)] .

هذه هي اللغة العربية التي حملت مع الأيام بذور وحدة الأمة العربية كلما عصفت بها الخطوب وناوشها الجبابرة، وتعدى ساحتها اللئام، بل هي تحمل من دواعي الأصالة والثبات والكمال ما يجعلها لغة عالمية، فلها خصائصها التي فاقت كل لغات العالم ، لفظاً وكتابة وعقيدة، ولأجل هذا سل المستشرقون حرابهم لطعن هذه اللغة من أجل الاستيلاء على أبنائها، فطالما لغتهم في أمان وسلام فوحدتهم قائمة وعقيدتهم محفوظة، فإذا انهار جدار هذه اللغة وقضي عليها بنشر عاميات الأقطار العربية أو باستبدال الحرف العربي باللاتيني أو بالدعوة إلى الإصلاح والتجديد عن طريق تيسير العروض وتيسير التعريب، فذلك هو مطلب الاستعمار وغايته، يقول عباس العقاد: « والتيسير مطلوب لذاته حيثما تيسر ويجب أن نعلم أن الكتابة والنحو والعروض والتعريب هي جميعاً في أصل وضعها تيسير لمطلب لم يكن باليسير، فتيسير الكتابة بالنقط تارة والشكل تارة أخرى أعظم كلفة وأبعد أمداً مما نتكلفه الآن لتيسير الرسم والهجاء، وتيسير أشكال الكتابة والطباعة. أما النحو ففي أساسه صناعة تيسر كسب السليقة والعروض كالنحو في تيسير الملكة المطبوعة بوسائل الصناعة ويلحق بها التعريب في إجرائه للكلام الأعجمي مجرى الكلام العربي بلفظه أو بمعناه. [(١٩)] ولكن التيسير لا يتيسر على غير قاعدة وإنما هو جهد ضائع لا تعرف له حدود إذا أخطأ الوجهة من

فاتحة الطريق، ومن علامات الانحراف أن يحسب المجددون أنهم ينتهون يوماً إلى كتابة لا تحتاج إلى التعليم أو كتابة تكفي وحدها لتيسير القراءة الصحيحة بمعزل عن اللغة أو بلغة خالية من القواعد والأصول التي يجتهد فيها المعلم والمتعلم في كل مراحل التدريس. .

وقد تجسمت علامات هذا الانحراف في قول أحد الفرقاء: أنه يتمنى أن تصبح اللغة العربية كاللغات الغربية يقرؤها الطالب المبتدئ كما تكتب بغير الحاجة إلى الحفظ والاستذكار، وهذا الفريق ينظر إلى صعوبات اللغة العربية فلا يراها في اللغات الأجنبية فيحسب أن هذه اللغات خلو من جميع الصعوبات وهو يجيز ما نراه بالنظر إلى الأبجديات الأوربية وهي ثلاث: اللاتينية والغوطية والكليرلية "ولا يتفق لها نطق الكلمة المكتوبة على ألسنة أمتين ولو كانت لهما أبجدية واحدة من هذه الأبجديات الثلاث.

ويدلل العقاد على رأيه هذا بالحديث عن كتابة الأعلام: فاسم جيمنيز مثلاً ينطق بالخاء في الإسبانية وبالياء في الألمانية وبالجيم المعطشة في الإنكليزية واسم Guilliam تنطق جليوم بالألمانية وجيوم بالفرنسية ووليام بالإنكليزية.

أما حروف اللغات اللاتينية فمنها ما يلفظ على خمسة أصوات كحرف T الذي ينطق تاء في كلمة To وثاء في كلمة Think وذالاً في كلمة This وشيناً في كلمة Montion وسينا كما في هذه الكلمة بالفرنسية. وحرف s يقرأ زاياً في كلمة is وصاداً في كلمة Salt وشيناً

في sure وجيماً معطشة في كلمة pleasure، كما أن بعض حروف العلة تجتمع فتنطق على أربعة أصوات كما في هذه الكلمات BlooD- Door- Food- Moon.

أما قواعد النحو والصرف في اللغات اللاتينية فالطالب مضطر إلى حفظ مئات الأفعال الشاذة عن التصريف بين المضارع والماضي واسم المفعول، وإلى حفظ مئات الأسماء لشذوذها عن قواعد الجمع وإلى حفظ مئات الظروف والصفات لأنها لا تجري على قاعدة مطردة في اشتقاق الصفة والظرف من الاسم أو من الفعل أو من صفة أخرى. .

كما أن طريقة الإنكليز في ـ نجلزة ـ الأعلام والكلمات فهي أصعب من طريقتنا في التعريب فمن ضياع الجهد إذن أن نحاول التيسير بمحاكاة الأبجدية الأوربية، أو بمحاكاة قواعدها في التركيب والاشتقاق والإعراب، ولا بد أن نسلم أن معرفة الحروف وقواعد الإملاء لا تغني الطالب عن الحفظ والاستذكار.

تلك هي الدعوة الظالمة التي غزا بها هؤلاء المستعمرون بلادنا وجندوا أنفسهم من أجل ذلك وتبرعوا بأوقاتهم وتطوعوا لوجه الله والمسيح على أن يحولونا عن لغتنا الفصحى لغة القرآن ويقول العقاد واصفاً هذه اللغة: «وإذا قيس اللسان العربي بمقاييس علم الألسنة فليس في اللغات لغة أوفى منه بشروط اللغة في ألفاظها وقواعدها، ويحق لنا أن نعتبر أنها أوفى اللغات جميعاً بمقياس بسيط واضح لاخلاف عليه، وهو مقياس جهاز النطق في الإنسان».

فاللغة العربية تستخدم هذا الجهاز على أتمه وأحسنه ولا تهمل وظيفة واحدة من وظائفه كما يحدث ذلك في أكثر الأبجديات اللغوية، ولم يحدث لأبجدية أخرى غير الأبجدية العربية أنها جربت زمناً طويلاً في كتابة اللغات من كل أسرة لسانية فلم تقصر في هذه التجربة عن شأو الأبجديات الأخرى. إذا كتبت بها العربية والفارسية والتركية والأوروبية والإسبانية. [٢٠] وبهذا ترى أن لغتنا كاملة لا نحتاج معها لا إلى الحروف اللاتينية ولا إلى تيسير الإعراب ولا إلى اللغة العامية فهي تملك مقومات بقائها واستمرارها وتحديها. أليست هي لغة القرآن فقد حفظت بما حفظ به الذكر الحكيم.

ولا نملك في آخر هذا الفصل إلا أن نعرض رأي أحد العلماء الألمان في وصف هذه اللغة ودورها الكبير على العرب: « إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي لهذه الحقيقة الثابتة وهي أنها أقامت في جميع البلدان العربية وما عداها من الأقاليم الداخلية في المحيط الإسلامي رمزاً لغوياً يؤكد وحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية »[٢١].

***

مراجع الفصل الرابع

(١) كتيب: رواد الوعي الإنساني في الشرق العربي ـ د. عثمان أمين ـ سلسلة المكتبة الثقافية

(٢) كتاب محمد عبده ـ عباس محمود العقاد سلسلة أعلام العرب.

(٣) مجلة رسالة الجهاد عدد ٨٢ـ مقال الاستشراق الأدبي للأستاذ شلتاغ عبود.

(٤) كتاب الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام... من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي في جامعة محمد بن سعود ـ الرياض ١٩٨١/

(٥) كتاب العرب واليهود في التاريخ د. أحمد سوسة ـ ط٦ـ العربي للاعلان والنشر والطباعة.

(٦) مجلة رسالة الجهاد عدد ٧٨ ـ مثال ـ الدعوة للعاميات في العصر الحديث. د. عبد الله علي مصطفى.

(٧) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ١٩٨١ـ مقال بقلم د. علي عبد الرحيم محمود

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) كتاب من حاضر اللغة العربية ـ لأستاذنا سعيد الأفغاني ط ٢ دار الفكر ١٩٧١.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) كتاب ــ الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ــ مقال د. عبد الستار فتح الله سعيد.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) من حاضر اللغة العربية ــ سعيد الأفغاني ط ٢ دار الفكر ١٩٧١.

(١٥) المصدر نفسه ص١٨٣.

(١٦)المصدر نفسه ص١٨٤.

(١٧) المصدر نفسه ص١٩٤.

(١٨) مجلة رسالة الجهاد عدد ٨٩ مقال أحمد بن نعمان ــ علاقة اللغة بالدين.

(١٩) كتاب ــ أشتات مجتمعات ــ عباس العقاد ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) مجلة رسالة الجهاد عدد ٨٤ مقال د. أحمد بن نعمان ــ مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية.

الفصل الخامس

القرآن الكريم ليس سجع كهان

لما كان كتاب الله عز وجل هو دستور المسلمين الذي تقوم به وعليه حياتهم، وبه صلاح شؤونهم في الحياة، واستقامة أحوالهم في الوجود. ولما كان رسول الله ﷺ هو المشرع والشارح لذلك الدستور الحكيم والمجلّي له والمفسر لمجمله، ولما كان هؤلاء المستشرقون والحاقدون يصرون على أن يقضوا على رسالة الإسلام اعتداداً بعصبية بغيضة، وانتصاراً لهزائم سابقة حلت بهم على يد المسلمين أو بعثاً لصليبية مضى عليها ألف عام أو حقداً على هذا الدين الذي يدخل القلوب من غير استئذان. لكل ذلك تداعى هؤلاء الحاقدون وأجمعوا أمرهم على ألا نصرة لهم على الإسلام إلا بتحطيم معاقله من الداخل، ولا تحطيم له إلا بالقضاء على القرآن الكريم وتشويه سنة النبي أو تأويلهما بما ليس فيهما من معان أو نسف هذا القرآن كلية بإخراجه عن أن يكون وحياً أوحاه الله إلى رسوله، أو عن طريق الطعن برسول الله ﷺ ونبوته وأزواجه وأخلاقه ورسائله إلى الملوك. وذلك عن طريق الشك في سيرته والطعن في نسبه وعشيرته هاشم، أو الادعاء بأنه كان مريضاً بالصرع، أو افتراء أسباب واهية وكاذبة تفسر جهر رسول الله ﷺ بالإسلام.

وهكذا ارتأى بعض هؤلاء الحاقدين أن القرآن الكريم ليس كلام الله وليس وحياً أوحي إلى رسول الله. وإنما هو خيالات تخيلها الرسول بسبب مرض أصابه، فليس له ـ في نظرهم ـ صفة كلام الله وأن رسول الله لم يتلق ذلك عن الله بل أخذه عن الراهب بحيرا أو سمعه من الكنائس أو بيع اليهود، وأن أحاديث رسول الله لم يقلها ـ إلا ما ندر ـ

وإنما وضعها الصحابة والمسلمون بعده في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة.

وأنت تعجب من هؤلاء المفترين على الله ورسوله كيف يجعلون لآرائهم قدسية بزعمهم بأنهم يتبعون المناهج العلمية والدراسة الأكاديمية وكل ذلك لحرف المسلمين عن تعاليم دينهم وقرآنهم ونبيهم. ونحن وإن كنا لا نؤمن بكل ما قالوه من دسائس وافتراءات إلاّ أن ذلك لا يمنعنا أن نهدم كل ما بناه هؤلاء من بنيان على الدس والتشويه، وأن نواجههم الحجة بالحجة ونكيل لهم الصاع صاعين، فقرآننا علمنا أن الوحدانية ليست فرضاً على العباد دون عقل وعلم، بل علمنا أنه لا يجوز إيمان المقلد إلا والحجة معه «قل هاتوا برهانكم» ولهذا فليس لنا أمام ادعاءات هؤلاء القوم أن نتغاضى عنها فحسب ولكننا نملك أن نجابههم ونبدي عوارهم وفساد آرائهم وخطل تفسيراتهم فقد يكون البعض منهم قد جُر برأي ارتآه من سبقه من المستشرقين وبنى عليه فجاء قوله «ضغثاً على إبالة» (١).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقراءة بعض المسلمين لمثل تلك الآراء قد تؤدي إلى إفساد عقيدتهم أو شكهم في قرآنهم أو سيرة نبيهم مما يؤدي إلى إفساد دينهم كلية، فمقارعة الحجة بالحجة عندئذ من الضرورة بمكان لحماية عقول شبابنا من أن تتسرب إليها تلك الآراء دون معرفة العيب فيها والدس والتشويه في ثناياها.

وقبل كل شيء عليك أن تعلم علم اليقين أن هؤلاء المستشرقين إنما تآمروا فيما بينهم وأقسموا أن يحرفوا الإسلام تحريفاً لا يبقى فيه مجال لمسلم يوقن أنه دين صحيح. كما تآمروا أن يحرفوا ويشوهوا سيرة نبينا تشويهاً لايبقى فيه مجال للمسلم ليوقن أنه رسول الله.

ولذلك لم يشكوا برسول الله مباشرة بل ادعوا أنه عبقري وأنه ذكي وهذا يصلح على غيره من البشر، كل ذلك ليزيلوا عنه قدسية النبوة وينقصوا من هيبته وكرامته في نظر المسلمين وعند زعمهم أنهم لم يبخسوه حقه، ولكن حقيقة الأمر أنهم أرادوا أن يبعدونا عن كل ما يمس هذا النبي من صفات النبوة والقداسة والوحي والرسالة بادعاء العبقرية والذكاء والفطنة، وغيرها من التأويلات التي يجدون فيها مطعناً في صحة نبوته ﷺ.

ومن المؤسف أن يردد أقوالهم كثير من كتابنا المسلمين بحجة أنهم يجرون على الطريقة العلمية أو يقومون بما يسمى بالإصلاح الديني، أو أنهم يكتبون السيرة النبوية على ضوء لمذاهب الحديثة في كتابة التاريخ فيما يسمونه ـ بالمذهب العلمي ـ أو الطريقة الموضوعية ولا يرى هؤلاء بأساً من أن يقحم المؤرخ نزعته الذاتية أو اتجاهه الفكري والديني والسياسي في تفسير الأحداث وتعليلها والحكم عليها. بل يرون ذلك هو واجب المؤرخ، وهذا لمذهب للأسف قد أصبح أساساً لمدرسة جديدة في دراسة السيرة النبوية وفهمها عند بعض الباحثين.

وقد كان لتفشي هذا المذهب في دراساتنا الإسلامية أثر بليغ وهو الفصل بين المسلمين ومقدساتهم عن طريق أبنائهم وكتابهم ، وتلك خطة وضعها الاستعمار البريطاني في مصر والفرنسي في الجزائر فعملوا على إصدار بعض من قادة الفكر في مصر لمثل تلك الآراء بحجة أن الغرب لم يتحرر من أغلاله إلا يوم أخضع الدين لمقاييس العلم، فالدين شيء والعلم شيء آخر. ولا يتم التوفيق بينهما إلا بإخضاع الأول للثاني .[٢]

وإذا كان العالم الإسلامي حريصاً حقاً على مثل هذا التحرر فلا مناص له إلا أن يسلك نفس طريق الغرب في دراسته للنصرانية ولا يتحقق ذلك إلا بتخلص الفكر الإسلامي من سائر الغيبيات التي لا تفهم ولا تخضع لمقاييس العلم، وأبرز هؤلاء الذين أخذوا بهذا الرأي هو د. محمد حسين هيكل في كتابه ـ حياة محمد ـ إذ صرح عن اتجاهه في دراسة السيرة: « إنني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة والحديث لأنني فضلت أن أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية » ومثل ذلك فعل المرحوم محمد فريد وجدي وغيره. فنقرأ عندهم تمجيداً لشخص محمد ﷺ ولعظمته وصفاته ولكن بعيداً عن كل ما ينبه القارئ إلى شيء من معاني النبوة أو الوحي في حياته وبعيداً عن الاهتمام بالأسانيد والروايات التي قد يضطرهم الأخذ بها إلى اليقين بأحداث ووقائع ليس من صالحهم اعتمادها[٣].

وبهذا أوجد هؤلاء الكتاب في اتباع ذلك المذهب طريقة لنبذ ما لا يعجبهم من حقائق السيرة النبوية مهما جاءت مدعومة بدلائل العلم واليقين، ولهذا اضطرهم مذهبهم إلى تأويل كل خارقة ومعجزة مما جاء

به متواتر السنة تأويلاً متكلفاً بعيداً عن الحقيقة وبما يجعل من المعجزة حدثاً عادياً ينسجم مع الغرض الذي وضعوه . وبهذا أولوا ـ الطير الأبابيل ـ على الرغم من أنف الآية ـ بمرض الجدري. وأوْلوا الإسراء والمعراج بأنه سياحة الروح وعالم الرؤى، والملائكة في غزوة بدر بالدعم المعنوي الذي أكرم الله به المسلمين وحسبك ما رد به العلامة حسين الجسر على هؤلاء: « إننا لا نجيز تفسير كل الآيات التي فيها ذكر المعجزات تفسيراً طبيعياً علمياً لأننا نفقد المعجزة بهذا التفسير معناها وسرها وقيمتها ونقف بالشخص الذي نريد أن نرضي عقله عند معجزات يستحيل تفسيرها من طريق العلم فنجعله في ريب ونرجع به القهقرى إلى الإنكار والشك من حيث لا ندري، فإذا استطعنا تفسير الطير الأبابيل بميكروب الجدري فبماذا نفسر عصا موسى التي انقلبت حية تسعى؟ وإن فسرناها بالمد والجزر ـ كما زعم بعضهم ـ فبماذا نفسر خلق عيسى من غير أب؟ وإن أخذنا بتفسير بعض السخفاء لهذا الحمل ـ بأنه من طريق التلقيح الذاتي الذي يمكن حصوله ـ على زعمهم ـ عند بعض الخناثي . فبماذا نفسر تكلم عيسى في المهد. »[٤]؟

وآخر تلك المضحكات ـ كما يقول أستاذنا البوطي ـ هو ما فسروا به نبوة النبي ﷺ وإيمان الصحابة وعموم الفتح الإسلامي بأن جميع ذلك لم يكن إلا ثورة يسار على يمين، أثارتها النوازع الاقتصادية انتجاعاً للرزق وطلباً للتوسع وألهبتها ردود الفعل لدى الفقراء ضد الأغنياء. وقد غاب عن هؤلاء مخاطر مثل هذه الطريقة في الدراسة وما فيها من نسف لعقيدة المسلمين من جذورها، وتفريغ الإسلام من

حقائقه الغيبية لأن الوحي الإلهي ـ وهو ينبوع الإسلام ـ يعد قمة الخوارق والحقائق الغيبية كلها، ولا ريب أن الذي يسرع إلى رفض ما قد جاء في السيرة من خوارق العادات بحجة اختلافها عن مقتضى سنن الطبيعة ومدارك العلم يكون أسرع إلى رفض الوحي الإلهي كله بما يتبعه من أخبار عن النشور والحساب والجنة والنار. [٥]

وإذا نظرنا في الشروط التي وضعها هؤلاء العلماء الأوربيون للتحقق من صدق خبر ما فنجد أن العالم التجريبي دافيد هيوم يقول: «لا بد من أن يشترط كل إنسان عاقل يحترم العقل والحقيقة لقبوله أي خبر سواء تضمن أمراً خارقاً أو مألوفاً شرطاً واحداً هو أن يصل ذلك الخبر إليه عن طريق علمي سليم ينهض على قواعد الرواية والإسناد ومقتضيات الجرح والتعديل بحيث يورث الجزم واليقين». [٦]

وإذا نفينا الوحي والنبوة اعترضتنا عندئذ ألغاز كثيرة في ديننا، مثل: كيف تم الفتح الإسلامي بهذه السرعة ومن بدو وأعراب مسلمين وبسيوف قديمة؟ ولغز آخر، كيف ظهر هذا التشريع والقانون الإسلامي متكاملاً من نبي أمي وقبل أن تنمو أية ثقافة أو مدنية أو حضارة؟.

وألغاز أخرى تاريخية تنبأ القرآن بها، وأخرى علمية ما زال العلم يكتشف بعضها، وبعضها الآخر في ظهر الغيب. إذاً فليس المقصود من نفي الوحي والنبوة إلا زيادة الإرباك والاضطراب في هذا الدين وتشكيك المسلمين في دينهم لينتهوا إلى ما انتهى إليه هؤلاء النصارى بهجرهم الدين أولاً ثم الفصل بين الدين والدولة ثم السير وراء فلسفات ومذاهب بشرية حولت الإنسان إلى حظيرة البهائم.

فماذا قال هؤلاء المستشرقون من مطاعن في كتاب الله. . . ؟

أول هؤلاء ـ ماكدونالد ـ وقد ادعى: «أن القرآن من وضع محمد ﷺ يزيد فيه وينقص بحسب ضرورات السجع في الكلام. . ومن حسن التوفيق أن لوازم السجع حملته على وصف الله بعدة صفات يتردد ذكرها كثيراً في القرآن ويتبين شغف محمد بهذه الصفات وشدة تمسكه بها، وكانت الفطرة السليمة هي التي دفعت بالمسلمين بعد محمد إلى جمع هذه الصفات وتقديسها». أي أن القرآن من وضع محمد ومن جمع صحابته وليس وحياً أوحى الله به إليه.

الرد على هذه الفرية:

قبل أن نخوض في الرد على ماكدونالد فريته تلك لا بد أن نشير إلى السجع ومكانته وقيمته واستخدامه في كلام العرب لنرى إلى أي مدى صدق ماكدونالد في فريته تلك. يقول د. شوقي ضيف: «اصطلح الكتاب منذ عصر المقتدر على أن يعمموا السجع في كل ما يكتبون واستمر ذلك من بعدهم وكان ابن العميد يسجع في كتابته وكان أول من احتكم إلى السجع في كتابته. وقد بدأ ابن العميد في رسالته الشهيرة أنه إنما يمضي على نحو من السجع والعناية بالبديع الذي يحفه السجع وطرف من الجناس والطباق والتصوير. وكأنها ثروة زخرفية هائلة». (٧)

أما قبل ذلك فقد كانت طائفة الكهان عند العرب في الجاهلية تدعي التنبؤ بالغيب ومعرفته وأنها تنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السمع، وكان العرب يفزعون إليهم لاستشارتهم في

الأمور الجلى كإعلان الحرب أو كشف قتل إنسان أو يطلبون منهم تعليل رؤاهم وأحلامهم. وقد كان بعض هؤلاء الكهان يسيطر على مجموعة من القبائل بكهانته ومن أشهرهم سطيح الذئبي وشق الأنماري. وقد روت كتب الأدب والتاريخ طائفة من أقوال هؤلاء الكهان وخطابتهم وكلها تلتزم السجع وما نشك أن أكثر ما روي عنهم مصنوع. (٨)

ولكن هذا لا يمنع أنهم كانوا يسجعون في خطابتهم وإلا لما استقر عند جميع من نحلوهم بعض الأقوال والخطب أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كهانتهم ومن ثم صاغوا ما نسبوه إليهم من كلام سجعاً خالصاً.

ولعل هذا السجع في كلامهم هو الذي دفع بعض المشركين من قريش إلى الظن بأن ما يتلوه الرسول صلى عليه وسلم من القرآن إنما هو من كلام الكهان. فرد الله عليهم ينقض دعواهم ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ [الطور: ٢٩] وقد جاء في الحديث النبوي أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قضى على رجل في حنين قتلت أمه بدية فقال الرجل أأغرم من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ، أليس مثل ذلك يطل (يهدر دمه) فقال رسول الله: « إنما هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذي سجع » وفي رواية قال له: « أسجعَ كسجع الكهان »(٩).

فهنا ترى اعتراض النبي وإنكاره سجع ذلك الرجل وما فيه من تكلف وتمحل لا تدعو له الضرورة.

فما هو هذا السجع في لغة العرب؟

يقول المرحوم أحمد الهاشمي (السجع هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير من النثر وأفضله ما تساوت فقره، ومنه أنواع: السجع المطرَّف: وهو ما اختلفت فاصلتاه[١٠] في الوزن واتفقتا في القافية (الحرف الأخير). كقوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ومثله قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

ومنه السجع المتوازي: وهو ما اتفقت فيه الفقرتان في الوزن والقافية كقوله تعالى ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ (لاختلاف سرر ـ وأكواب وزناً وتقفية) ومثله قوله تعالى ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا۝ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ (لاختلاف المرسلات والعاصفات وزناً فقط)[١١].

والأسجاع مبنية على سكون أواخرها وأحسن السجع ما تساوت فقره كقوله تعالى ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ۝ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ ثم ما طالت فقرته الثانية نحو ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ ثم ما طالت فقرته الثالثة كقوله تعالى ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج].

ولا يحسن السجع إلا إذا كانت المفردات رشيقة والألفاظ خدماً للمعاني وحينئذ يكون السجع حلية ظاهرة في الكلام (أي حلية لفظية) ولا يستحسن السجع إلا إذا جاء عفواً خالياً من التكلف والتصنع.[١٢]

فهل في كتاب الله عز وجل مثل هذا السجع المتكلف الذي نجده في كلام الكهان حتى يصح لنا أن نوافق ماكدونالد في فريته تلك فينسب القرآن إلى رسول الله؟.

نجيب على ذلك بأن القرآن الكريم كتاب الله وتنزيل من حكيم حميد وهو معجزة الإسلام الكبرى إذ لم يبلغ أي كتاب ديني أو دنيوي ما بلغه من روعة البيان والبلاغة ومس المشاعر وأسر القلوب سواء حين يتحدث عن عظمة الله وجلاله أو حين يشرع للناس ما فيه صلاح حياتهم أو عندما يصور الثواب والعقاب أو حين يقص علينا أخبار المرسلين. . فقد نزل في أسلوب لا يبارى في قوة حججه وبلاغة تركيبه. وقد نزل على رسول الله يوم بعثته في زمن كان أكثر العرب فيه شاعراً أو خطيباً، وأحكم ما كانوا لغة، فدعاهم إلى التوحيد والإسلام. فلما قطع العذر وأزال الشبهة بما أسمعهم من آيات بينات، وصار الذي يمنعهم من الإقرار ببلاغته وعظمته الهوى وحمية الجاهلية، نصبوا له العداء، وهو في ذلك ﷺ يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء إلى معارضته إن كان كاذباً بسورة واحدة أو آيات يسيرة فلما وضح له عجزهم عن ذلك قالوا أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال فهاتوا ولو سور مفتريات مثله، فلم يرم ذلك خطيب ولا يطمع فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه وظهر عجزه.

وكان العرب يستكينون أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة والبيان مما لم تعهدها لغتهم العربية من قبل، حتى جعلتهم يقفون مشدوهين بجماله مبهورين ببلاغته، مأخوذين بمعانية التي يسمعونها ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقد امتاز بأسلوب خاص ليس شعراً ولا نثراً مسجوعاً وإنما هو نظم بديع فصلت آياته بفواصل تنتهي بها وتطمئن النفس إلى الوقوف عندها. وقد تتنوع الفواصل بين طوال وقصار ومتوسطة بتنوع موضوعاته وتنوع المخاطبين. وقد عرف العرب سجع الكهان قبل نزول القرآن وعرفوا تكلف الكهان له وتمحلهم فيه، فلما استمعوا إلى كلام الله عز وجل وعرفوا بلاغته استسلم بعضهم لما فيه من روعة المعاني والبيان، وعز على الآخرين أن يسلموا بهذا الشرف ليتيم أبي طالب فوسموه بأنه كاهن والقرآن سحر يؤثر، ولكن القرآن الكريم لا حقهم بحججه البينات ورفض دعواهم تلك بدون دليل ـ تماماً كما سنرفض دعوى ماكدونالد بعد قليل ـ فطلب منهم أن يقلدوه في سورة أو سور حتى ولو كانت السور مفتريات ـ ليرى الفارق بين قولهم المفتعل وبين كلام العزيز الحكيم. فعجزوا عن ذلك فدل ذلك على تميز كلام الله وتفرده عن كلام المخلوقين. ﴿المر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١] وقد ذم ـ الجرجاني ـ الاستكثار من السجع والجناس فقال «فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحين تجده لا تبتغي به بدلاً ولا تجد عنه حولاً»[١٣]

ومن هنا كان أجمل الجناس أو السجع وأحقه بالحسن هو ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه أو ما هو لحسن ملاءمته وإن كان مطلوباً بهذه المنزلة. كما رآه الجرجاني أن يكون تابعاً للمعنى من غير تكلف (كما يفعل الكهان) بل يكون المعنى هو الذي طلبه. وهذا هو ما قصد إليه القرآن الكريم في المواضع التي وردت فيها الآيات مسجوعة. .

وسنعرض عليك مثالاً من كتاب الله لترى الفارق بين السجع الذي جاء فيه وبين سجع الكهان لتستطيع أن تحكم بنفسك أن ماكدونالد هذا لم يرد بفريته تلك إلا أن يعري كتاب الله أن يكون وحياً أوحاه الله إلى رسوله وليجعله من كلام هذا النبي فيزيل عنه صفة القداسة وكذلك فعل كثيرون غير ماكدونالد. ولهذا ترانا أطلنا قليلاً في عرض قضية السجع ليكون في ذلك رداً على هؤلاء جميعاً إذ راح لاحقهم يتلقف هذه الفرية من سابقيه ويكررها ظنا أنهم بهذا التكرار يثبتون أن القرآن سجع كله وأنه من كلام محمد ﷺ فيطعنوا هذا الدين في أقدس مقدساته. . !!.

يقول تعالى في مطلع سورة الفجر: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ فأنت ترى هذه الآيات اتفقت فواصلها: (الوتر - يسر - حجر) في حرف الراء واختلفت في طولها، وهذا ما يسميه البلاغيون السجع وهو حلية لفظية لا تحسن إلا إذا اقتضتها طبيعة الآية أو الموقف دون تمحل أو تكلف، فهل تجد في هذه الآيات شيئاً من هذا التكلف؟

يحسن بك أن تعرف أولاً أن هذه الآيات اقسام من الله عز وجل أقسم فيها بالفجر وطلوعه كل يوم وأقسم بالليالي العشر من ذي الحجة وبركتها على المسلمين وأقسم بكل ما خلقه الله شفعاً (زوجاً) أو فرداً (وتراً) وأقسم بالليل الذي يسري ويدور (بدوران الليل والنهار) وهي آية من آيات الله، وهذه أقسام أقسم الله تعالى فيها ليدلل لنا على عظيم قدرته وكشواهد على وجوده ووحدانيته فمن الذي يملك أن يطلع الفجر على الوجود بعد ليل دامس، ومن الذي يستطيع أن يخلق ليالي عشراً وما فيها من الخير والبركة، ومن الذي يستطيع أن يخلق كخلق الله (ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين) ومن الذي يستطيع أن يدير الشمس ليكون ليل ونهار. وأنت تحاول أن تتفكر في عظيم هذه الأقسام وعظمة هذا الخلق الذي خلقه الله وأنت تعايشه كل يوم وتحيا فيه، لا تملك أن تقف عند ظاهر الكلمات المسجوعة ـ بقدر ما تستوقفك هذه الأقسام العظيمة، إذ المعروف عن العرب أنهم لا يقسمون إلا بعظيم ولا يقسمون إلا لأمر عظيم، فتروح لتسأل نفسك لماذا أقسم الله لنا بكل ذلك فيأتيك الجواب: «هل في ذلك قسم لذي حجر» هل تكفي هذه الأقسام التي أقسم بها رب العزة والتي لا يقدر على تنفيذها أحد غيره. هل تكفي لأصحاب العقول دليلاً مقنعاً بالإيمان بوجود إله عظيم خالق. فقل لي أين يبقى السجع والمؤمن يتفكر في ثنايا هذه المعاني الربانية العظيمة. ألا ترى أن السجع هذا قد جاء رديفاً للمعنى متمماً له ليترك هذا الأثر النفسي والموسيقى الهادئ والذي تحمله «في آخر الفواصل» فعلى ضخامة ما أقسم الله به وعلى عظمة المقسم وهو الله جاء السجع ليخفف من وقع

الآيات في نفـوس المؤمنـين ـ وهـم المخـاطبون أولاً وحتـى لا تنفجـر نفس المؤمن حزناً وشوقاً إلـى اللـه الـذي يقسـم لـه علـى وجـوده وهـو (المؤمن) موقن بوجوده، وحتى يطيق تحمل هذه الأقسام العظيمة جـاءت قافية السجع(الراء) خفيفة هادئة لتمنحه هذا الهدوء النفسي فيمضـي إلـى تدبر معاني تلك الآيات فإذا سمع الاستفهام من الله. هل فـي ذلـك قسـم لذي حجر. صاح في داخل نفسه ـ وعيناه مغرورقتان بـالدموع ـ نعـم يـا رب يكفي هذا دليلاً على وجودك وعظمتك، بل إنك لتشعر بـأن المؤمـن في ثنايا نفسه ليقول « لقد آمنت بوجـودك يـا رب قبـل ذلـك ومـن غيـر قسم، وأنا أعلم أنه ما أقسمت به لا يقدر على خلق مثله أي بشر».

وهذا ما يدفعك لأن تعرف أن هذه الأقسام إنمـا أقسـم اللـه تعـالى بـها لـهؤلاء المعرضـين الملحديـن المتعنتـين لإقناعـهم بوجـود الله أمـا المؤمنون فقالوا (سبحانك مـا خلقـت هـذا بـاطلاً) تـرى هـل يشـبه هـذا السجع الذي أسمعناك إياه في كتاب الله، هل يشبه ما أورده الجاحظ فـي ـ البيـان والتبيـين ـ « فقـد روى مـن سـجع الكـاهن عـزى سـلمة قولـه: « والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء (الشمس) واقعة ببقعاء (موضع) ـ لقد نفر المجد بني العشراء (عشيرة من فزارة) للمجد والسناء (الرفعـة) »

ترى هل هذا السجع يملـك مـن الدلالـة والمعـاني والغـوص فـي أعماق القلوب ما تملكه آيات الله ألا ترى أن هذه الأقسام التي أقسم بها الكاهن عزى سلمة فيها أثر التكلف واضح وقارن بينها وبين قولـه تعـالى

(والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ) ألا ترى عندئذ أن سجع عزى سلمة يتهاوى أمام عظمة بلاغة كلام الله عز وجل.

ومن هنا أدرك هؤلاء العرب الجاهليون عظمة كلام الله فلم يجرؤ أحدهم أن يقيسه إلى كلام العرب، بل وحتى عندما وصفوه بالسحر والكهانة كانوا يتمنون أن يكون قد نزل على رجل من زعماء قريش (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) أفترى وهم أرباب البلاغة والفصاحة يرضون بأن يكون نزل القرآن على أحد عظيمي مكة إذا كان في أسلوبه يشابه أساليب الكهان، في وقت ملكوا فيه ناصية البيان شعره وخطابته.

وعوداً إلى فرية ماكدونالد والتي اتهم فيها القرآن الكريم بأنه (من وضع محمد يزيد فيه وينقص بحسب ضرورات السجع في الكلام. .) عرفنا قبل قليل أن أغلب النثر المسجع عند الكهان هو موضوع عليهم، وأن ما ثبت منه قبل الإسلام ـ وإن كان مسجعاً ـ كانت تغلب عليه صفة التصنع والافتعال والضحالة الفكرية فليس فيه كبير فكرة ولا عقيدة ولا دين وإنما هو يصور قضايا كان يلجأ فيها الناس إلى هؤلاء الكهان لحل مشاكلهم فكانوا يفتعلون ذلك النثر المسجع ويغرقونه برموز غير مفهومة حتى يبدوا أمام المتقاضين إليهم بأن عندهم علوماً وأسراراً لا يدركها غيرهم. وعرفت كذلك أن هذا النثر المسجع لا يقوم بشيء أمام النص القرآني والذي وإن وجد فيه السجع إلا أنه ضمن أسلوب قرآني

يملك على الإنسان مشاعره وأحاسيسه، وأعظم علماء البلاغة لم يستطيعوا أن يروا في القرآن أسلوباً يحاكي أساليب العرب فضلاً عن الكهان بل رأوا أسلوب القرآن متميزاً لا يمكن تقليده، ولو كان أسلوب القرآن يشبه شيئاً من كلام العرب لسارعوا إلى نقده وإلى تقليده بأساليبهم فلما عجزوا عن ذلك، ثبت عندئذ ـ وهم أرباب الفصاحة ـ أن القرآن فريد في أسلوبه ولغته ومعانيه ـ أفيعجز أرباب البلاغة من العرب وخطباؤهم وشعراؤهم عن تقليده ثم يطلع علينا ماكدونالد بفريته من أن القرآن من وضع محمد، يزيد وينقص فيه بحسب ضرورات السجع.

القرآن ليس سجعاً كله وإنما ورد فيه السجع في بعض المواضع بما يتناسب مع الموضوعات التي يتناولها والناس الذين يخاطبهم وقد رأيت أنه غير متكلف وإنما ناسب المعنى ونفخ فيه الروح، فكيف يزيد النبي محمد ﷺ في السجع وينقص، وفي أية موضوعات. لم يقل لنا ماكدونالد كيف تم ذلك وأين؟ وإذا كان القرآن أصل تأليفه قضية السجع نفسها، وفات كهان الجاهلية ـ وهم أرباب السجع ـ أن يأتوا بمثله وبذّهم في ذلك محمد ﷺ، فها نحن اليوم قد كشفنا قواعد السجع وتقدمنا ثقافياً وحضارياً وعلمياً، فهل يتكرم علينا هؤلاء المستشرقون بعد أن عرفوا سر تأليف محمد للقرآن، فيرونا جهودهم في تأليف مثله أو شبيهه، ولو سجعاً متكلفاً. لنرى رأيهم كما يدعون بأن ضرورة السجع كانت سبب تأليف محمد للقرآن .

لقد مضى أرباب الفصاحة من العرب عاجزين عن أن يـأتوا بمثلـه أو بسورة من مثله، فلما حاول مسيلمة تقليده ليدعم نبوته بشيء، أتى بمـا افتضح به بين العرب، وقارنا لك سجع الكهان فعرفت أنه لا يشبه ما جاء من السجع في آيات من القرآن بشيء، حتى طلع علينا ماكدونـالد أخـيراً بفريته تلك وهو يظن أنه كشف اللغز المحير الذي ألف محمـد بواسطته القرآن وقد واكبه في ذلك فيليب حتي، ولكنه لم يحدد أين ذلك السجع، وإذا كان السجع قد ورد بلا تكلف موائماً للمعنى فـي آيات فـي القـرآن ووافقنـا رأي ماكدونـالد بـأن سبب تأليفـها هـو السـجع، فمـاذا سـيقول ماكدونالد في تعليله للسور والآيات الكثيرة التـي جـاءت غـير مسـجوعة وهي أكثر من ثلثي القرآن، لعلـه يفـتري فريـة جديـدة فيدعـى أن انعـدام السجع في هذه الآيات هو سبب تأليف محمد للقرآن.

ولما حاول أن يبـدي الدليـل علـى دعـواه الأولـى لـم يجـد ألا أن يقول: «من أن لوازم السـجع حملـت النبـي ﷺ علـى وصـف اللـه بعـدة صفات يتردد ذكرها كثيراً في القرآن وأن النبي تمسك بهذه الصفـات ثـم جاء المسلمون فجمعوا تلك الصفات». والتـي صـارت قـرآن المسـلمين بعد ذلك. ونرد على هذه الفرية الثانية بأن صفات الله عز وجل وأسـماءه الحسنى لم تأت ضمن أسلوب مسجع، وإنما جاءت ممتدة ومتكررة فـي القرآن جميعه من أوله إلى آخره بحسب مقتضيات القضايا التي يعالجها القرآن. وأقلها جداً كان يرد ضمن ثنايـا الآيـات المسـجوعة فـي القـرآن، وبعد هذا نقول لماكدونالد ما علاقة السجع بصفـات اللـه تعـالى، وكيـف حملت لوازم السجع هـذه محمـداً ﷺ علـى وصـف اللـه بعـدة صفـات.

والآيات التي ليس فيها سجع وذكرت فيها صفات الله على مدى السور في كتاب الله، من الذي أملاها على رسول الله؟ لقد غاب عن ماكدونالد ذلك وهو يظن أن السجع أملي على رسول القرآن، ولكي يخلص نفسه من هذه الورطة قال عن السجع يزيد وينقص، كيف يزيد وينقص وما هو ميزانه في ذلك، ثم ما هي هذه المعاني التي جاءت في ثنايا السجع القرآني حتى نقرر هل تشبه سجع الكهان في شيء، لم يشر ماكدونالد إلى ذلك البتة. .

وإذا لم يكن القرآن قد تحدى العرب، وتحدى الأمم جميعاً وعجزوا عن مجاراته وإذا كان الصحابة بعد ذلك قد جمعوا القرآن على أنه من كلام محمد الذي زعم أنه من عند الله، أفلا كان باستطاعة هؤلاء الكفار ـ والذي كانوا وما يزالون في كل عهد ـ زمن النبي والصحابة، أن يأخذوا على المسلمين هذه الفرية ويقولوا بأن الصحابة هم الذين جمعوا كلام النبي وصفات الله التي أسندها إليه وجعل منها قرآناً؟ أو يظن ماكدونالد أنه من الذكاء والفطنة بحيث كشف لنا عن سر ذلك ونسيه هؤلاء العرب البلغاء الذي كانوا يتربصون بالقرآن وبنبيه أن يبدو فيه أيسر عيب بلاغي أو نقص بياني حتى يقيموا الدنيا ويقعدوها.

لا ريب أننا نقول لماكدونالد هذا: في الصيف ضيعت اللبن، وبفريتك تلك لم تفعل شيئاً جديداً إلا أنك أظهرت عجزك وجهلك بأسلوب القرآن وبلاغته، فما هكذا تورد يا سعد الإبل، بل نقول لك ما قالته العرب (قبل الرماء تملأ الكنائن)، ولكنه بدا لنا أن جعبتك

لا تحوي من السهام غير سهام الجهل الفاضح، والذي بـدوت مـن خلالـه وأبديناك للناس، في ثوب من يفتري على كتاب الله وعلـى بنـي الإسـلام افتراءات لا تملك معها الدليل، . فالمسلمون عندما جمعوا صفات الله أو جمعوا القرآن لم يجمعوه إلا علــى أنـه كـلام الله الـذي لا يشـبهه كـلام مخلوق والذي يعجز كل أهل الأرض أن يأتوا بمثله.

وليؤكد ماكدونالد فريته تلك من أن القرآن، مـن كـلام محمـد ﷺ ذكر: «فإن من أسماء الله ـ السلام ـ ولم ترد هذه الصفة إلا في الآيـة ٢٣ من سورة الحشر ومعناهـا شـديد الغمـوض ونكـاد نقطـع أنـها لا تعنـي السـلم، ويـرى المفسـرون أن معناهـا السـلامة. والــبراءة مـن النقـائص والعيوب وهو تفسير محتمل، وقد تكـون هـذه الصفـة بقيـت فـي ذاكـرة محمد من العبارات التي تتلى في صلوات النصارى»(١٤).

الرد على الفرية:

١ـ هؤلاء المستشرقون ظنـوا بأنـهم بتأليفـهم دوائـر المعـارف قـد فـاقوا الناس منهجية وثقافة وموسوعية ونسوا أن القضية ليست قضية دوائـر معارف بريطانية أو إسلامية أو طبية بقدر ما هي من الذي يكتب هذه الدوائر وماذا يكتبون؟ فإذا كانت القضية قضيـة اتـهامات وخزعبـلات تلقى على صفحات الكتب فقد بدا عندئذ ألا فرق بين جـاهل وعـالم وأن الأمور لم يعد ينظر إليها على أنها منهجيـة أو صـدق فـي القـول والفعل بقدر ما ينظر إلى مـا هـو المقصـود مـن تشـويه هـذا أو ذاك الذي نتحدث عنه؟ وليس يصعب عليـك عندئـذ أن تجـد مـن يطعـن

فيك ذماً مثلماً كتبت أنت عنه غير مراعٍ لا ذمة ولا حقيقة. ومعظم هؤلاء الذين كتبوا في دائرة المعارف الإسلامية مثل ماكدونالد ومرجليوث ونيكلسون وجب مأجورون من قبل الاستعمار والصهيونية، وأنت تكاد ترى واحدهم يفضح نفسه بنفسه عندما يكون كاتباً بليغاً محيطاً بالعربية كتابة ومنهجية وتأليفاً ثم يطلع عليك بعد ذلك برأي سخيف يفتضح به بين الناس ألم تر إلى ـ كايتاني ـ الإيطالي الأمير وصاحب الحوليات في الدراسات التاريخية الإسلامية، كيف عاب على أبي حنيفة وأضرابه بأنهم لا يعرفون أكانت غزوة أحد قبل أو بعد غزوة بدر. ويخيل إلينا أحياناً أن القضية ليست قضية افتضاح عند هؤلاء فحسب بل إنها لتبدو قضية متعمدة فعندما يرتفع سهم أحد هؤلاء المستشرقين بما نفخت فيه الصهيونية والدوائر الاستشراقية، وعندما تصبح له كلمة ومؤلفات وكتابات حتى في المجامع اللغوية العربية ويصير مراسلاً لها، هناك تبدأ القضية، أو الجولة الثانية التي من أجلها كان إعداد ذلك المستشرق، فيبدأ بسن حرابه ضد الإسلام ليطعنه في جوانبه المشرقة وقد أمن ـ ولو مؤقتاً ـ تكذيب الناس له أو جهله، فهو كاتب ومستشرق عالمي وصاحب دراسات موسوعية في الدين والتاريخ والحضارة وهو صاحب كرسي في أعظم جامعات العالم، وهو من ثم مراسل للمجمع العلمي اللغوي في القاهرة ودمشق وبغداد ومجامع العالم، وهو يدعونه ـ مثلاً ـ ليدرس في جامعة كمبردج فيأبي ذلك لأنه قد كرس نفسه للدراسات العربية الإسلامية، في هذه الأجواء إذا أطلق الفرية ضد

الإسلام فإن سدنته يضمنون عدم تكذيبه، ويضمنون أن يكون لكلامه أثر كبير في إفساد الشعوب وخاصة المسلمين وتشويه دينهم.

٢ـ فما كدونالد يرى أن ـ السلام ـ كصفة لله لم ترد إلا مرة واحدة، وهذا صحيح ولكنها وردت مرات عديدة بمعنى السلام والأمان والاطمئنان، ولكن ماكدونالد سرعان ما توصل إلى معنى السلام بذكاء وفهلوية بأنها شديدة الغموض والكلمة وردت في الآية « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » سورة الحشر. . وجاءت وصفاً لله الملك القدوس، وسواء كانت تعني السلامة والأمان أو البراءة من النقائص والعيوب، فهي صفة لهذا الإله الذي يدعو إلى السلام والأمان أو الإله الذي لا يلحقه عيب ما أو نقص. إلا أن هذا لا يهمنا بقدر ما يعنينا قول ماكدونالد الغريب جداً بأن السلام في الآية شديد الغموض. عجيب، كلمة السلام ليست غامضة فقط بل هي شديدة الغموض، لعله يقيسها إلى كلمة ـ الحرب ـ الواضحة جداً والتي أشعلها هو وقومه على العالم فأبادو عشرة ملايين إنسان في حربين عالميتين، أظن ـ السلام ـ فقط في هذا المفهوم ليست شديدة الغموض بل وليس لها معنى إطلاقاً، وخاصة عند من شرعوا دباباتهم وصواريخهم ضد الشعوب الضعيفة. ولا ندري لماذا اختار صفة ـ السلام ـ في الآية من بين الصفات الباقية التي وردت فيها، وما هو حال بقية الصفات. وانظر كيف صارت صفة السلام التي يتلوها النصارى في كنائسهم سهلة واضحة مفهومة، وكيف صارت شديدة الغموض عندما وردت في قرآن محمد، لمجرد أن قرأها ماكدونالد، ولا ندري هل هو جاد

فيما يقول أم أنه ممن يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما أوتوا. وهل الكلمات تكتسب الغموض والوضوح من خلال من ينطق بها أم هي تحوي دلالات معنوية بنفسها، حقيقة نكاد أن نقتنع بالرأي الأول من أن المعاني إنما تكتسب دلالتها من خلال هؤلاء المستشرقين فكلمة السلام صارت اليوم تعني في قاموسهم ـ الاستسلام والذل ـ ولهذا لم يمانعوا في قيام إسرائيل وطرد شعب فلسطين وإذلال الشعوب الضعيفة وما يزالون يؤولون لفظة السلام ويلبسونها من المعاني المطاطية ما يتناسب مع أهدافهم الدنيئة. حقيقةً أن السلام بهذا المفهوم كلمة شديدة الغموض، أما في الآية فهي أوضح بكثير مما يتصور ماكدونالد هذا وإن مستشرقاً كماكدونالد هذا يرى في كلمة ـ السلام ـ هذه معنى شديد الغموض لهو أهون علينا من أن نقبل له رأياً في تقويم آيات الكتاب أو الطعن فيه.

٣ـ أي نصارى هؤلاء الذين عرفهم محمد أو زار كنائسهم وسمع تهويماتهم، لعله يشير إلى لقائه السريع بالراهب بحيرا وهو فتى في الثانية عشرة من عمره، غريب أمر هؤلاء النصارى مرة يقولون: بحيرا ألهمه القرآن كله، فإذا درسوا الأمر وعرفوا أن فتى صغيراً كمحمد لا يمكنه بزمن قصير جداً ولقاء لحظي عابر مع بحيرا أن يلقنه بحيرا فقرة صغيرة من الإنجيل فضلاً عن أن يلهمه القرآن بأجزائه الثلاثين، إذا درسوا ذلك ورأوا أن القصة بهذا الشكل الفاضح مستحيلة عقلاً ومنطقاً، لهذا ارتأوا أن يكون بحيرا قد لقنه بعض الأشياء وأوحى إليه ببعض الفقرات طالما أن محمد ﷺ ذكي إلى

هذا الحد، وهنا يطلع علينا ماكدونالد ليجعل محمداً، في ذلك اللقاء التاريخي ببحيرا قد وعت ذاكرته وحفظت صفة السلام، مما كان يسمعه من صلوات النصارى. غريب عجيب كيف لم تذكر لنا السيرة النبوية ذلك ولا المراجع الرومانية والنصرانية نفسها عن قداس أقامه الراهب بحيرا واستمع إليه تجار قريش ومعهم محمد، وكيف أن بحيرا عندما دعاهم إلى مائدته ولبوا النداء راح بحيرا يسرد عليهم صفات الله كما يراها الإنجيل، والأعجب من ذلك أن أذن ماكدونالد جعلت محمداً لا يفقه ولا يحتفظ إلا بصفة السلام تلك عن بحيرا. ولكن كيف جعل ماكدونالد هذا صفة السلام هذه شديدة الغموض وقد التقطها محمد من بحيرا هذا. إما أن تكون كلمة السلام هذه شديدة الغموض كذلك عند النصارى وفي مفهوم بحيرا أو أن ماكدونالد هذا يكذب فيما يقول.

أما أن السلام كلمة شديدة الغموض فقول لا يسلم فيه أحد لماكدونالد، فلم يبق إلا أن ماكدونالد يتعمد الكذب على رسول الله من أجل أن يجعل القرآن من كلام محمد لا من كلام الله.

ولكن ما شأن بقية الصفات في تلك الآية لم يذكر ماكدونالد عنها شيئاً، وقد شغف محمد بهذه الصفات التي يسمعها من بحيرا، فاستملاه إياها شفاهة واحتفظ بها رسول الله ٢٧ عاماً بعد عودته حتى أخبر الناس عنها في الأربعين من عمره. لا أحد يستطيع أن يصدق ماكدونالد هذا في افتراءاته تلك.

٤ـ ولنفترض أن ـ السلام ـ كلمة وردت عند النصارى وهم يرددونها في شعائرهم ولنفترض أن محمداً ﷺ استمع إليها من كاتدرائية بحيرا نفسه قريباً من مكة، أفكان في هنا مثار عجب واستغراب ودليل إنكار القرآن بأنه ليس من كلام الله أم هو دليل عندئذ على أن الأديان السماوية تتلاقى على إله واحد وصفات واحدة لهذا الإله. أليس في هذا دليلاً على أن أصول الديانات السماوية واحدة، فلماذا يجعلون من الأصول الواحدة فروعاً يحارب بعضها بعضاً وشبهات يثيرونها على الإسلام والقرآن ونبي الإسلام، والقرآن يقول في ذلك: ﴿وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ليت ماكدونالد وأضرابه من المستشرقين لا يهرفون بما يعرفون في الوقت الذي يعرفون فيه حقيقة أن القرآن ليس من كلام بشر ولا يجوز أن يكون كلام بشر وتحدي الله للبشر قائم إلى قيام الساعة. لقد عموا وصموا آذانهم عن الحقيقة ولكنهم لا يستطيعون إسكاتها إلى الأبد.

وأما المستشرق ـ ويلز فقد راح يفتش عن سبب من أجله وضع رسول الله ﷺ القرآن فكان أن أتى بالعجب العجاب في ذلك، ولحيرته واضطرابه لم يثبت على سبب واحد، فرسول الله ـ في رأيه وقبل البعثة «لم يكن قد توصل في ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية» وكأن الدين أو القرآن مما كان النبي يفتش عنه، ثم ما أسرع ما وقع ويلز على السبب الحقيقي الذي جعل النبي محمد يتلقى القرآن إذ يقول: «ويحتمل

أنه رأى كنائس مسيحية في سوريا ويكاد يكون محققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديانتهم».

ألا ترى إلى صيغة التمريض التي يستخدمها ويلز هذا في قوله ـ ويحتمل. فهو يريد أن يدين محمداً ﷺ في أن القرآن ليس من عند الله، فلا يجد توكيداً لمقولته هذه إلا فعل يحتمل.

ثم يطلع علينا ويلز من بين المستشرقين ليزيد في نفس الفرية التي افتراها من قبله، فبينما عرض غيره أن محمداً ﷺ قد عرف كنائس مسيحية في سوريا ولا ريب عنده أن دخلها وتلقى عن سدنتها ما جعله يؤلف القرآن، وهذا كله في مجال الاحتمال والظن والتخمين، يعني محتمل أن يكون قد حصل ومحتمل ألا يكون قد حصل ومحتمل ألا يكون قد وقع ذلك ـ فإذا كان غير ممكن الحدوث بأن رسول الله زار عدة كنائس فلا مانع عنده أن يتابع فريته ليجد مخرجاً لنفسه في أن يظل يطعن بالقرآن وأنه ليس وحياً، فيقول: يكاد يكون محققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود. يا أخي لا أنت متثبت من أن النبي قد لقي النصارى بدلالة أنك تقول يحتمل، ولا أنت متحقق من لقائه باليهود لقولك يكاد. فلم هذه الاتهامات الباطلة، ولماذا لا تفتش عن الحقيقة في بطون المراجع التاريخية الصحيحة هذا إذا كنت تبحث عن الحقيقة. كل ما في الأمر أن كتب السيرة روت ذلك اللقاء العابر بين النبي ﷺ وهو ابن اثنتي عشرة سنة وقد جاء مع عمه أبي طالب ووفد تجار قريش، وبين الراهب بحيرا. لقاءً عابراً بنى عليه هؤلاء النصارى قبة من الافتراءات وجعلوا

بحيرا في ذلك اللقاء قد لقن النبي ما طلع به على الناس بعد ذلك من آيات القرآن. ولو درس هؤلاء القرآن وما فيه من معجزات ونبوءات تاريخية وعلمية لعلموا أنه يستحيل على النبي وعلى بحيرا وعلى النصارى كلهم أن يقولوا ذلك، فإذ أشكل عليك أن تفهم كيف لقن بحيرا الراهب محمداً ذلك القرآن العظيم وهو مستحيل عقلاً، فلا مانع عندئذ، عند ـ ويلز ـ أن يجد لك حلاً لهذا اللغز فيجعل رسول الله قد رأى كنائس مسيحية في سوريا وهذا يعني أنه محتمل قد زارها ودخلها وسمع من أخبارها ما ألف به القرآن. كل ذلك ليشوش تفكيرك ويجعلك تظن بأن القرآن ماهو إلا أفكار نصرانية مكررة، فإذا جادلتهم بأن ما في القرآن يناقض تماماً ما أنتم تعتقدونه من التثليث والصلب والفداء وتأليه المسيح، وشرب الخمر. فلا مانع عند ويلز أن يجد لك مخرجاً آخر من هذه الورطة ليقول لك يكاد يكون محققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديانتهم أين هم هؤلاء اليهود الذين عرفهم رسول الله، وكم جلسة جلس معهم، لقد كان النبي في قريش أربعين سنة وهم يعرفون دخوله وخروجه من مكة، فلو كان لاقى النصارى في كنائسهم أو اليهود في بيعهم ثم ادعى الإسلام بعد ذلك لعاب عليه قومه ذلك، ولو وجدوا أدنى شبهة بين ما جاء به وبين ما جاء في التوراة والإنجيل لأقامت قريش واليهود الدنيا عليه، بأنه سرق دينهم وأنت تعلم أن النبي والمسلمين كانوا يتوجهون في بدء الإسلام في صلاتهم إلى بيت المقدس فلما حولت قبلة المسلمين إلى الكعبة، عاب اليهود على

المسلمين ذلك وراحوا يعلنون بأن لمحمد كل يوم قبلة، ومن قبل كانوا يعيبون عليه أنه يصلي إلى قبلتهم ويتبع غير دينهم. فلو كان التقى النبي بهؤلاء اليهود وتحقق لهم ذلك لوجدوها فرصة سانحة لتشويه الإسلام والدين والانتقاص من قدر النبي والقرآن. ليس الأمر كذلك وإنما لكل واحد من هؤلاء المستشرقين دوره في التشويه فإذا كان الوحي هو أساس الدين فلا بد ان يجيل كل مستشرق بقلمه ليجد مطعناً فيه، وبذلك تتلاقى أقلامهم مجتمعة ـ ولو بالكذب ـ على هدم الدين وتشويهه.

ما هو أصل الوحي إذن، وكيف تلقى رسول الله ﷺ القرآن، أدلى ويلز بقلمه في ذلك الميدان فكان أن رأى: «ولخطر إمارات الختل والخرافات المتجلية في وثنية البلدة ضاق بذلك ذرعاً. وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد في الرب الواحد الحق دون أن يدرك ما حدث له وجاء بآيات معينة أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك في السماء»(١٥).

لم يقتنع ـ ويلز ـ بما ذكره غيره في تفسير الوحي حتى رأى رأيه في ذلك، وهو أن النبي ﷺ وقد رأى تفشي الوثنية والخداع والخرافات بين أهل بلدته، فحمله كل ذلك على وضع القرآن ولما كانت هذه الفرية ظاهرة الافتعال لا تقوم على دليل ولا يصدقها الواقع لهذا لا مانع عند ويلز أن يكون اليهود قد هدوا النبي إلى الاعتقاد بالوحدانية، وهم أهل كتاب ورسالة تدين بالتوحيد، والغريب أنه يرى أن هذا قد تم للنبي دون أن يدرك ما حدث له ـ أي وهو في حال غيبوبة ـ وسيمر معنا توضيح

ذلك مفسراً. وجاء بآيات أعلن أنها من عند الله وعن طريق الملاك جبريل بينما هي ليست في نظر ويلز إلا ردة فعل لوثنية قريش التي رآها رسول الله. . ؟

هل القضية هي كما يقول الريحاني ـ قل كلمتك وامش ـ وافتر على الآخرين بدون دليل ولا برهان كيف يهدي هؤلاء اليهود محمداً ﷺ إلى التوحيد وهم ضالون، نبذوا فكرة التوحيد من زمن بعيد وألهوا العزير وأحبارهم كما قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وإذا أضرب ويلز عن رأيه السابق بأن يكون النصارى في الكنائس هدوا محمداً ﷺ إلى التوحيد حيث يعلم أنهم يدينون بالتثليث فلا مانع عندئذ أن يكون قد هداه إلى الوحدانية هؤلاء اليهود، دون أن يذكر أو يعرف أن هؤلاء اليهود لم يكن عندهم ذلك التوحيد الخالص، ثم كيف هدوه إلى ذلك ومن هم الذين هدوه، لقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود كبني قريظة وبني قينقاع وبني النضير، ولم نعهد أحدهم يمن عليه أو يعيب عليه بقوله « كيف تحاربنا وتدعي التوحيد الذي أخذته منا » لعل ويلز هذا يظن أن اليهود نسوا فضلهم ذلك على النبي فجاء ليذكرهم به!! ثم كيف هداه اليهود إلى التوحيد ولم يدرك ما حدث له؟ هل هؤلاء اليهود سحرة، سحروا محمداً فألبسوه خلعة التوحيد وهو لا يشعر وإذن فلماذا ألهوا أحبارهم والعزير قبل ذلك ولماذا عبدوا العجل. لعله هنا أراد أن يضيف فرية جديدة لما ذكر سابقوه يتميز بها عنهم، ولكنه ما لبث أن سقط في حمأة الكذب

والدس الرخيص الواضح. وإلا كيف ألهمه هؤلاء اليهود التوحيد، ولماذا اختاروا عربياً ليلقوا إليه بذلك وهم الذين كان ينتظرون بفارغ الصبر أن يأتي نبي ليهديهم ويجمع كلمتهم ليقاتلوا به العرب كما كانوا يقولون للأوس والخزرج ذلك. فالسيرة تذكر أنه لما بعث النبي ورأوه عربياً حسدوه على ذلك وحقدوا عليه ووقفوا في وجهه حتى تآمروا على قتله مرات، فكيف يعودوا ليلقنوه مبدأ التوحيد وهو لا يدري؟.

ولكننا لن ندع الإجابة عن هذه التساؤلات تفوتنا دون أن نعرض عليك جملة آراء هؤلاء المستشرقين في تفسير الوحي وبعثة النبي، وباستقراء تلك الآراء يمكننا الوصول إلى ما اجتمعت عليه كلمة هؤلاء المستشرقين. وهذا ما سنطلعك عليه في الفصل التالي الذي يناقش مطاعن المستشرقين في الإسلام وفي شخصية النبي.

***

مراجع الفصل الخامس

(١) هذا مثل يضرب لمن تجتمع عليه بلية فوق بلية ـ الضغث: قبضة من الحشيش، والإبالة: الحزمة الكبيرة من الحطب.

(٢) كتاب ـ فقه السيرة ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي ـ دمشق دار الفكر ط٢/١٩٩٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) كتاب قصة الإيمان: الشيخ نديم الجسر ط٢/١٩٦٩ منشورات المكتب الإسلامي.

(٥) كتاب فقه السيرة ـ للبوطي.

(٦) المرجع نفسه.

(٧) كتاب ـ الفن ومذاهبه في النثر الجاهلي ـ د. شوقي ضيف دار المعارف ـ ١٩٦٥.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) الفاصلة في النثر تقوم مقام القافية في الشعر.

(١١) كتاب جواهر البلاغة ـ المرحوم أحمد الهاشمي ـ سنة ١٩٦٣.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) كتاب ـ عبد القاهر الجرجاني ـ د. أحمد أحمد بدوي ـ سلسلة أعلام العرب العدد ٨.

(١٤) اقتبسنا هذه الافتراءات من كتاب ـ الغــزو الفكــري والتيــارات المعادية للإسلام ـ جامعة محمد بن سعود الرياض ١٩٨١/ وهــذه الافتراءات مما كتبه ماكدونالد وغيره في دائرة المعارف الإسلامية.

(١٥) الافتراءات التي ادعاها ويلز ٢ أخذناها من نفس الكتاب ـ الغــزو الفكري السابق.

الفصل السادس

افتراءات المستشرقين على رسول الله

حقيقة الوحي: لأن الوحي هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته، وما جاء فيه عن النبي من أخبار الغيب والتشريع، من أجل كل ذلك اهتم محترفو الدس والتشكيك من المستشرقين بمعالجة موضوع الوحي في حياة النبي ﷺ وبذلوا جهداً فكرياً في تكلف وتمحل أسباب هذا الوحي عند النبي من كونه حديث نفس أو رؤى إنسان أصيب بالصرع أو لقنه إياه بحيرا الراهب. افتروا كل ذلك لعلمهم أن موضوع الوحي هو نبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به النبي ﷺ من عند الله، فالتشكيك بهذا يهدم كل قواعد الاعتقاد والتشريع عند المسلمين، ومن أجل ذلك راحوا يؤولون ظاهرة الوحي ويحرفونها عما رواه لنا المؤرخون الثقاة وما جاء في الكتب الصحاح والسنة الشريفة.

لقد فوجئ رسول الله ﷺ وهو في غار حراء بجبريل عليه السلام أمامه يراه بعينيه ويقول له اقرأ ـ ثلاثاً. وفي كل مرة يقول ما أنا بقارئ إلى أن قال له: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. وهذا يكشف لك أن قضية الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس المجرد وإنما هو استقبال وتلقي لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس، ولهذا ترى أن النبي قد رعب من جبريل وولى إلى بيته وداخله الخوف مما سمع ورأى وهذا يوضح لك أن النبي ﷺ لم يكن متشوقاً للرسالة التي سيدعى لحملها إلى العالم وإن ظاهرة الوحي لم تكن متصورة في خاطره وإنما طرأت طروءاً مثيراً على حياته وفوجئ بها دون توقع سابق ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل

والتفكير إلى أن تتكـون فـي نفسـه بطريقـة الكشـف التدريجـي المستمر عقيدة يؤمن بالدعوة إليها. [1] لأن حالات الإلهام والإشراقات الروحية أو التأملات التي يحياها بعض الناس لا تسـتدعي الخـوف والـهلع وامتقـاع لون الوجه وإلا لاقتضى أن يعيـش عامـة المفكريـن والمتـأملين حـالات رعب وخوف مستمرة وليس الأمر كذلك..

وتتجلى لك صورة المفاجأة لدى رسول اللـه ﷺ عندمـا توهـم أن هذا الذي غطه قد يكون أتياً من الجن وقـد أخـبر زوجـه خديجـة بذلـك وأنه خشي على نفسه من الجان فكان أن طمأنته فهذا كله ليس إلا إظـهار للتفريق بين حالين كانا للنبي قبل البعثة وبعدها، ولبيان أن هـذه العقيـدة وذلك الوحي والدين لم يكن معروفاً لدى رسول الله. ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُـو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ**﴾ [العنكبـوت: ٤٨] ثـم جـاء التوكيـد البليـغ علـى أن ذلك كله إنما كان وحياً من عند الله فيما ألهمته خديجة من الذهاب إلـى ورقة بن نوفل والتأكيد لها أن هذا الذي جاءه إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله. وأما انقطاع الوحي بعد ذلك لمدة ستة أشـهر أو يزيـد فلتوكيـد تلـك المعجـزة الإلهيـة ورداً بليغـاً علـى هـؤلاء المستشرقون الذين فسروا الوحي على أنه الإشراق النفسي المنبعـث لـدى النبي من طول التأمل فها هـو الملـك يحتجـب عنـه وتتوقـف الإلـهامات ويحار النبي حتى ليكاد يلقي بنفسه من شاهق كما يروي الإمام البخـاري في صحيحه.

ولكنك بدراسة متمعنة لكتاب الله عز وجل وهو الوحي السـماوي المتنزل على رسول الله، وما فيـه مـن إعجـاز حكـم ونبـوءات، وقصـص

الأنبياء السابقين وتوحيد ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب وإنذار للكافرين، وإشارات تاريخية تحقق جلها وإشارات علمية لم تكتشف بعد، بدراسة كل ذلك تتحقق بأن هذا القرآن الكريم لا يمكن أن يكون كلام مخلوق.

ولكن هؤلاء المستشرقين مهما رأوا الدلائل واضحة كالشمس والبينات قائمة إلا أنهم ما زالوا يزعمون ويفترون على الله ورسوله، فتراهم يروحون في تأويل الوحي في آراء متعددة ومتناقضة يكاد واحدهم يصبح أضحوكة بين بني قومه ورغم ذلك لا مانع عنده أن يدلي برأيه مما يؤكد لك أن القضية لم تعد قضية بحث عن الحقيقة بقدر ما هي تنفيذ لمخطط استعماري استشراقي صهيوني لتشويه دين وعقيدة المسلمين، وبقدر ما هي أحقاد تغلي في صدور هؤلاء على الإسلام ونبي الإسلام لأنه دين سهل فطري تسارع الأمم إلى الاعتقاد به.

ولما كان القرآن الكريم هو الأصل الذي يستقي منه المسلمون شريعتهم وعقيدتهم لهذا أعمل هؤلاء المستشرقين أقلامهم في الدس والافتراء لمحاولة تشويه هذا الكتاب ولأجل ذلك راحوا يتخبطون في تأويل العوامل التي أثرت على بعثة النبي محمد ﷺ، وراحوا يفسرون الوحي الإلهي بتفسيرات واهنة حتى تطوع مواطنوهم للرد عليهم قبل المسلمين.

وقد ضرب لنا المستشرق الفرنسي إتيين دينيه والذي أسلم وتسمى بناصر الدين دينيه، ضرب لنا أمثلة لذلك التخبط عند المستشرقين وخاصة في قضية الوحي.[٢] يقول:

« فنولدكه الألماني يرى أن سبب بعثة النبي نوبات الصرع ويعلق دينيه كيف تكون نوبات الصرع عاملاً في البعثة ثم يقول متهكماً: سلوا عن ذلك نولدكه ـ فعند جهينة الخبر اليقين ـ ثم جعله نولدكه يتصبب من العرق وتعتريه التشنجات حتى إذا ما أفاق من نوبته تلا على المؤمنين ما يقول إنه وحي » ونحن لن نرد على هذا وإنما نترك الرد على نولدكه هذا إلى المستشرق الإنجليزي روم لاندو[٣] إذ يقول: « والزعم القائل بأن فترات تلقيه الوحي كانت نوبات صرع ». خاطئٌ على نحو جلي، ذلك لأن من يتعرض لمثل هذه النوبات لا يمكن أن يكون مالكاً وعيه ومنطقه إلى حد القدرة على النطق بمثل تلك المقاطع المعقدة والعميقة من وجهة النظر الفكرية التي نقع على كثير منها في القرآن. ثم إن العلم يرى أن نوبة الصرع تؤدي إلى تعطل حركة الشعور والتفكير تماماً ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي بل كانت تتنبه حواسه المدركه تنبّهاً لا عهد للناس به وكان يذكر بدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه » هذا إلى جانب أن نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه بل كثيراً ما كان يحدث والنبي في تمام يقظته العادية، وحسبنا دليلاً على ذلك نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ في طريق عودته من مكة إلى يثرب بعد صلح الحديبية المعروف.

إذاً فالعلم نفسه ينفي أن الصرع كان يعتري محمداً ﷺ لأن الصرع يعطل الإدراك الإنساني، والرسول كان في قمة الإدراك والتفكير عند تلقي الوحي، أما الوحي نفسه فهو سمو روحي اختص الله به أنبياءه ليلقي إليهم بحقائق الكون الغيبية حتى يبلغوها الناس[٤].

ويزيدنا روم لاندو دفاعاً في هذه القضية عن رسول الله بقوله: «إن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد ﷺ في أداء رسالته وما كان لأتباعه من إيمان كامل فيما أنزل عليه من وحي واختبار الأجيال والقرون كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأيما ضرب من الخداع المتعمد ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق ديني متعمد ـ حتى لو كان صاحبه دجالاً عبقرياً ـ استطاع أن يعمر طويلاً» زد على ذلك أن الوحي هو بعض ما شهده المسلمون والعرب أثناء حياة النبي ﷺ وكان منهم أذكياء، وكان هناك يهود ونصارى طال الجدال بينهم وبين النبي، ثم آمن البعض منهم برسالته ولم ينكروا عليه من أمر الوحي شيئاً ولما حاولت قريش اتهامه بالسحر ما لبثت أن تراجعت في ذلك وآمنت بما جاء به.

كما نجد أن المستشرق ـ دوغويه ـ يرد فرية تولدكه تلك ويعلل ذلك: «بأن الحافظة من المصروعين تكون معطلة على حين أن حافظة النبي محمد كانت غاية في الجودة كلما هبط عليه الوحي»

وعندما تنقض حجج أصحاب نوبات الصرع في تفسير الوحي يقوم ـ اسبرنغر ـ ليرى أنها ليست نوبات صرع بل نوبات هستيرية. وهنا يتطوع سنوك ليرد على الفريقين معاً فيرى: «أن الأسس التي يراد أن تقام عليها البعثة هي أسس واهية» وأما زميله ـ جريم ـ فيرى أن الآراء الاشتراكية لا الدينية هي التي قادت محمداً ﷺ إلى الرسالة، ومستنده في ذلك تشديد النبي على الزكاة، فيقول: «ولما كان القول بذلك في مكة أسهل من التنفيذ فقد حاول النبي ـ كما يرى جريم ـ أن يؤثر على

المكيين بتخويفهم من يوم الحساب متخذاً الإكراه الروحاني إكراه المسلمين على البذل والسخاء ودفع الزكاة». وهذا قول ظاهر البطلان فليس سهلاً على ساحر أن يسحر فئة من الناس حوله بل أن يسحر بلدة كاملة والجزيرة العربية كلها، وإذا صح هذا ولنفترض أنه صحيح فبم يفسر لنا ـ جريم ـ بقاء هذا السحر بعد موت محمد بأربعة عشر قرناً وبم يفسر انتقال هذا السحر ليصيب غير العرب ومن قوم جريم أنفسهم فيسارعون إلى الإيمان به؟ لا جرم أن كل تلك الأقوال في تفسير الوحي لم ترض المستشرق مرجليوث الخبيث والذي طلع علينا أخيراً ببدع من الدس والافتراءات لم تخطر على بال من سبقه، وقد نسف بها البقية الباقية من التعقل عند المستشرقين، وأبان عن جهله وسخافته حيث طلع علينا بما افتضح به بين قومه فقال معللاً بعثة النبي «بأن الباعث على بعثة الرسول إنما هي أعمال الشعوذة، فلقد عرف محمد خدع الحواة وحيل الروحانيين ومارسها في دقة ولباقة. وقد كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحانية وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية تشبه الماسونية ولهم إشارات تعارف مثل ـ السلام عليكم ـ وعلامات يتميزون بها كإرسال طرف العمامة بين الكتفين». [٥] وإذا كانت رسالة محمد ﷺ وهي بهذا التكامل وتنظيم حياة الأمم والشعوب، من عمل المشعوذين لتشويهها، ألا يكفي معرفتهم أن المشعوذ لا يستطيع أن يقيم فكراً يهدي به نفسه فضلاً عن أن يهدي أمة من الأمم أو يقنع غيره بصحة ما يأتي به، فهل يستطيع مشعوذ عندئذ أن يقنع أمة أو عالماً أو الإنسانية كلها بآرائه وصدقها ويظل إيمان الناس بشعوذته ١٤ أقراناً متكاملة. لا يمكن أن نصدق ذلك

إلا أن يكون محمد ﷺ نبياً ورسولاً، ثم من هم هؤلاء الحواة الذين تعلم منهم محمد ﷺ لم يذكر لنا مرجليوث واحداً منهم ولم يقل لنا في أية مدرسة مارس حيل الروحانيين ـ وقد كانت هذه المدارس منتشرة في أوربا خلال القرنين الماضيين ـ فإما أن يدعم مرجليوث فريته تلك بدليل أو نعتبره أحد هؤلاء المشعوذين الذين يزعم أنه تلقى محمد عنهم رسالته، . ثم إنه من الصعب جداً أن توازن بين جلسات الماسونيين السرية الخطيرة والتي تخطط لإفساد العالم متخذة من القتل والجريمة والعري والخلاعة والتحكم في موازين القوى العالمية وحرف البشرية عن الفضيلة والخير والسلام مما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون، وبين ما كان يدور في دار الأرقم من أفكار التوحيد والمساواة والعدالة مما برز في صورة تعاليم الإسلام بعد ذلك. وهذا التمثيل ليؤكد انتساب مرجليوث إلى تلك المدرسة الاستشراقية الصهيونية التي تتعمد تشويه الإسلام.

ولا ندري بعد ذلك ماذا في تحية المسلمين ـ السلام عليكم ـ من نقيصة يؤاخذ عليها الإسلام حتى يذكر مرجليوث ذلك، أليس كل شعوب الأرض يحيي بعضها بعضاً بطريقة ما باليد أو اللسان أو بالأنف أو بالإنحناء أو بإلصاق الوجوه، أليس قوم مرجليوث يحيون بعضهم بـ Goodmorning ترى لو وقف فرنسي يلوم مرجليوث والإنجليز عموماً على أن لهم إشارات تعارف بقولهم good morning أيرى عندئذ في ذلك موضع تهمة أو عيب يعاب به. وأما إرخاء المسلمين طرف العمامة بين أكتافهم فهي صورة من الصور التي تميز المسلمين من

غيرهم، ألا ترى أن كل أمة من الأمم لها ملامح خاصة وأزياء خاصة بها، أفإن اختلف زي المسلمين عن غيرهم هل يكون في ذلك مظنة تهمة أو عيب، أم يريدهم أن يلبسوا القلنسوة ويشدوا الزنار حتى يكونوا نصارى فيمتدحهم عندئذ.

ولا بد أخيراً من التعليق على رأي بروكلمان في قضية الوحي إذ يقول: «استخدم محمد في دعوته أساليب الكاهن كما عزا أحوال غيبوبته وما يصدر من هذه الأحوال من تصريحات إلى رفيق ذكر فيما بعد أنه الملك جبريل واعتقد أنه رسول الله».

يخيل إليك وأنت تقرأ افتراءات هؤلاء المستشرقين وكأنما تداعوا على تشويه هذا الدين كتداعي الأكلة إلى قصعتها، فأخذ كل بجانب، بل وراح بعضهم يكرر تلك الافتراءات لعل في ذلك توكيداً للكذب وإثباتاً للتهم.

فهذا ماكدونالد يرى: «أن ضرورة السجع أملت على الرسول القرآن يزيد فيه وينقص». وفيليب حتى يرى: «أن النثر المسجوع ابتكره الكهان في القرآن نماذج لهذا الأسلوب».

وويلز يرى أن القرآن خليط من البلاغة الرائعة غاب مغزاها عن كثير من الناس ويطلع علينا أخيراً الموسوعي بروكلمان ليرى أن القرآن استخدم أسلوباً من أساليب الكهان. أي أسلوب يقصد؟ هل هو أسلوب السجع أم هو خليط من البلاغة غير المفهومة. ويلز أراد أن يكون تفسيره رمزاً وإيهاماً كالذي كان يتعمده الكهان في أقوالهم، وإذا كنا رددنا على

هؤلاء افتراءاتهم فنقول لبروكلمان أي أسلوب كهان تقصد فقد عهدنا أساليبهم تقوم على النثر المسجوع والمعاني الغامضة والأسرار التي تخفى على الناس فهل كان يعني هذا الطلاسم التي يتعمدها الكهان ليدللوا على ذكائهم وتميزهم، وإذن فنقول له أين هذه الطلاسم في القرآن الكريم، وإذا كان القرآن طلاسم فكيف فهمها بروكلمان وأضرابه من المستشرقين حتى أمكنهم نقدها واعتبار أسلوبها أسلوب كهان نقول هل هذه الطلاسم في التوحيد «قل هو الله أحد» وإذن فما أشد وضوح الأب والابن وروح القدس في ذات واحدة وما أسهل فهم أن للمسيح طبيعتين لا طبيعة واحدة. أم هل تلك الطلاسم في العبادات، أم في المعاملات أم في نظام الإسلام. . ؟ يبدو أن هؤلاء المستشرقين محكوم على شهرتهم بالإفلاس إذا لم يقم كل واحد منهم برسم الشبهات والأكاذيب التي يريدها أرباب مدارسهم الاستشراقية الكنسية فلا بد لكل واحد أن يدلي بفريته ـ ولو كذب وخالف الحقيقة والمنهج العلمي ـ ولا بد أن تتلاقى هذه الأكاذيب لتؤتي أكلها فيصدق المسلمون أن قرآنهم نثر مسجوع كسجع الكهان.

ولكننا نحمد الله أن هذا القرآن الذي هو من أساليب الكهان قد استطاع أن يبذ كل أساليب الكتابة في العالم كله، بل ويقف العالم يتفرج لا يبدي حراكاً ولا يملك له تقليداً ثم إننا نعرف أن أسلوب الكهان هذا الذي اتبعه القرآن وعرفه المسلمون قد أعطى حضارة وعلوماً ورقياً اضطر بروكلمان وأجداده وحتى كهنتهم وملوكهم ـ فريدريك الثاني. أن

يمضوا إلى مدارسه لتعلم ذلك الأسلوب، فلما بنوا حضارتهم فعلاً وطاروا في الفضاء نظروا تحتهم فظنوا أنهم جنس مختلف عن البشر فلما حطوا أقدامهم على الأرض صار القرآن في نظرهم أسلوب كهان. ألستم قد سرتم إلى مدارسه يوماً ونهلتم من علومه وسجعه. كما تدعون؟ الآن يا بروكلمان صار القرآن سجع كهان غريب كيف لم يــر ذلك أجدادكم من قبل، ثم إنه ليبدو أن كل دراسة بروكلمان الموسوعية وكتاباته عن الأدب العربي ومعرفته لأساليب العرب ومن ثم أسلوب القرآن، إن كل ذلك ليبدو أنه لم ينفع بروكلمان بشيء، والعجيب في بروكلمان هذا بعد سبعين سنة دراسة وتأليف في الأدب والتاريخ العربي لا يرى في القرآن إلا أسلوب كاهن. .!!!

ونقول لبروكلمان: ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع رويدك يا صاح لا يدركنك العجز فيطلع رجل من أمتك ليذهب مشيراً إلى أن كل ما كتبته أيضاً ليس إلا من أساليب الكهان. . فإذا طلبتَ منه الدليل على ذلك أجابك ألست تزعم أن القرآن أسلوب كهان، وقد حضّر الدنيا ومدّن الشعوب باعتراف مستشرقيكم وكتاب الحضارة فيكم، فماذا فعلت أنت بكل كتاباتك، فإذا لم نجد لها أثراً في تطور الأمم فما أظن إلا أن أسلوبك أسلوب كاهن وليس كذلك القرآن. فإذا تأكد لهؤلاء ـ ومن افتراءاتك ـ أن كلامك ليس إلا من قبيل الدس والتشويه ولا حجة لك في ذلك ولا دليل أمكننا أن نسم كتاباتك عندئذ بأسلوب الكاهن.

ثم نقول لك كذلك: إذا كان القرآن أسلوب كهان فلماذا تتعبون أنفسكم في جامعاتكم وتجعلون لمن يدرس القرآن كرسياً جامعياً وتخصصاً عالياً أليس هو أسلوب كهان لا قيمة له فلم تحسبون حساب القرآن بهذا الشكل. وإذا كان القرآن كما يقول بروكلمان قد تلقاه النبي في حال غيبوبة ثم زعم أنه أوحاه إليه جبريل. ولنفترض أنه كذلك فلم خشيتكم ولم خوفكم طالما أن القرآن سجع كهان وكلام إنسان مصاب بالصرع كما يقول نولدكه. لم خشيتكم هذه يا أخي. ألا تعتقدون أن السجع المتكلف والكلام الباطل المتخيل لا بد زائل وحده مع الزمن. ؟ ليس الأمر كذلك ولكن الحقيقة التي تخشونها هي أن مدة أربعة عشر قرناً لم تستطع أن تبطل فعل هذا السجع ولا أسلوب الكاهن ولم تستطع أن تخرس هذا الصوت بل زادته حدة وانتشاراً وفتحاً مبيناً، وأنتم تعدون العدة لا لتقضوا على القرآن الذي هو سجع كهان بل لتقضوا على كتاب سماوي ترك ـ وما زال يترك ـ أثره في النفوس، نزل من حكيم حميد وتحدى الخلق جميعاً بما فيهم بروكلمان فإن كان القرآن سجع كهان فليأتنا بروكلمان بمثل سجعه وأسلوبه ومعانيه لنرى رأينا فيه عندئذ. إن أي قارئ للغة العربية يدرك لأول وهلة أسلوب القرآن المتميز عن جميع أساليب الكتاب والبلغاء، أما أن يدرس اللغة العربية ويكتب فيها بروكلمان أكثر من نصف قرن ثم لا يرى في القرآن إلا أسلوب كاهن. فهذا لا يعني إلا أن بروكلمان لم يفقه لغة العرب طوال هذه السنين أو أنه يتعامى عن قول الحقيقة، أما وقد ألف كتباً ومجلدات بلغة العرب

فما نظن أنه لم يدرك جمال أسلوب القرآن وتميزه والفارق الكبير بينه وبين سجع الكهان في العصر الجاهلي، وإذن لم يبق أمامنا إلا أنه تعامى عن قول الحقيقة متعمداً واستجابة لآراء مدرسته الاستشراقية الكنسية التي ينتسب إليها، ولهذا انتشرت كتبه وتردد صدى ذكره وذكر كتبه في الآفاق في حين أن زميله ـ ريسكه ـ الذي رفض أن ينصاع لآراء الكنيسة لم يجد وظيفة ولا حتى معلم في مدرسة ثانوية.

افتراءات متعمدة:

يقول المستشرق المسلم ناصر الدين دينيه: « إن أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكون يهاجموننا نحن المسلمين بالأباطيل ويحاربوننا بالمفتريات وإذا رحنا نحصي أكاذيبهم كانت فيها صفحة هي أسود الصفحات خزياً في سجل التعصب يشترك في تسويدها أعداء الإسلام قديمهم وحديثهم سواء منهم العلماء الرواد والقساوسة ورجال الحكومات والكتاب أمثال بيرون وبلجراف وجلاد ستون ومرجليوث والأب لا منس وغيرهم. وهم إنما يقدمون إلينا صوراً خيالية عن حياة محمد هي أبعد ما تكون عن الحقيقة، مصورة حسب منطقهم الغربي وخيالهم العصري »[٦].

فهؤلاء المستشرقون في كتاباتهم لسيرة الرسول لم يتبعوا المنهج الذي تمليه عليهم الحقيقة والبحث عنها وهو المنهج العلمي، وخاصة كتابة السير والتي تكون أشد ما تكون حاجة إلى ذلك المنهج. فكاتب

السيرة النبوية يجب أن يتجرد عن الشهوة والعصبية ويقدم على موضوعه وقد أبعد كل ما أوحته إليه الكنيسة من أباطيل عن الإسلام، وإلا ظل محكوماً بآرائها وأهدافها في تشويه الإسلام وعداوته، وكذلك على المستشرق أن يعتمد على الأخبار الصحيحة التي رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين فيعتمد على سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وأحاديث البخاري ومسلم وتاريخ الطبري وغيرها من المصادر الموثوقة والتي وصفها رينان ذات يوم: «حقاً إن لسيرة محمد العربية ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل». ثم على المستشرق كذلك دراسة البيئة العربية في مهدها مكة والمدينة والطائف حتى يتعرف على العادات والأفكار والقيم التي سادت فيها ومن ثم يعرف ماذا جد بعد ظهور الإسلام. وبعض هؤلاء المستشرقين درسوا السيرة النبوية حسب المنهج العلمي فكان أن أنصفوا النبي ﷺ كتوماس كارليل وغيره. وبعضهم استجاب لنزوات صليبية حاقدة فكان أن طعن في كل شيء. حتى صارت مطاعنهم تلك سخرية بهم. وبعضهم وقف بين بين، فمدح وقدح واستجاب لمنهجه مرة ولمدرسته الاستشراقية مرة أخرى.

هؤلاء المستشرقون طعنوا في سيرة النبي ولم يدعوا شيئاً دون تشويه وشككوا حتى في اسمه زاعمين أنه لم يُدع ـ محمداً ـ قط وأن حقيقة اسمه من الألغاز التي لا حل لها، وأن محمدا لقب ليس إلا. إذا كان اسم محمد من الألغاز فماذا يرون في مطانيوس وجورجوريوس

وميرجليوث؟. لعلها محلولة ألغازها حتى صارت بهذه الرقة والبساطة!! ثم كان أن طعن هؤلاء المستشرقون في يوم ميلاد النبي وعشيرته هاشم وقبيلته قريش، وطعنوا في أميته ورسائله إلى الملوك وطعنوا في أزواج النبي وغزواته وعظمة الرسالة التي جاء بها، وقد أحسن المستشرق المسلم ناصر الدين دينيه صنعاً عندما أبدى تخبط هؤلاء المستشرقين في الافتراءات التي ادعوها وخاصة لامانس الذي خرج عن طور التعقل في كل ما كتب حتى صار في النهاية أضحوكة بين الناس عندما زعم أن النبي ﷺ مات بالبطنة.

فعند ما سئل ـ دوزي ـ عن خلق محمد والسر في تأثيره العظيم على أبناء وطنه قال: «لعل رسول الله ـ كما كان يلقب نفسه ـ لم يكن أسمى من مواطنيه ولكن المؤكد أنه لم يكن يشبههم، كان صاحب خيال في حين أن العرب مجردون من الخيال وكان ذا طبيعة دينية ولم يكن العرب كذلك». ولكن هذا الوصف لم يعجب القس اللبناني لامانس فصرخ متأثراً بحقده الجارف ضد الإسلام:

«كان محمد يفتن البدوي الذي كان يرى ذاته في شخص النبي العربي كما كان يدعوه القرآن في هذا التفاعل، وفي هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته نجد أولاً وقبل كل شيء السر في هذا السلطان الضخم الذي كان لمحمد على مواطنيه».

وعندما سئل دوزي عن ميول النبي قبل البعثة قال: «كان يلتزم الصمت ويميل إلى التنزهات الطويلة وحيداً أو إلى التأملات المستغرقة في شعاب مكة». لكن لامانس يضرب بكل الحقيقة عرض الحائط ليقول: «كلا ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزلته فذلك لا يقف مع نفور محمد من الوحدة وكراهيته المشهورة للنسك» يقول هذا رغماً عن الحقائق الواردة في السير النبوية والمراجع الثابتة من أن الرسول ﷺ كان يتحنث في غار حراء وينفرد بنفسه وبربه ويستجمع ذهنه وشعوره وينصرف كل الانصراف عن العالم المادي مستغرقاً في التفكير في الله.

وعلى الرغم من أن المعروف أن رسول الله ﷺ أنه خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير. وكان يمر على آل محمد الشهر والشهران ولا يوقد في بيت من بيوت أزواج النبي نار، وأنه كثيراً ما كان أكلهم التمر والماء، وأنه ﷺ كان يعصب على بطنه الحجر من الجوع، ومع كل ذلك لا يكف لامانس عن وصف النبي بأنه أكول قد كثفت جسمه الملذات ومات بالبطنة. وهذا كما ترى دس وتشويه وافتراء واضح، والحقيقة أن لامانس هذا نفسه هو الذي كثفت الملذات عقله وليس جسمه فقط، فبدا وكأنه أصيب بتخمة العقل فراح يهذي بما لا يدري.

وعند هذا لم يعد في قوس المستشرق المسلم ـ دينيه ـ منزع من صبر فراح يفضح لامانس هذا ويظهر نواياه الخبيثة وأحقاده الدفينة فقال فيه:

« إن لامانس اليسوعي في أول كتابه عن محمد صاح متأوهاً من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الإنجيل التي كانوا بدؤو يذوقونها. ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب إدخاله في الإسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر، وهم عدد المسلمين يومئذ ومازال ينمو وينتشر في أفريقيا وآسيا بمرأى من المبشرين المسيحيين فلذلك عزم لامانس أن يشنها على الإسلام غارة شعواء ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الإسلام». [٧]

« إلا أن حالة عقلية كهذه ـ كما يقول دينيه ـ لا تلتئم مع بحث علمي مبني على تجرد من الهوى».

فأنت ترى أن دينيه ـ قد كشف عن كل أحقاد لامانس وأسبابها عنده، أن القرآن استهوى ثلاثمائة مليون من البشر وراح يطل راياته، وحتى ليكاد الحقد الأعمى يأكل قلب لامانس ويبدو لك واضحاً أن كل عداء المستشرقين للإسلام ليس إلا صليبية حاقدة على الدين، وهذا يخالف مبادئ المسيحية القائمة على الحب والسلام، أما أن يتهيأ لامانس ليشن حملة صليبية على الإسلام وأهله لمجرد أنه انتشر بين الشعوب فذلك منتهى الحقد، والعجيب أن الإسلام ينتشر رغم قلة وسائل أهله والمسيحية تتقلص على الرغم من استخدامهم مؤخراً الأقمار الصناعية في بث برامجهم في أنحاء مختلفة من العالم. ورغم ذلك فما زال قرآننا يناديهم: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

وقد ظلت هذه الأحقاد تتردد بين هؤلاء المستشرقين فمن رودلف ولوهيم إلى وقتنا الحاضر قام نيكولادكيز وفيفس ومراتس وهو تنج روبريدوا فوصفوا محمداً بأنه دجال (وحاشاه أن يكون كذلك) ووصفوا الإسلام بأنه مجموعة من الهرطقات وأنه من عمل الشيطان والمسلمون بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيج من السخافات، كما جاء في موسوعة لاروس الفرنسية عرضاً لآراء كتاب المسيحية في النصف الأول من القرن التاسع عشر على لسان من نالوا من رسول الله: «بقي محمد مع ذلك ساحراً ممعناً في فساد الخلق، لص نياق كردينالاً لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه واستولى القصص الخيالي الخليع على سيرته، وسيره (محمد) تكاد تقيم أدبا من هذا النوع»(٨).

إنك لتلمح الحقد واضحاً في هذه المقولة ونحن لم نحاول ذكرها وتفنيدها إلا لأن هذه أهون من أن نرد عليها ولكن لا بد مما ليس منه بد، أما كون محمد ساحراً فتلك فرية قديمة سبقهم بها كفار قريش يوم وصفوا رسول الله ﷺ بها ودافع القرآن عن رسول الله ونفى عنه السحر، وأما إمعان النبي في فساد الخلق فلا ندري كيف يقوّم هؤلاء الأشياء ويضعونها في غير مواضعها، فما عرف التاريخ رجلاً أنبل خلقاً ولا أعظم فضيلة من رسول الله حتى وصفه القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ولا ندري كيف تقبل مثل هذه الفرية من هؤلاء الفرنسيين وهم

بؤرة الفساد والإفساد الخلقي والتحلل الإنساني وحسبك بنوادي العراة دليلاً على أخلاقهم وتقدمهم، وأما ـ لص نياق ـ فنرد على هؤلاء بأن رسول الله وصفه أعداؤه من كفار قريش بالأمين، فكيف يطلع علينا هؤلاء الفرنسيون بعد أربعة عشر قرناً ليصفوا رسول الله بعكس ما كان عليه ولكن إذا لم تستح فافعل ما شئت، وموضوعية الفرنسيين تأبى عليهم إلا أن يجعلوا محمداً ﷺ طالب سلطة وحكم ورئاسة وشهرة وأنه عجز عن الوصول إلى ذلك. نقول لهؤلاء إن رسول الله ﷺ ما كان في يوم ما يتطلع إلى ملك أو سلطان أو جاه أو رئاسة ولما خيره جبريل بين نبي ملك أو نبي عبد اختار العبودية على الملك وأنت تعلم من السيرة النبوية أن كفار قريش سعوا إلى عمه أبي طالب ليتوسط لهم عنده إن كان يريد مالاً أعطوه أو زواجاً زوجوه أو رئاسة رأسوه عليهم ولكنه رفض كل ذلك إلا أن يحقق نشر رسالة الله في الأرض. لقد كان رسول الله ﷺ بين قومه في قريش وقبل البعثة في أحسن مكانة تقديراً واحتراماً وإعجاباً برأيه وأخلاقه فلم يكن في حاجة إلى مزيد من ذلك ولم يكن يتطلع إلى أن يرأس قومه أو يصير سيدهم، فكيف اخترع ديناً. هل الدين بتشريعه وأحكامه لعبة أطفال يصح لإنسان أن يخترعها، إن هؤلاء يظنون لفساد دينهم وعدم تلاؤمه مع العقل والمنطق ولجمود رجال الكنيسة عندهم يظنون أن كل الأديان كذلك. فاخترع ديناً؟ لينتقم من زملائه: من هم زملاؤه، لم تذكر كتب التاريخ والسير أن محمداً ﷺ كان يحقد على أحد أو يحقد عليه أحد وكيف يكون ذلك وقريش كلها تضع

أماناتها عنده وثقتها بخلقه، فكيف يصح أن ينتقم منهم، ولم وممن ينتقم؟ وتلك حملة تنبئك بأن الإسلام والقرآن من اختراع محمد ونقول لهؤلاء لقد سبقتمونا اليوم في ميادين الصناعة والاختراعات والكمبيوتر والأقمار الصناعية فهيا اخترعوا لنا ديناً أفضل من دين محمد، فلا يفوتنكم رسول الله في ذلك. فإذا عجزتم عن ذلك ـ وأنتم أعجز من أن تفعلوا ـ فما أراكم إلا تفترون الكذب وتشوهون الحقائق وتمعنون في الضلال وصدق الله فيكم ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ولكن يمنعهم الإيمانَ به العنتُ والكبرُ والحقد والفجور . وأما القصص الخيالي الخليع فليس له وجود في سيرة المصطفى إلا أن يكون في عقلية هؤلاء المستشرقين الذين طاشت عقولهم وراء نساء عاريات وسهرات مجون حمراء، وجري في ميادين العري والخلاعة والفجور.

وقد رد هذه الفرية على هؤلاء مواطنهم المستشرق الفرنسي أميل در منجهام فقال:

«لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية واتسعت هوة الخلاف. ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف، فمن البيزنطيين من أوقروا الإسلام احتقاراً أو تشنيعاً من غير أن يكلفوا أنفسهم ـ ما خلا جان داماسيين ـ مؤونة دراسته، وقد زعموا أن محمداً لص نياق بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً محنقاً لم ينتخب لكرسي البابوية وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرب له عباده الضحايا البشرية»[٩].

ونحن نقول للامنس ولهؤلاء جميعاً:

إذا ما كنت مفترياً كذبة فأحكم سداها مع اللحمة
ولا تتجن على المرسلين فإن الألبا ذوي فطنة

لا تتجنوا على المرسلين كما ظلمتم نبيكم عيسى عليه السلام فإن الألباء من البشر والعقلاء عندهم من الفطنة والذكاء ما يكشفون افتراءاتكم ويهتكون أستار بهتانكم.

افتراءات ويلز:

في فصل عنوانه ـ محمد يصبح نبياً منافحاً ـ نستمع إلى افتراءات ويلز على رسول الله يقول «لقد ظلت شخصية نبي الإسلام حتى الهجرة أي حتى أتم الحادية والخمسين من عمره موضوع تجاذب وتنازع بين أهل الرأي فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ وإنا لنستبين فيه رجلاً ذا قوة تصورية هائلة وإن كانت على طريقة العرب ولها أغلب مزايا البدوي وأهم نقائصه» . . «لم يكن محمد دجالاً بأي حال وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله»[١٠].

الرد على الافتراء:

هذه افتراءات لها صفة التعميم المبهم، والصياغة العامة التي لا تبين عن المقصود عند ويلز، بحيث رسمت صورة غامضة لشخصية النبي إذ جعلها موضع التجاذب والتنازع بين أهل الرأي، وليس نبينا وحده تنازع فيه أهل الرأي واختلفوا بل كل نبي وكل عظيم ومصلح في قومه إذا درست سيرته تجد أن الناس وقفوا منه فريقين مؤيد ومبغض، ولكن ويلز عبر عن ذلك بجملة غامضة أقرب إلى الطعن بالرسول، فشخصيته متنازع عليها ولم يقل لنا أكثر من ذلك. . ، ولكن الرسول ﷺ بعد تنازع الناس في فهم شخصيته إذ به بعد ذلك يسطع عليه ضياء التاريخ بعد سن الحادية والخمسين عندما هاجر إلى المدينة، فرغم اختلاف الناس في شخصية النبي إذا به يسطع عليه ضياء التاريخ في المدينة، وكأنما يستغرب ظهور نجم محمد ورفع راية الدين وكأنما حدث كل ذلك بدون سابق إعداد وصبر وتعب وتحمل من الرسول. وكيف يسطع ضياء التاريخ على إنسان ما دون سبب منه، كيف يحقق الإنسان أن يصبح عظيماً في أمته هل يكون شيء من ذلك إلا بعد بذل النفس والنفيس وهل يمكنك أن تسجل اسمك في صفحات التاريخ وأنت تلهو وتلعب وبالتالي هل يمكنك أن تقود أمتك إلى المجد لتصبح خير أمة دون بذل وعطاء؟.

إن ويلز هذا لا يملك ليصف عظمة نبينا وبذله وإعطاءه وأمجاد الإسلام التي حققها في حياته ومن بعده لا يملك أن يصفها إلا بقوله: «إن ضياء التاريخ بات يسطع على محمد».

ولكن لماذا يسطع على رسول الله ضياء التاريخ؟ كيف يسطع ضياء التاريخ على رجل مصاب بالغيبوبة عند بروكلمان، وبالصرع عند نولدكه ولا يدرك ما حدث له عند ويلز، رجل مثل هذا حدق فيه ويلز وببصيرته النفاذة استطاع أن يتبين السر الذي جعل من هذا الرجل يسطع عليه ضياء التاريخ فيما أوحى الله إليه من قرآن. وظن أنه فك اللغز المحير الذي حير هؤلاء المستشرقين جميعاً، فاستطاع أن يتبين أن السر وراء كل ذلك أن الرسول كان ذا قوة تصورية هائلة أي ذا خيال واسع جداً، فبينما تفاوتت آراء من قبله في تفسير الوحي وبينما جعله ويلز هذا يعرج على كنائس النصارى وبيع اليهود، طلع علينا ويلز ثانية بتفسير جديد للوحي بأنه ﷺ كان ذا خيال واسع أمكنه أن يصوغ به القرآن ومن ثم سطع عليه ضياء التاريخ، وقد سبق أن فسّر ويلز الوحي عند رسول الله باستلهامه ذلك من الكنائس: «يحتمل أن يكون قد مر على الكنائس في سوريا، ويكاد يكون محققاً أنه عرف الكثير عن اليهود وربما هداه اليهود إلى الاعتقاد بالرب الواحد». بهذه الصيغ التمريضية حاول تفسير الوحي ويظهر أنه فطن إلى أن كل ما فسر به الوحي من أسباب لا يستطيع إقناع طفل صغير، فكان أن رأى أن الرسول كان ذا خيال واسع بحيث أمكنه

تأليف القرآن. نقول: الخيال الواسع قد يسعف صاحبه في كتابه قصة طويلة أو نظم ديوان شعر أو ابتكار مخترع أما أن يسمح لصاحبه أن يوجد دينا وشريعة منظمة محكمة نظمت حياة البشر منذ أربعة عشر قرناً وحملت من النبوءات المستقبلية ما بقيت حتى أيامنا هذه، وحملت من الإشارات التاريخية في أخبار الأولين من المرسلين. خيالٌ بهذا الشكل يصنع حضارة أمة امتدت ثمانية قرون، ثم يأتي قوم ويلز بعد ذلك فيبنون حضارتهم عليها إلى أيامنا هذه. هل يمكنك أن تصدق أن كل ذلك تم عن طريق خيال إنسان واسع؟

ثم جعل ويلز شخصية النبي محمد متنازع عليها بين مد وجزر ـ وهذا تعبير تعميمي لا يفصح عن المراد ـ وكان عليه أن يحلل لنا لماذا وقف الناس من رسول الله موقفين وأيهما وقف منه الموقف الصائب وما هي أفكاره ومبادئه، لماذا تعددت الآراء في وصف شخصيته؟ كل ذلك لم يوضح لنا منه شيئاً، وإنما انتهى إلى أن ضياء التاريخ سطع عليه فجأة فكأنه قائد قام بانقلاب مفاجئ وتسلم القيادة ولم يرد بهذا الوصف إلا الطعن برسول الله بدليل أن شخصية النبي ما زالت تحمل مزايا البدوي وأهم نقائصه. ما هي هذه النقائص عند البدو والتي بقيت عند محمد ﷺ. حتى نعرف ماذا أراد ويلز بكلمته. إذن شخصية النبي في نظره متنازع عليها ورغم ذلك سطع عليها فجأة ضياء التاريخ وصارت معروفة بامتلاكها خيالاً واسعاً وما زالت شخصية بدوية لها مزايا البدوي

ونقائصه. ولم يقل لنا ماذا فعل النبي برسالته بهؤلاء البدو وكيف حولهم من أعراب بداة إلى قادة الأمم وصناع لحضارة مازال ويلز نفسه وقومه يعيشون على فتاتها. وانظر إلى المدح في صورة الذم: "لم يكن محمد دجالاً « وهذا ظاهره إنصاف لرسول الله » ولكنه قرن ذلك بقوله: « وإن كان اعتداده بنفسه في بعض الأحيان جعله يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ». وهذا طعن في الوحي أي أن القرآن لم يكن وحياً سماوياً وإنما أملاه عليه اعتداده بنفسه بعد أن سطع عليه ضياء التاريخ وامتلك مخيلة واسعة، كان أحياناً يخبر عن الله أقوالاً لم يقلها وكأن الله رهن إشارته أي أنه كان يفتعل الآيات فيزعم أنها. من عند الله، . بل هو قبل ذلك امتلك من المخيلة الواسعة ما جعله يقلد كلمات الله فإذا افتعل آية بدت لك كأنما أفكاره بالضرورة هي أفكار الله. أي إنه كان يؤلف القرآن وينسبه إلى الله فانظر كيف ينفي عن رسول الله كونه دجالاً والدجال هو الكذاب المفتري ثم يسمه بعد ذلك بأنه يقول ما لم يقله الله له ويتصرف كأنما كان الله رهن إشارته وهو يسبب من خياله الواسع يستطيع أن يوهمك بأن أفكاره كأنما هي أفكار الله. ونحن نأسف لويلز هذا ـ على علومه وثقافته ـ كيف لم يسطع عليه ضياء التاريخ هو الآخر فيخرج لنا مثلما أخرج محمد ﷺ، لعله يقول بأن ضياء التاريخ سطع عليه بما حمله أن يجد سبيلاً يطعن فيه النبي محمداً ﷺ والإسلام والمسلمين. ولكن ويلز وقد جعل رسول الله محمداً ينال شرف التوحيد عن طريق هداية بعض اليهود له، لم يشأ أن يبقيه في دائرة التوحيد الخالص فزاد

تلك الشبهة شبهة أعقد فزعم بأن: «النبي بعد كل إصراره على وحدانية الله قد داخله التردد فأتى ساحة الكعبة وأعلن أن أرباب وربات مكة قد تكون قبل كل شيء حقيقة وقد تكون كالقديسين ممن لهم قوة الشفاعة فلقي تراجعه حمية وحماسة ولكن لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم وذلك يدل على أن الخوف من الله كان ولا حرج يملأ قلبه، فما بدر منه في الأمانة دليل على أنه أمين. ومن ثم بذل كل ما في وسعه لإصلاح ما فرط منه فقال إن الشيطان قد تلبس لسانه ثم أخذ يسب الأصنام بقوة وعزم وبذلك تحدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة على صورة أشد ودون أي أمل آخر في الصلح»(١١).

هذه الحادثة وهي إصرار الرسول على الوحدانية في بداية أمره ثم ظهور التردد في أفكاره، وتسامحه مع أصنام الكفار ثم عودته ليجدد عداءه للأصنام، يقول ويلز نقلاً عن ماكس سيكس: «بأنها تثبت أن النبي كان عربياً صميماً. «لأن العرب لا يثبتون على رأي فسرعان ما يغيرون آراءهم وأفكارهم، فها أنت ذا تجد النبي ﷺ بعد أن تلقى التوحيد من اليهود وخلعوا عليه هذه الخلعة وتمسك بها وأعلنها في بداية الدعوة، ما لبث أن داخله الشك والتردد في كون هذا التوحيد صحيحاً، وقد بلغ هذا الشك في نفسه درجة جعله يذهب إلى ساحة الكعبة ويقف أمام الأصنام ويعلن لأهل مكة ولقريش ـ بأن أصنامكم هذه قد تكون آلهة حقيقية وقد يكون لها شرف القديسين. لا ندري من أين أتى ويلز بهذه

الافتراءات، مع العلم أن وجهة النبي في العبادة مغايرة تماماً لوجهة قريش ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وقد نزلت هذه السورة بالنفي. ثم ليجعل من القصة حقيقة أعلن عن تراجع محمد عن التوحيد وراح يمتدح الأصنام بحيث لقي مديحه لها الحماس من كفار قريش، وهذه افتراءات على رسول الله لم تحدث ولو حدثت لكانت حجة بالغة لكفار قريش بأن النبي يشك في توحيده وفي إلهه الذي يعبده. ولكن تصلب النبي في ذلك بلغ حداً جعله يغضب عمه عندما جاء وكفار قريش ليتوسط لهم لدى محمد ليكف عن دعوته وتشويه آلهتهم فكانت كلمة النبي الشهيرة التي تدل على عزم وتصميم: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». ولكن ويلز لم يدع النبي يمتدح الأصنام فترة طويلة وما لبث أن ندم على ذلك وأخذه شعور الخوف من الله وأسعفته أمانته التي عرف بها بين الناس بالتراجع عن رأيه وراح يعتذر لعباد الأصنام عن تغيير رأيه ويبرر موقفه بأنه عندما امتدح أصنامهم كان ذلك رغماً عنه حيث كان الشيطان قد تلبس على لسانه، وحيث لم يقبل عباد الأصنام هذا العذر صمم النبي على موقفه وجدد الكفاح ضد الأصنام ودون هوادة ودون أمل في الصلح بينه وبين كفار قريش.

والحقيقة أن ويلز يشير بهذه الفرية إلى قصة الغرانيق والتي رواها ابن سعد والطبري وتلقفها المستشرقون وألفوا منها رواية يطعنون فيها برسول الله، وقد رأوا في هذه القصة السبب الذي حمل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة على الرجوع بعد ثلاثة أشهر.

وخلاصة القصة أن محمداً ﷺ لما تجنبت قريش إيذاءه وإيذاء أصحابه تمنى ألا ينزل عليه شيء ينفرهم منه وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يوماً في ناد حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى إذا بلغ قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾. ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد في آخرها وسجد القوم جميعاً وأعلنت قريش عن رضاها عما تلا النبي. إذ قالت له: «إن آلهتنا هذه تشفع لنا عند الله أما إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك». وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم. وجلس النبي في بيته وقد كبر عليه قول قريش حتى إذا أمسى جاءه جبريل فعرض عليه سورة النجم. فقال جبريل أو جئتك بهاتين الكلمتين ـ مشيراً إلى «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى» قال محمد: «قلت على الله ما لم يقل»، ثم أوحى الله إليه ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾.

وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر ويسبهم وعادت قريش لمناوأته.

وقد أخذ السير وليم بهذه الرواية ورآهـا حجـة قاطعـة ليفسـر بـها سبب عودة المهاجرين إلى مكة بسرعة، ويرى د. محمد حسين هيكل أن حجج هؤلاء المستشرقين واهية جداً فالمسلمون إنما عـادوا مـن الحبشـة لسببين:

الأول: لأن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل ولم يخف إسلامه بـل دأب علـى نضـال قريـش حتـى صلـى عنـد الكعبـة وصلـى المسلمون معه كما أسلم من قبائل قريش وبيوتاتـها رجـال تثـور لقتل أي واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه، فـلا مفـر إذاً لقريـش مـن مهادنـة المسـلمين وهـذا مـا دعـا المـهاجرين إلـى الرجوع.

الثاني: هو أنه شبت يومئذ ثورة على النجاشي، وكان سبب ذلك عليه ما أثير من عطفه على المسلمين، أما وقد ترامت إليـهم أنبـاء الهدنـة بين محمـد وقريـش، فخير لـهم أن يدعـو الفتنـة وراء ظـهورهم ويلحقوا بأهليهم وهذا ما فعلوه ولكن ما كادوا يبلغون مكة حتى كانت قريش قـد ائتمـرت مـا تصنـع بمحمـد وصحبـه، واتفقـت وكتبت كتاباً على مقاطعة بني هاشم وبهذا الكتاب عادت الحرب بين الفريقين ورجع الذين عادوا من الحبشة.

إذاً ليس الصلح بسبب قصة الغرانيق ـ والذي ارتآه ويلز ـ وإنما دعاهم إلى الهدنة هذه إسلام عمر وحماسته في تأييد الدين (. .) وحجة أخرى ساقها المرحوم محمد عبده لتفنيد الغرانيق: «بأن وصف العرب آلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد في نظمهم ولا خطبهم ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم وإنما ورد الغرنيق والغرنوق اسمٌ لطائر مائي أسود أو أبيض أو الشاب الأبيض الجميل، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب، والحجة القاطعة على كذب قصة الغرانيق هو أن محمداً ﷺ لم يجرب عليه الكذب قط ـ وقد سمي بالأمين، فكيف نصدق أن يقول محمد على ربه ما لم يقله، وهو الذي لم يتراجع مع قريش في أية خطوة ومتى رجع في زعم هؤلاء بعد عشر سنين وبعد أن احتمل أصحابه في سبيل الرسالة ألوان العذاب وبعد أن صار المسلمون قوة لا يستهان بها. لا جرم أن القصة افتعلتها قريش لتحفظ ماء وجه آلهتها والإسلام يتعاظم.

بل ونحن لا نملك إلا أن نسخر ضاحكين لهذه الافتراءات التي تخالف كل ما جاء في السير النبوية والمراجع التاريخية من أن النبي من يوم أن أعلن عداوته للأصنام وصرح بوحدانية الله لم يتراجع قط عن رأيه، بل أن كفار قريش حاولوا أن يبذلوا له النفس والنفيس ليسودوه عليهم ويزوجوه أجمل بناتهم من أجل أن يتراجع عن ذلك فرفض. وعندما جاء كفار قريش إلى عمه من أجل ذلك لم يزعموا له إن ابن

أخيك هذا كل يوم يعلن إيمانه بإله. والحقيقة أن النبي لم يتراجع عن الوحدانية أبداً ولا مدح الأصنام ـ وآيات القرآن جلها في ذم الشرك والأصنام. وإنما كان ويلز هو الذي تراجع فبعد أن وصف النبي بالوحدانية التي أخذها من اليهود كأنما عز عليه أن يبقيه موحداً، بينما ويلز نفسه يؤمن بالثالوث فمضى يستعير مقولة ـ سيكس ـ في كون النبي تراجع عن رأيه وامتدح الأصنام فترة ثم ندم وعاد فهاجمها، كما أن الشيطان لم يكن قد تلبس لسان رسول الله وإنما تلبس لسان ويلز هنا فجعله يقدح بالنبي ﷺ والقرآن وجعله يتخبط في أقواله ليجعل محمداً ﷺ موحداً مرة، ومرة عابد صنم. .

لقد تفنن هؤلاء المستشرقون في كيفية تشويه الإسلام والقرآن والنبي عن طريق جملة من المزاعم والافتراءات المفتعلة والتي لا تتطابق مع العقول ولا تتلاقى مع المناهج العلمية التي ادعاها هؤلاء في دراسة سيرة المصطفى. ويظهر أن هؤلاء المستشرقين لم يتوجهوا إلى تلك الدراسات إلا بعد أن رأوا الشعوب جميعها، قد صحت من سكرة التنصير وعرفت حقيقة الثالوث الذي لم يعد يقنع أحداً. فلم تعد سوقهم تروج إلا على العميان من البشر، بعد أنه رأوا سوق الإسلام رائجة، وتوحيده ثابتاً لا يتزعزع، فكان أن طغوا وحسدوا وعزموا أن يجعلوها غارة شعواء حتى تطيح بالإسلام وأهله. ونقول لويلز هذا ولامانس وغيره من الحاقدين: رويدكم لا تصيبنكم الداهية فتقضي عليكم بهذه الحملة

الشوهاء التي تقومون بها. فقبلكم قام أجدادكم على الإسلام بتسع حملات ولم يستطيعوا أن ينالوا منه بشيء. ولكن يبدو أن الأحقاد التي كانت تغلي في قلوبهم وقلوب آبائهم ما زالت تتردد في صدور هؤلاء على الإسلام فالمستر جب يرى: «أن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في أوربا وأفريقيا والمسلم فقط هو العدو اللدود».

ولو سألت هؤلاء لماذا كان الإسلام هو العدو اللدود، لما كان جوابهم إلا لأن الإسلام ما زال يمد جناحيه على الأرض وما زال الناس يسارعون للدخول فيه من غير إكراه ولا إلزام، ولأنه الدين الوحيد الذي يتلاقى مع المنطق والعلم والعقل، ولأن هؤلاء الغربيين ما زالت تتلجلج في صدور أكثريتهم أصداء الحروب الصليبية، والأحقاد القديمة، في وقت بات الإنسان فيه على أعتاب القرن الحادي والعشرين.

افتراءات المستشرق جب:

يقول هذا المستشرق: [١٢]

١ـ «إن محمداً ككل شخصية مبتدعة قد تتأثر بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به ثم هو من جهة أخرى شق طريقاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه والدائرة في المكان الذي نشأ فيه».

٢ـ ويقول: « إن مكة كانت في حياة زاخرة بالتجارة والسياسة والدين وأنه وجدت فيها زعامة وزعماء وأنه وجد فيها ظلم اجتماعي بين سكانها وأن الرسول محمد انطبعت في نفسه كل هذه الجوانب وكان على وعي تام بها ترى آثارها في حياته وفي قرآنه وفي كفاحه إلى أن مات».

٣ـ ويقول: «ومحمد في البداية لم يكن على علم بأنه صاحب دعوة إلى دين جديد بل كانت معارضة المكيين له وخصومتهم له من مرحلة إلى أخرى هي التي قادته أخيراً وهو بالمدينة بعد أن هاجر إليها إلى إعلان الإسلام كجماعة دينية جديدة بإيمانها الخاص. . ».

٤ـ ويقول مفسراً معارضة المكيين لرسول الله: «لم يكن سبب معارضته هو محافظتهم وتمسكهم بالقديم ولا عدم رغبتهم في الإيمان وإنما لأسباب سياسة واقتصادية إذ تملكهم الخوف من آثار دعوته التي تؤثر على ازدهارهم الاقتصادي».

٥ـ وقمة الباطل عنده ادعاؤه: أن القرآن كان أثراً من آثار إحساس الرسول بالظلم الاجتماعي الذي ساد أهل مكة وأن أثر هذا الإحساس ـ وهو القرآن ـ بدا واضحاً في حياة الرسول إلى أن مات.

الردود:

١ - قيل الإنسان ابن بيئته التي يحيا فيها، يتأثر بها ويؤثر فيها، وفي ميدان التأثير والتأثر يتفاوت أبناء المجتمع في كل بيئة سلباً وإيجاباً، وبقدر ما تكون عليه ثقافة الواحد منهم وعلومه ومعارفه يكون تأثيره أوضح ولا يمكنك أن تجعل عالمهم كجاهلهم من حيث التأثير والتأثر واحداً، وقد يصل الأمر بأحد هؤلاء أن يخرج عن دائرة محيط بيئته وعلى أفكارها ودينها وحضارتها إذا لم تكن على المستوى المطلوب الذي يراه أو يريده لها، وما عمل المصلحين إلاّ جانب من تلك الجوانب التي يبدو فيه خروج هؤلاء المصلحين عن أفكار وعقائد أممهم، وهذا أمر شائع بين كل الأمم. وما تزال الأمم تفخر بأولئك المصلحين والقادة والزعماء السياسيين والدينيين لما أبدوه من وسائل لإصلاح لمجتمعاتهم، وما بذلوه من أجل السير بأممهم في طريق المجد والعزة والكرامة.

فالسيد المسيح عليه السلام وموسى عليه السلام والأنبياء والزعماء كغاندي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم إنما بذلوا حياتهم من أجل نقل مجتمعاتهم إلى أقوم سبيل، مهما أصابهم من إيذاء وظلم واضطهاد.

والإنسان في أية بيئة إما أن يسير في ركب مجتمعه يحسن إن أحسنوا ويسيء إن أساءوا أو يعتزل هذا المجتمع، أو يجهد نفسه في إصلاحه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً متحملاً كل إيذاء وقتل وتشريد

وتلك هي قمة العطاء والكرم أن تجعل من نفسك جسراً تعبر الأمة فوقه إلى بناء سعادتها ومستقبلها الفاضل وعقيدتها الصحيحة.

ورسول الله ﷺ لا يخرج في حياته أن يكون واحداً من هؤلاء فهو بشر يتأثر ويؤثر فقد كان يعمل ويشتغل بالتجارة والرعي في قومه وإن كان جانبهم فيما كان يتحلى به من خلق وفضيلة حتى عرف عندهم بالأمين، فصار موضع ثقة قريش كلها وصاروا وهم على غير دينه يودعونه أماناتهم أي أن دوره في مجتمعه لم يكن هامشياً وكل هذا كان قبل بعثة محمد ﷺ وإذا كان النبي ﷺ قد شارك قومه في أعمالهم إلا أنه كان يتميز عنهم بما كان يعتقده قبل البعثة من مبادئ وقيم وعقيدة، فقد كان قومه عباد أصنام ولكل قبيلة صنمها داخل البيت الحرام تحج إليه وتذبح من أجله، فكان ﷺ لا يكره شيئاً كراهيته للأصنام، ولم يكن في شخصية النبي ما يدفع قومه للوقوف في وجهه إلا كونه ـ عندما بعث إليه ـ وأعلن رسالة التوحيد فكان أن خالفوه وتشبثوا بأصنامهم على الرغم من محاورة النبي لهم حواراً هادئاً وبحجج مقنعة لا مفر لهم منها إلا أن يسلموا لها. ولكن تقليدهم للآباء والأجداد، وحفاظهم على تراثهم من الأصنام، كبر عليهم تركه فكان أن وقفوا في وجه دعوة النبي.

ونحن لا نحكم على أية شخصية ما من البشر إلا من خلال ما أحدثته في مجتمعها، فما تبتدعه أية شخصية في مجتمع ما إنما يكون حسناً أو قبيحاً بمقدار ما يتلاقى مع العقل والحكمة أو يرفضهما فليس

لك أن تسمي أي إنسان عاقل أو حكيم أو سياسي خرج على سياسة أو عقيدة أو أفكار مجتمعه مبتدعاً ـ كصفة تقصد منها ذم هذه الشخصية فالنبي ﷺ وإن كان يخالف قومه في عقيدتهم وعبادتهم للأصنام إلا أن هذه الظروف ليس لها أي دخل في ـ نزول القرآن ـ والنبي ﷺ لم يبتدع القرآن ولم يؤلفه ـ كما يريد جب ـ وهو لم يشق طريقاً مخالفاً لقومه لأنه كان لا يرضى عن أصنامهم، بل لأن الله تعالى أوحى إليه كتاباً سماوياً وأمره أن يجهر بهذا الدين ـ وقد عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي قبل أن نوحي إليك بالقرآن.

في رأي جب أن النبي شق طريقاً وسط أفكار وعقائد قومه الباطلة، ولا بد أن يكون هنالك سبب عند هؤلاء المستشرقين أدى بالنبي أن يعبر ذلك الطريق أو يحمله على دعوته تلك، أما عندنا فالسبب هو كونه رسولاً أوحى الله إليه بالقرآن، وأمر بالدعوة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] ولكن هؤلاء المستشرقين لا يؤمنون برسالة وخاصة الإسلام فلا بد من إيجاد سبب آخر جعل النبي يبتدع هذا الدين.

في رأي جب أن مكة كانت مركزاً تجارياً زاخراً بالتجارة وهي ملتقى القوافل، وزاخرة بالدين ما بين نصرانية ويهودية وعبادة أصنام وشموس وأقمار. وقد كانت ميداناً لتنافس زعامات القبائل وخاصة قريش، ولم يمنع هذه الزعامات من تحكم السادة ببقية أبناء البلدة،

تحكم الظالم بالمظلوم، وأن النبي ﷺ رأى ذلك وأحسّ به، وعلقت هذه الصورة الظالمة لمجتمعه في ذهنه، فقام ينعي على هؤلاء ظلمهم وكان من أثر إحساس الرسول بذلك الظلم الاجتماعي أن ألف ـ القرآن ـ أي أن القرآن ليس من عند الله وإنما هو أحاسيس ومشاعر تحسسها رسول الله في مكة وانفعل بها فكان أن كتب القرآن . هذه واحدة.

والفرية الأخرى أن أهل مكة لم يعارضوا رسول الله بسبب تمسكهم بالأصنام وعدم رغبتهم في الإيمان بل لأسباب سياسية واقتصادية إذ خافوا أن يؤثر ذلك على ازدهارهم الاقتصادي وهذه ثانية.

أما الفرية الثالثة فهي أن معارضة المكيين هي التي حملت الرسول في المدينة بعد هجرته على إعلان الإسلام كدين جديد والمسلمين كجماعة دينية جديدة. .

في الرد على هذه الافتراءات نقول:

يرى ـ جب ـ أن معارضة المشركين لرسول الله ﷺ لم تكن بسبب تمسكهم بالأصنام وعدم رغبتهم في الإيمان بل كان لأسباب سياسية واقتصادية إذ خافوا أن يؤثر ذلك على ازدهارهم الاقتصادي. ويرى أن القرآن الكريم ليس وحياً سماوياً بل هو أثر من آثار إحساس الرسول بالظلم الاجتماعي الذي ساد مكة.

الردود:

لم يقل لنا جب هل هذه ميزة امتاز بها النبي محمد وحده أم شاركه أحد غيره في ذلك ونعني بها أن إحساس الرسول بالظلم جعله يضع القرآن. إذ أن التاريخ يحكي لنا عشرات القصص عن مضطهدين لاقوا من الظلم أضعاف ما لاقاه أهل مكة، وقام من حولهم مصلحون منكرون للظلم ولكن لم نعرف أنهم بلغت بهم درجة التحسس بالظلم إلى أن ترتب على ذلك وضع كتاب له سمة الرسالة السماوية ويحمل من الأخبار التاريخية والنبوءات العلمية المستقبلية ما لا يزال العلماء يكتشفون أسراره مثل القرآن. وأدوار التاريخ عامرة بملوك ظلمة أشد مما كان زعماء مكة يظلمون أهلها فكيف ترتب على إحساس النبي بالظلم أن يضع قرآناً ولم يترتب على ذلك في بقية الأمم التي كان الظلم فيها أضعاف أضعاف ما عانى أهل مكة. . ؟ كيف لم يستطع المصلحون والمتحمسون للظلم في تلك الأمم أن يضعوا مثلماً وضع محمد ﷺ مع الفارق الكبير بين هؤلاء وبين النبي، إذ أنه كان منهم ملوك ورؤساء جمهوريات (ابراهام لنكولن). ورسول الله لم يكن إلا محمداً (اليتيم الأمي الفقير لعله يقول إن النبي كان يملك إحساساً ومشاعر بالغة تميز بها عن غيره من البشر بحيث أمكنه أن يقول ذلك أو كانت له مخيلة واسعة ـ كما ادعى ويلز ـ أمكنه بها أن يتحسس الظلم ويتحول هذا الإحساس إلى قرآن يتلى ولكن إذا عرفنا أن رسول الله ليس إلا بشراً

كالناس تماماً في هذه الأحاسيس ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أدركنا أننا نرفض دعوى جب تلك في أن القرآن الكريم أثر من آثار تحسس النبي للظلم الذي وقع على أهل مكة. ليزيل عنه صفة أنه وحي إلهي. ولنفترض أن الأمر كان كذلك وقد زال الظلم منذ أربعة عشر قرناً فبماذا سيفسر جب هذا بقاء القرآن فاعلاً ومؤثراً في الأمم الإسلامية، هل سيقول أن تحسس محمد بالظلم أيضاً هو الذي أملى على القرآن سمة الخلود إلى أيامنا هذه. وهذا من أعجب العجب عندئذ فكيف لم يترتب مثل ذلك على كل الكتب التي كتبها المصلحون في سبيل ردع الظلم وفي سبيل الحفاظ على حقوق الإنسان وهم من الكثرة بحيث لا تخلو منهم أمة من الأمم وحتى في قوم جب نفسه، فلماذا لم يترتب على هؤلاء تأليف كتاب مثل القرآن له سمة الخلود كل هذه القرون وتهيأ ذلك لرسول الله؟ إن تميز الرسول عن هؤلاء هنا ليبدو غريباً. والحقيقة هي كما قال تعالى على لسان نبيه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ فالقرآن وحي سماوي وليس من تأليف محمد بن عبد الله. .

أما معارضة أهل مكة لرسول الله فبعضهم عارض الرسول ودعوته حباً في الزعامة والرئاسة وهذا صحيح. فالزعامة السياسية في قريش كانت ولا ريب سبباً له قيمته في المعارضة، ولهذا طمع رسول الله ﷺ ذات يوم عندما جاءه هؤلاء الزعماء ـ وقد حضر عبد الله بن أم مكتوم

الأعمى- في إسلامهم فقدم الاجتماع بهم وأخر عبد الله بن أم مكتوم لأن هؤلاء إن أسلموا فقد أسلمت مكة كلها، ورغم ذلك انتصر الله للأعمى في سورة نزلت عتاباً للنبي إلى يوم القيامة «عبس وتولى أن جاءه الأعمى» ومن هؤلاء الزعماء أبو سفيان الذي ظل يخاف على هذه الزعامة حتى أواخر حياة النبي فلم يسلم إلا يوم فتح مكة في السنة ٨هـ. ومثله في ذلك عبد الله بن أبي بن سلول والذي كانت النسوة تغزل له تاج الزعامة يوم أعلن رسول الله ﷺ قيام دولة الإسلام. وهذه الزعامة أثبتها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فرد الله عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]..

فحبهم للزعامة أبى عليهم أن يقروا بالقرآن الذي نزل على يتيم أبي طالب، ولم ينزل على رجل من سادات مكة كأبي سفيان أو غيره ورغم صحة أن حبهم للزعامة جعلهم يعارضون دعوة النبي إلا أن ذلك لا يعني أن دعوة النبي لهم إلى نبذُ الأصنام لم يكن لها أثر في معارضتهم له، فها هو أبو سفيان بعيد انتصار المشركين يرقى تلة ويصيح: أعل هبل أعل هبل. .

أما أن يعارضوا دعوة النبي ﷺ من أجل خوفهم وتأثرهم على ازدهارهم الاقتصادي فليس لذلك كبير أثر كما يرى جب ذلك. وكأنما

جب كان يظن أن الرسول سيطبق عليهم نظاماً اشتراكياً في بلد رأسمالي أو نظاماً رأسمالياً في بلد شيوعي حتى يقع الخوف عندهم فقد جهر رسول الله بدعوته وعارضوه وقاوموه وما زاولوا يتاجرون إلى الشام واليمن وما زال اقتصادهم ينمو ويزيد، وقد منَّ الله على قريش في ذلك ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فلم تكن دعوة النبي لتتعارض مع اقتصاد قريش ولم تنقصها بل إن الصحابة أنفسهم عند مضايقة كفار قريش لهم - خاصة عند الهجرة - كانوا يتركون لهم تجارتهم وأموالهم وبيوتهم فراراً بدينهم مما يترتب عليه زيادة اقتصاد قريش لا الخوف عليه، ويوم جاء كفار قريش إلى عمه أبي طالب وعرضوا عليه أن يعطوه ما شاء من مال إن كان يريد المال أو يزوجوه أجمل بناتهم إن كان يريد الزواج أو يسودوه عليهم إن كان يريد السيادة، لم يكن في ظنهم يومئذ من عرض ذلك على النبي خوفهم على اقتصادهم وإنما عرضوا ذلك على النبي ليكف عن دعوته لهم في عبادة إله واحد وأن يكف عن سبه لأصنامهم واحتقارها. بل لم يكن القرآن يومئذ قد رسم صورة لمنهج اقتصادي درسه كفار قريش وخافوا منه.

وإذا كان تملكهم الخوف على تجارتهم قبيل غزوة بدر - بتعرض رسول الله والمسلمين لها - فهم أعلم الناس يومئذ بأن المسلمين ما أقدموا على ذلك في بدر إلا تعويضاً لما أخذه كفار قريش منهم من نهب

الأموال وسلبها من هؤلاء الضعفاء، وكيف يخافون على اقتصادهم وهم أصحاب الحول والقوة والمسلمون مستضعفون في مكة. ثم إن نظام الإسلام لما اكتمل تبين بعد ذلك للجميع أنه نظام تكافل اجتماعي واقتصادي يضمن السعادة للجميع فليس ثمة خوف منه لا عند الزعماء ولا عند المستضعفين، لا عند المسلمين ولا عند غير المسلمين. إذن ماذا يقصد جب من فريته تلك؟ يقصد بذلك أن دعوة النبي إلى التوحيد لم يكن لها أثر كبير على قريش بقدر ما كانوا يخافون خسران ميزانهم الاقتصادي ولهذا لم يبالوا بها فهم لم يعارضوه ـ في رأي جب ـ لأنه أتى بدين جديد يعارض معتقداتهم ويسفه أحلامهم وإنما عارضوه خشية على ازدهارهم الاقتصادي، وغرض جب من هذا أن يدلل بأن القرآن الكريم ما هو إلا أثر من آثار إحساس الرسول بالظلم الاجتماعي الذي ساد مكة ـ وليس وحياً من عند الله ـ إذن فأهل مكة خافوا على اقتصادهم فعارضوا دعوة رسول الله، ورسول الله أحس بالظلم الواقع على ضعفاء مكة فكان من إحساسه أن وضع القرآن. فانظر إلى هذا الربط بين خوف زعماء مكة على اقتصاد بلدهم، ليتسنى له أن يجعل الرسول ﷺ يتحسس الظلم الواقع على الضعفاء ثم يتأثر لكل ذلك فيروح يضع القرآن. ويظل يؤلف القرآن حتى آخر حياته إلى أن مات، كل هذا ليتم لجب تفسير أن القرآن نزل منجماً في ٢٣ عاماً. ولهذا يقول جب: «ترى آثار تحسس الرسول للظلم في حياته وفي قرآنه وفي كفاحه إلى أن مات».

فالقرآن إذاً قرآن محمد وليس كلام الله، ومحمد بعد هذا ليس أكثر من مصلح اجتماعي في مكة رأى ظلماً في قومه وأحس بفداحة هذا الظلم فحاول إصلاح ذلك فألف القرآن. ثم مضى زمانه، وتغيرت الظروف فلم إذاً تنادون أيها المسلمون بالإسلام وتزعمون أن القرآن كتاب عالمي نزل للناس جميعاً، لقد أدى دوره وانتهى. . هذا ما أراد أن يقوله جب .

يخيل إلي أن ـ جب ـ هذا يكاد ينفلق غيظاً وهو يرى الإسلام ينتشر، والقرآن تخفق راياته في كل البلدان ويقوم قوم جب نفسه بترجمة معانيه، وها هي ترتفع رايات التوحيد في كل مكان.

فهو يرى أن الظلم الاجتماعي الذي أصاب ضعفاء قريش من زعمائها قد انطبع في نفس النبي ودعاه إلى أن يؤلف القرآن. ماذا يريد جب أن يقول لنفترض ذلك كان كما قال ومن حوله اليوم عشرات الفلاسفة وأصحاب المذاهب الذين وضعوا نظرياتهم في بناء مجتمعاتهم والقضاء على الظلم وها نحن نراهم قد أتوا بنظريات تجاوزتها الشعوب لسخافتها ولتعارضها مع متطلبات المجتمعات الإنسانية الراقية، فما سر بقاء القرآن ودعوته طوال هذه القرون؟ وهل يمكن تصور دعوة الإسلام عندئذ على أنها دعوة محمدية فردية ليس لها علاقة بإله، إن هذا يبدو بالقياس إلى أصحاب الثورات والمبادئ أمراً عجباً!! فالشيوعية انتهت خلال سبعين عاماً والرأسمالية ما تزال تتخبط في طريقها، والمذاهب

الفلسفية أيضاً أفلست في حل مشاكل الإنسان، وما زالت دعوة محمد ﷺ تخترق الآفاق. فهل يستطيع جب أن يفسر لنا ـ وقد زال خوف أهل مكة على اقتصادهم ـ لماذا بقي الإسلام والقرآن بعدهم إذا كانت معارضتهم لرسول الله بسبب الخوف على اقتصادهم؟ وهل ما زال يرى أن القرآن الكريم محدود بزمن أو بيئة أو ظلم وقع على أهل مكة فتحسسه النبي. . أليس بقاء القرآن والإسلام بعد ذلك دليلاً على أن الشعوب جميعاً بعد ذلك ـ والمكيين من قبل ـ أدركوا حقيقة أن الأصنام آلهة لا تضر ولا تنفع وأن القرآن ليس من تأليف محمد، وقد أعجزهم أن يأتوا بمثله في الفصاحة والبلاغة، بل أن يأتوا بمثله نظام حياة وقانون دولة. وأن الإسلام ليس دين زعامة ورئاسة وأن النبي لم يكن يريد الزعامة ولا الحكم ولا السلطان. وقد رأوا من أخلاقه في ذلك وتواضعه ونبذه للدنيا وحكمه بالعدل فيما بينهم ما جعلهم يطمئنون إليه فسارعوا إلى الدخول في دين الله أفواجاً. وأن الإسلام لم ينقصهم شيئاً من دنياهم التي كانوا يطلبونها ولا اقتصادهم الذي زعم جب أن معارضتهم للنبي كانت من أجله. فها هو أبو سفيان عند إسلامه يمنحه النبي ثلاث مئة ناقة ولكل من ولديه مائة ناقة، وها هو يسوي بين المسلمين، فأين هو الخوف عند زعماء مكة على ازدهارهم الاقتصادي؟ .

وإذا كان القـرآن الكريـم أثـر مـن آثـار إحسـاس الرسـول بـالظلم الاجتماعي وقد بقي النبي ﷺ يضع الآيات حتى آخر حياتـه كمـا يقـول جب فها هو الظلم الاجتماعي قد انتهى بفتح مكة عام ٨ هـ، فبـم سيفسر جب الآيات التي نزلت بعـد ذلـك هـل وضعـها رسـول الله بسـبب الظلـم الاجتماعي غير الموجود؟.

وهل ما زال جب يرى في القرآن الكريم كتـاب مصلـح اجتمـاعي ليس إلا، وعندما يخترق المسلمون حـدود جزيرتـهم وينشـرون الإسـلام ويبنون حضارة عالمية لمدة ثمانية قـرون امتدحـها قـوم جـب نفسـه فـهل يمكن بعد كل ذلك أن نعتقد بفرية جب هذه؟.

أما الفرية الأخيرة فهو يرى أن: «محمد في البداية لـم يكـن نفسـه على علم بأنه صاحب دعوة إلى دين جديـد وكـان معارضـة المكيـين لـه وخصومتهم له قادته وهو في المدينة إلى إعـلان الإسـلام كجماعـة دينيـة جديدة».

أما أن رسول الله لم يكن على علم في البدايـة بأنـه صـاحب دعـوة إلى دين جديد فهذا صحيح، فلم يكن يعلم أنه سيبعث رسولاً إلى النـاس كافة وكذلك أصحاب الدعوات من الأنبياء لم يكونوا يعرفون ذلك حتـى يوحى إليهم من قبـل الله، ولكـن لمـا أذن الله ببعثتـه ونـزل عليـه جـبريل بآيات القرآن عرف أنه رسول الله ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُـمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٥٨] وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَـالَمِينَ﴾. هـذا

إلى جانب التبشير بإرساله كنبي آخر الزمان في التوراة والإنجيل وقد كان اليهود يعلمون ذلك حق العلم. ولهذا كانوا يهددون الأوس والخزرج بأنه سيبعث نبي تؤمن به ثم نستأصلكم من جزيرة العرب، فلما عرفوا أن النبي عربي عارضوه ووقفوا في طريق دعوته.

ولكن جب لم يعلق بشيء على أحداث الوحي السماوي لأنه يريد أن يطعن فيه، ولأنه سبق أن فسر القرآن الكريم بإحساس الظلم الذي شعر به النبي فكان أن ألف القرآن.

فلما زاد خوف أهل مكة على اقتصادهم عارضوا النبي وما زالوا به حتى هاجر، وهناك أعلن النبي ﷺ عن قيام دولة الإسلام، فالإسلام - في رأي جب - ليس أكثر من ردة فعل من النبي عند معارضة أهل مكة له. وكأن الإسلام دعوة محمدية ليس لها علاقة بالإله ولا بالوحي، وكأن النبي إنسان عادي جاء بدعوة إصلاح الظلم فعارضه قومه واضطروه إلى الهجرة وهناك بشر بالإسلام. وأعلن عن جماعة دينية جديدة لها إيمانها الخاص. إذاً فالإسلام ليس دعوة عالمية وإنما هو دعوة محدودة بين مكة والمدينة الغرض منها إزالة ظلم وقع على ضعفاء أهل مكة، وقد تم ذلك بإعلان الرسول عن الإسلام وقد أزيل هذا الظلم بعد ذلك فعلى العرب والناس جميعاً أن يتجاوزوا هذه الدعوة التي انتهى زمانها، ويبحثوا عن مذاهب فلسفية وفكرية جديدة تتلاءم مع تطور الحياة والرقي الإنساني. والعجيب بعد ذلك رغم كل مذاهب أوربا النصرانية الجديدة ورغم

استعمارهم لبلاد العرب والإسلام والعجيب أن هذه الجماعة الدينية الجديدة التي يصنعها محمد لم تنته أفكارها ولم تفقد جدتها ولا بريقها وما زالت تمتد إلى أفريقيا وآسيا وإلى أوربا نفسها، وقد بلغت من القوة والعقلانية والمنطق ما رواه لنا الدكتور موريس بوكاي: «من أن مسيحيين كاثوليك على أعلى المستويات قاموا بإصدار وثيقة صادرة عن سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين عنوانها «توجيهات لإقامة حوار بين المسلمين والمسيحيين» عام ١٩٧٠ حيث طالبت تلك التوجيهات «بمراجعة مواقفنا إزاء الإسلام وبنقد أحكامنا السابقة» و «علينا أن نهتم أولاً بأن نغير تدريجياً من عقلية إخواننا المسيحيين» ويجب التخلي «عن الصورة البالية التي ورثنا الماضي إياها أو شوهتها الفريات والأحكام المسبقة» كما «يجب الاعتراف بالمظالم التي ارتكبها الغرب المسيحي في حق المسلمين»، «وعلينا أن نتطهر وبعمق من عقلياتنا ومن أحكامنا المجهزة التي كثيراً ما نصورها باستخفاف على الإسلام».

وانتهت الوثيقة بأن الله عند المسلم ليس إلهاً آخر سوى رب موسى والمسيح. «وإننا نرى باطلاً أن نتمسك مع بعض الغربيين بأن الله ليس هو إله حقيقة، ولقد أدانت نصوص مجمع أساقفة الفاتيكان الثاني مثل هذا الزعم بالعبارة «إن المسلمين الذين يؤمنون بإبراهيم يعبدون معنا إلهاً واحداً هو الرحيم ديان البشر في اليوم الآخر. . »(١٣)

وقد أشار د. موريس بوكاي كذلك إلى تعمد هؤلاء المستشرقين عن البحث في قضية الوحي والتنزيل فقال: «إن الاستعمال السائد حتى اليوم مثل الدين المحمدي أو «المحمديون» ليدل على الرغبة في أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطئ القائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل وأنه ليس لله مكان في تلك المعتقدات. كما نضيف إلى أن كثيراً من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية في الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامي بصورة خاصة كما كان يجب أن يفعلوه، ويرون من البديهيات أن محمداً ﷺ قد اعتمد على ما سبقه وذلك بقصد استبعاد قضية الوحي منذ البدء»[١٤].

كما أشار د. بوكاي إلى المنهج الذي يتبعه هؤلاء فقال: «هناك بعض أوساط مسيحية تحتقر المسلمين وقد خبرت هذا حين حاولت إقامة حوار من أجل دراسة مقارنة حول عدد من الأخبار المذكورة في القرآن والتوراة معاً في موضوع واحد، ولاحظت أن هناك رفضاً تاماً للنظر بعين الاعتبار ولو لمجرد التأمل فيما يحتويه القرآن مما يتعلق بموضوع الدراسة المزمعة كأن الرجوع في ذلك إلى القرآن يعني الاعتماد على الشيطان»[١٥].

فهل يا ترى ما زال جب وتابعيه من المستشرقين يرون في الإسلام ما هو إلا أفكار إصلاحية تجاوزها الزمن، وأن القرآن ما هو إلا إحساس النبي بالظلم الذي وقع على أهل مكة؟

ولعمري أن كل افتراءات المستشرقين ليست إلا من إحساسهم بانتشار الإسلام في العالم وأنه راح يغزوهم في عقر دورهم وأنهم لا يملكون إيقاف تياره الهادر. فراحوا يطعنون في جوانبه المضيئة، ولا ندري هل معارضتهم الصاخبة للإسلام في أوربا وأمريكا. وحيث يرون الإسلام ظلماً للعقول والأفكار أن تدين به، لا ندري هل سيلزمهم ذلك على أن يقوم واحدهم ليأتي بدين جديد وقرآن جديد - كما زعم جب - أو قياساً على ما زعمه جب من أن محمداً ﷺ جاء بالقرآن إحساساً منه بالظلم الذي وقع على أهل مكة. وقياساً على ذلك يجب أن يترتب عليهم ظهور مصلح جديد في بلدانهم يتحسسّ الظلم الذي يطرحه الإسلام في بلدانهم، وهم يعارضونه اليوم بأشد من معارضة أهل مكة للنبي محمد، ويجب أن يترتب على ذلك المصلح وضع كتاب كالقرآن تكون له صفة العالمية حتى يصح لنا أن نقبل تأويل جب للقرآن. ونحن ملزمون لذلك أن نقبل تفسير المسلمين لظهور قرآنهم عن طريق الوحي السماوي جبريل، وأنه كلام الله وليس كلام مخلوق.

إن معظم هؤلاء المستشرقين استلوا كلمة ـ الوحي ـ من القرآن وراحوا يفسرونها بعيداً عن نصوص القرآن وبحسب أهوائهم ونوازعهم، وهذه معاندة للعقل والعلم. وفي تفسيراتهم للوحي التي مرت بنا عند ماكدونالد وويلز ونولدكه وبروكلمان ومرجليوث تجدهم يعمدون إلى تفسيرات خيالية الغاية منها التهرب من الإقرار بنبوة محمد ﷺ، إذ هي تفسيرات أطلعناك على تهافتها وتعمدها الضلال والإضلال والتشويه، وقد عرفت أن ظاهرة الوحي ليست إلهاماً داخلياً ولا حديث نفس وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس، وليس هو إحساس بالظلم تحسسه النبي فأملى عليه القرآن، وليس هو من فيض مخيلة فياضة امتلكها النبي كما ادعى ويلز وليس هو بسبب الصرع الذي ادعاه نولدكه وليس هو سجع كهان كما يرى بروكلمان.

وإنما هو تنزيل من حكيم حميد. ما كان لرسول الله أن يعلم عنه شيئاً لولا إخبار الله له ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] إن ما كشفه العلم اليوم مما احتواه القرآن بين دفتيه من نبوءات تاريخية وعلمية يثبت أن القرآن ليس كلام بشر. بل هو كلام الذي يعلم السر وأخفى، يعلم

الحاضر والمستقبل، لقد عرف العلم اليوم أن الذبابة إذا وقعت على طعامها فإنها تفرز مادة عليه مباشرة فتهضمه ثم تبتلعه مهضوماً مباشرة وجاء القرآن الكريم قبل العلم بـ ١٤ قرناً مؤكداً هذه الحقيقة ومتحدياً الكفار. ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لماذا لأنهم لوا ستنقذوه فسيكون قد هضم من قبل. فهل عرف محمد ﷺ هذه الحقيقة العلمية قبل أربعة عشر قرناً بفعل الظلم الذي تحسسه في قومه أو بفعل الصرع أو الغيبوبة أو سجع الكهان. ألا يكفي هذا الخلود القرآني بما احتواه من إشارات تاريخية وعلمية ونبوءات مستقبلية، ونظام حياة متكامل للعالم ألا يكفي هذا دليلاً على أنه وحي من عند الله، وما زال ربنا جل جلاله يحاجّ هؤلاء المستشرقين بآيات في الكون وفي أنفسهم حتى يوقنوا أن القرآن كلامه وليس كلام بشر ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

***

مراجع الفصل السادس

(١) كتاب ـ فقه السيرة ـ د. البوطي دار الفكر دمشق ط ٣/١٩٩٠.

(٢) كتاب محمد رسول الله ـ للمستشرق المسلم ايتيين دينيه ـ ط٣/ مارس ١٩٥٩ الشركة العربية للطباعة.

(٣) كتاب الإسلام والعرب للمستشرق روم لاندو ترجمة منير بعلبكي دار العلم للملاين ـ بيروت ١٩٦٢.

(٤) كتاب ـ حياة محمد ـ د. محمد حسين هيكل ـ دار المعارف مصر.

(٥) كتاب ـ محمد رسول الله ـ ايتيين دينيه.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) كتاب حياة محمد ـ د. حسين هيكل.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) كتاب الغزو الفكري والتيارات المعادية ـ الرياض ١٩٨١.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) كتاب ـ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ـ د. موريس بوكاي جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه.

الفصل السابع

مطاعن المستشرقين في الإسلام

الإسلام دين ارتضاه الله تعالى لعباده، وأنزله رحمة للعالمين، وجاء مكملاً لرسالة موسى وعيسى عليهما السلام واحتوى من التوحيد والأخلاق والمواعظ ونظم الحياة ما تصلح به حياة الشعوب في كل زمان ومكان، وقد صور القرآن الكريم اكتمال هذا الدين قبيل رحيل النبي ﷺ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾ [المائدة :٣] وقال ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وعبر عن خاتمة الأديان وأنه لا يصح دين سواه لهيمنته على التوراة والإنجيل وقصورهما عنه ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران : ٨٥].

هذا الدين السماوي الكامل الذي جاء مكرماً لشريعة التوراة ولنبيها موسى عليه السلام ومبجلاً لشريعة النصرانية ولنبيها عيسى عليه السلام، هذا الدين لم تهدأ ثائرة الغربيين منذ قرون عديدة ضده فراحوا يجندون الحملات وجيوش الدعاة والمبشرين للوقوف في وجهه والقضاء عليه أو تنصير أبنائه على الرغم من أنه (أي الإسلام) أينما حل ونزل لا يرغم مسيحياً ولا يهودياً على ترك دينه، وإنما يعرض عليه آراءه ومبادئه فإن أسلم فبها ونعمت وإلا فـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينْ﴾ [الكافرون:٦] ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

هذا الدين بهذه الحرية العقيدية والفكرية وبهذه الكرامة الإنسانية، ما فتئ هؤلاء المستشرقون يشوهون أصوله ويحرفون مبادئه ويفسرونها

بحسب آرائهم دساً وافتراءً محاولين صرف الناس عنه أو عدم إيصال أنواره إلى الآخرين أو رد المسلمين كفاراً وقد عبرت عن ذلك آيات الكتاب منذ أن كانت عداوة هؤلاء للإسلام ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] وإذا كان هؤلاء المستشرقون في ظنهم أنهم قد هدموا الأصل الذي قام عليه الإسلام باعتبار أن القرآن عندهم ليس إلا خرافات وخيالات رآها النبي، أو هو سجع كهان أو تحسس بالظلم انعكس في ذات نفسه فألف به القرآن. وإذا كان هؤلاء قد ظنوا أنهم بهذه التأويلات قد هدموا الركن الأساسي في الإسلام فماذا سيفعلون بالتشريع العظيم الذي احتواه القرآن والذي فسرته السنة النبوية والذي أقام دولة شامخة الأركان ثابتة الجذور.

ولهذا توجهوا إلى أركان الإسلام وعباداته وتشريعه ونظمه وعلومه ورجاله بالطعن والتشويه والافتراء والدس وقلب الحقائق، كل ذلك حتى لا يرى المسلمون في قرآنهم ولا في إسلامهم شيئاً يصلح أن يقيم لهم دولة العلم والحضارة فيضطرون إلى التمسح بأعتاب مذاهب الغرب ونظمه وقوانينه. ومن هنا راحوا يطعنون الإسلام من كل جوانبه: مبدأ وعقيدةً وتشريعاً ونظاماً حتى ليبدو الإسلام من خلال تأويلاتهم ديناً لا يصلح للحياة إطلاقاً. وقد تناولت هذه الحملات الاستشراقية أصل الإسلام وهو القرآن كما رأيت من قبل، كما تناولت التفسير الصحيح

للقرآن وهو السنة النبوية ووجهت سمومها إلى الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي وفتوحات الإسلام ورجاله. كل ذلك من أجل أن تهتز ثقة المسلمين بدينهم وإذا حدث ذلك صار الواحد منهم يعاني من فراغ نفسي وعقلي وعاطفي، وغدا النظام الإسلامي في الاجتماع والسياسة والاقتصاد لا يحقق له شيئاً وعندئذ تتلقاه دعايات هؤلاء الأعداء بحضارتهم ونظمهم فيقع فريسة لها. ولكي يحولوا بين الإسلام وبين الجموع البشرية من الوثنيين في آسيا وأفريقيا من أن تسلم، لجؤوا إلى تشويه صورة الإسلام مسبقاً في أنظار هؤلاء.: ومن أخطر من عبثوا بها كتّاب دائرة المعارف الإسلامية وخاصة في تفسير وتعريف ماكدونالد لكلمة ـ الله ـ حيث تخبط في ذلك وأساء إلى نفسه وأضر بالإسلام والقرآن وبدا (لا هو عارف بتاريخ العقائد منذ الجاهلية ولا هو فاهم لأصول التعبير العربي السليم ولا هو مدرك أنه بذلك الخطأ يفضح نفسه عند كل قارئ منصف).(١)

وحرب المستشرقين ضد القرآن والسنة تدخل حديثاً في نطاق الغزو الفكري للمسلمين وقد جند أعداء الإسلام كل إمكانياتهم لتشويه السنة النبوية مستخدمين غاية ما عندهم من كذب وافتراء وتزييف ودعاوى باطلة. ولكننا الآن سنورد بعض آرائهم في الطعن بالإسلام بشكل مجمل ثم بالتفصيل:

١ـ **يرى بروكلمان:** «أن الإسلام هو المبدأ الذي أبلته الأيام وطرحته وراءها وأن الوحدانية التجريدية التي كانت سبب قوة الإسلام لم تنشأ إلا تدريجياً».(٢)

٢ـ **يرى مرجليوث:** « أن استيلاء محمد على خيبر يبين إلى أي حد أصبح الإسلام خطراً يهدد العالم».(٣)

٣ـ **والمبشر لورنس براون يقول:** «لكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قوته على التوسع والإخضاع وفي هويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي».(٤)

٤ـ **ويرى ويلز:** « أن الإسلام خير نظام اجتماعي وسياسي ساد، واستطاعت الأيام تقديمه وهو قد انتشر لأنه كان يجد في كل مكان شعوباً بليدة سياسياً تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أي شعب أصالة».(٥)

أما مقولة بروكلمان: «إن الإسلام هو المبدأ الذي أبلته الأيام» فمن المؤسف أن يقول هذا الكلام كاتب موسوعي له شهرة في اللغة والتاريخ الإسلامي وفي الأدب العربي وهو من العمق والشمول بحيث تعد مؤلفاته مراجع هامة للمصنفين. من المؤسف أن يسمع منه هذا الرأي يصف فيه الإسلام ولكن لا تعجب يا صاحبي فبروكلمان هذا من قبل قد شك في سنة ولادة النبي وعشيرته وقبيلته وادعى أن النصارى ألهموا محمداً ﷺ

القرآن وزعم أن النبي أراد أن يعوض خسارته في الحديبية ففكر في مهاجمة اليهود من بني النضير، وطعن في أهل الصفة وهم فقراء المسلمين وكانوا من حول النبي، وزعم أن النبي جعلهم حراساً له يحمونه كأداة يتسلط بهم على المسلمين. وطعن في الأنصار وزعم أنهم راحوا يتوقون إلى التحرر من سلطان الأغلبية المتمثلة بالمهاجرين ليصبحوا سادة موطنهم الوحيد. وغمز في شخصية خالد بن الوليد وزعم أنه قتل مالك بن نويرة طمعاً في زوجته الجميلة، وسمى فتح المسلمين غزواً والمسلمين غزاة، وطعن في عدالة الخلفاء والحكام وافترى على صلاح الدين وزعم أنه هدم جميع أماكن العبادة النصرانية بعد انتصاره واسترجاع القدس، وادعى أن الديانات السابقة قد مهدت لنشوء الإسلام وتساهلت معه بينما هو لم يتساهل. وزعم أن مفهوم العلم عند المسلمين ليس إلا تكرار ما قالته الأجيال الماضية. وكانت مشاعره مع يهود بني قريظة فلم يعترف بخيانتهم في أثناء غزوة الخندق وحصار الأحزاب للمدينة، ورأى أن أبا بكر لم يحالفه التوفيق وقد رآه يغزو الدولتين العظميين في وقت واحد. ثم نسب أخيراً انتصار العرب المسلمين في اليرموك إلى الأرمن الذين كانوا يؤلفون نصف جيش الروم وأنهم كانوا حاقدين على الدولة البيزنطية وغير راغبين في القتال.(٦)

من يرى كل هذه الافتراءات والعيوب في الإسلام يحق له أن يعتبر الإسلام مبدأ أبلته الأيام، لكنك عندما تضع هذه الافتراءات في الميزان،

وعندما تروح لتحاكم بروكلمان على ما جاء فيها استناداً إلى المنهجية والموضوعية التي يدعي أنه كتب من خلالها ذلك، عندها تدرك أن كل ما كتبه ليس إلا افتراءات حاقدة تدل على أنه يعمل ضمن نطاق مدرسة استشراقية كنسية أملت عليه كل ذلك ودفعته إليه لتكون كتبه المراجع الأولى لكل كتاب التاريخ الإسلامي والأدب العربي فيما بعد، وما كان له أن يحظى بتلك الشهرة وتلك المناصب لو لم يصغ هذه الافتراءات.

نقول: لماذا كان الإسلام المبدأ الذي أبلته الأيام، هل انتهى من الوجود؟ هل تركه أهله وارتدوا إلى النصرانية أو الوثنية؟ هل المبادئ التي دعا إليها قد عفى عليها الزمان واستهلكتها الأيام؟ إذا كان بروكلمان يجيب بنعم فنقول فبم تفسر إذاً وجود مليار مسلم (خمس سكان العالم مسلمون) ومنهم من هم من أبناء الألمان (الأمة التي ينتسب إليها بروكلمان). هل تظن أن هؤلاء جميعاً تواطؤوا على الكذب والدجل وارتضوا ديناً لا يتلاءم مع العقل ولا يتلاقى مع العلم الذي ليس فيه مرتدون، وأن بعضهم قد تركوا النصرانية وأسلموا وكثير من هؤلاء فلاسفة وأطباء ومثقفين وعلماء كبار. فكيف يصح أن نقول عن الإسلام إنه مبدأ أبلته الأيام.

ثم ما الذي بلي في الإسلام هل هو التوحيد، إذاً فما أشد ثبات وجدّة الثالوث المسيحي الذي هجره أهله وباتت الكنائس تباع بالمزاد، هل هو في العبادات والمعاملات، هل هو في الأخلاق والإيمان. ما الذي

بلي في الإسلام حتى جاز لبروكلمان أن يصدر ذلك الحكم التعميمي الجائر الصادر عن دراسة غير موضوعية؟ لا شيء بلي في الإسلام وإنما الذي بلي هو العقلية الصحيحة والتفكير الصحيح عند بروكلمان هذا بحيث صار يحكم على الأشياء لا من خلال موضوعيته وإنما من خلال منظار الاستشراق الكنسي الذي يدور في فلكه.

كيف بلي الإسلام وهذا المستشرق الإنجليزي روم لاندو يقول:

« إن الإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف عن ١٣٠٠ عام فحسب بل هو لا يزال يكتسب في كل عام أتباعاً جدد »(٧). كيف يبلى الإسلام وهذا الكونت دي كاستر يرى فيه دين فطرة بحيث وصف نفسه: « إنني تبينت أنني أدين بدين الإسلام دون شعور مني. ثم بعد دراسته للإسلام قال « إذا كان الإسلام هو هذا أفلا نكون جميعاً مسلمين ».(٨)

وهذا غولد تسهير الذي شوه التاريخ الإسلامي عامة يعترف بالإسلام ويرى: « أن تعاليمه تتطابق مطابقة تامة مع مقتضيات الطبيعة البشرية وفي كل زمان.» فكيف تبلى هذه الرسالة التي تتطابق مع مقتضيات الطبيعة البشرية. وفي الوقت الذي يرى فيه بروكلمان أن الإسلام مبدأ أبلته الأيام وانتهى، فإن الفيلسوف الإنجليزي الشهير برنارد شو يعلن عن تعشق أوربا لدين محمد حيث يقول: « إن أوربا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد وتعشق دينه كما أنها ستبرئ العقيدة مما اتهمتها به من أراجيف رجال أوربا في العصور الوسطى.» ثم يصدر

برنارد شو نبوءته في مستقبل الإسلام: «سيكون دين محمد ﷺ هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة.. إن كثيراً من مواطنيّ ومن الأوربيين الآخرين يقدسون الإسلام وتعاليمه ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول: «إن بوادر العصر الإسلامي الأوربي قريبة لا محالة».[٩]

إننا نخجل بعد هذه الاعترافات بالإسلام من مستشرقين موضوعيين، وبعد عرض افتراءات بروكلمان، نخجل من أن نلحقه بركب العلماء الموضوعيين الذي يحترمون الحقيقة ويبحثون عنها. فدين ترى خمس سكان الأرض يدينون به ويتلاقى مع العلم والعقل والواقع، ثم تروح بشكك وحقدك فتطعن في كل جزئية من جزئياته. في حين أن العشرات من المستشرقين امتدحوا هذا الدين بعد دراسته وتمحيصه فهذا لايعني لنا إلا أن بروكلمان قد أجّر نفسه للاستشراق الغربي أو الصهيوني أو استأجره الاستشراق الغربي أو الصهيوني فخرج عن موضوعيته وراح يدس ويفتري ويشوه. وبروكلمان هذا يرى: «أن الوحدانية التجريدية التي هي قوة الإسلام لم تنشأ إلا تدريجياً».

نحن نفهم أن التدرج يكون في الإنسان في الصفات لا العقيدة، فالكاذب يحاول تدريجياً أن يتخلص من كذبه ليصبح صادقاً إذ تزين له نفسه وهو في طريق الصدق أن يكذب مرة ومرتين وثلاث. حتى يحقق الصدق بعزيمة صادقة، أما في العقيدة فأنت تعبد إما إلهاً أو صنماً أو حجراً أو ناراً. فكيف نشأ توحيد المسلمين تدريجياً، لا بد أن المسلمين

قد مروا بمعبودات كثيرة حتى وصلوا إلى الإله الواحد. من أين جاء بروكلمان بهذه الفرية، لعله يشير إلى قصة الغرانيق والتي نبشها المستشرقون وهي قصة مفتعلة من أن النبي رضي عن آلهة قريش وأصنامهم، ثم عاد فهاجمها مهاجمة لا هوادة بعدها، كما ذكر ويلز من قبل.

الإله عند المسلمين واحد وهو الله ومنذ اعتقدوا به لم يتدرجوا إلى معبود سواه «فاعلم أنه لا إله إلا الله»، «قل هو الله أحد» ولم يتبدل عندهم هذا الإله، وإنما الذي تبدل هو فكر بروكلمان هذا.

فقد رأى قومه النصارى يهربون من الاعتقاد بالثالوث النصراني إلى العلمانية طوراً وإلى الإلحاد طوراً آخر، لأن الثالوث لم يستطع رجال الكنيسة إقناع الناس بصحته ولا بتفسيرات رجال الكنيسة له. رأى بروكلمان هذا فعز عليه أن يرى المسلمين ثابتين على توحيدهم الذي راح يغزو قلوب الناس حتى النصارى واليهود والشعوب الوثنية، وحسداً منه وغيرة أن يرى الإسلام ينتشر راح يطعن في توحيده فلم يبن عن عيب التوحيد في الإسلام وإنما أبان عن جهله وغبائه وعن منهجيته التي لا تتلاقى إلا مع منهج الاستشراق الكنسي المعادي للإسلام.

وقد طعن بروكلمان هذا كذلك في تسامح المسلمين وزعم: «أنه يتحتم على المسلم أن يبدأ غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم وإن ذلك واجب ديني».

لو كان هذا صحيحاً لما بقي في العالم الإسلامي معبد ولا كنيسة، كيف والنصارى يؤدون شعائرهم بكل أمان واطمئنان ودون حرج أو خوف كما فعل المسلمون بنصارى إسبانيا يوم تغلبوا عليهم. فالمسلم والإسلام لا يعادي أهل الذمة بل يحترم وطنيتهم ووجودهم ويعتبرهم مواطنين بكل معنى الكلمة ما لم يشهروا السلاح في وجهه، والتاريخ أصدق شاهد عل أن بروكلمان يفتري على الإسلام في ذلك فهذا أبو عبيدة يكتب إلى أحد أمرائه أن يردوا إلى الذميين كل ما أخذوه منهم من الجزية لأنهم سيشغلون عن نصرتهم والدفاع عنهم في معركة بعيدة فقال: «قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فهذه أموالكم التي أخذناها لذلك نردها إليكم» وقد علق أهل حمص النصارى على هذا الخلق من المسلمين كما روى البلاذري: «لدينكم وعدلكم والله أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم» وأقسموا ألا يدخل حمص عامل هرقل عليهم «والتوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد».

من أين أتى بروكلمان بهذه الفرية هل هناك آية أو حديث يدعو المسلم أن يباشر غير المسلم بالعداوة ويلاحقه ويضطهده. والآيات كلها تدعو إلى السلم والسلام والتلطف مع أهل الكتاب وتخاطبهم بكل عقلانية واحترام: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥] وقال تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

كما جعل القرآن المسلمين وأهل الكتاب والصابئين سواء في العمل الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فكيف يباشر المسلمون غير المسلمين بالعداوة وكيف تكون العداوة عندهم واجباً دينياً، بينما الواجب عليهم كما ترى في الآيات هي المعاملة بالحسنى والتلطف بهم واحترامهم. ليس لتلك العداوة مكان في قلوب المسلمين اللهم إلا في مخيلة بروكلمان هذا الذي تعمد تشويه أخلاق المسلمين وعقيدتهم ليوقف انتشار هذا الدين أو يحرف مواطنيه عن اتّباعه على الأقل.

ولم يتوقف بروكلمان في تشويهه للتاريخ الإسلامي عند هذا الحد بل راح يحمل الإسلام وزر كل حاكم مسلم يعمل عملاً ولا يرضى عنه، مع أن ذلك لا يدين الإسلام بشيء فالفاسق ولو كان مسلماً لا يعد ممثلاً للإسلام والكاذب أو الخائن أو السارق.وإن كان مسلماً لا يدان الإسلام بأفعاله وإنما يدان الإسلام بالمفاهيم والقيم والحقائق التي وردت في الكتاب والسنة. تماماً مثلما أننا في إداننا الآن لبروكلمان هذا بهذه الافتراءات لا ندين الألمان كلهم ولا يجوز لنا ذلك فبروكلمان في هذه الافتراءات إنما يمثل نفسه ومن يعمل تابعاً له، فلا ندين الألمان بوزر افتراءاته وكذلك الإسلام لا يجوز تحميله وزر أفعال المسلمين من أبنائه وإن كانوا هم صورته.

إذ من المسلمين من هو متمسك تماماً بدينه ومنهم من هو ضعيف في تدينه ومنهم من هو فاسق أو منافق. تماماً مثل الألمان الذي ليسوا كلهم يدينون الإسلام أو ينتقده مثل بروكلمان بل إن الألمانية ـ زيغريد هونكه ـ كتبت رسالة الدكتوراه لإنصاف العرب والمسلمين وحضارتهم ودينهم في كتابها المشهور شمس العرب تسطع على الغرب.

وعندما وضعت الدولة العثمانية قانوناً تعالج فيه شؤوناً إدارية كالعملة واللباس والزي والجيش، وهي أمور يجوز للحاكم أن يتخذ من النظم ما يلائمها بحيث لا يخالف شيئاً من الكتاب والسنة. عندما حدث ذلك راح المستشرقون يتهجمون على الكتاب والسنة ويدعون أنهما غير كافيين لتنظيم الحياة ومتطلباتها.. وكأنما وجد بروكلمان تمرة الغراب، وأصاب مرعى ولا كالسعدان وقال في نفسه كل الصيد في جوف الفرا. وقد رماه الله بثالثة الأثافي(١٠) فلم يكفه أن شوه صورة الإسلام في نفوس قرائه حتى راح يحمل الإسلام وزر كل من عمل به وكأنما وجد في إصلاحات الدولة العثمانية في تلك الميادين بغيته فصاح يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة، وامتشق قلمه ليقول:

«كان المفروض في قانون المملكة الشرعي أن يستند إلى التشريع الإلهي الذي جاء به القرآن وإلى السنة كما تصورها أحاديث النبي الشفهية ليس غير. ومهما يكن من شيء فلما كان هذان المصدران لا يحيطان بمشكلات الحياة كلها، هذه الحياة التي تعقدت أكثر من ذي

قبل والتي انتهت إلى أن تنهض على أسس اقتصادية تغاير الأسس القديمة كلية فقد تعين على الدولة أن تعترف علاوة على الشرع الإلهي بقانون جديد يقوم على دعائم زمنية خالصة ذلك أن هذا الشرع الإلهي كان حتى ذلك الوقت أصلب من أن يجرؤ أحد على تكييفه وفقاً للأحوال الجديدة وهكذا نشأ القانون عند العثمانيين».(١١)

فأنت ترى بروكلمان كيف راح يشوه صورة القرآن والسنة ويدعي أنهما لا يحيطان بمشكلات الحياة كلها. ولذا فهما في حاجة إلى قانون غربي جديد متطور ـ في رأي بروكلمان ـ أكثر منهما وأن هذا القانون إنما هو خطوة أفضل منهما. وقد اتخذ بروكلمان وأعداء الإسلام من التهجم والحقد على الدولة العثمانية فرصة التهجم على الإسلام نفسه، وفرصة لمؤاخذة الإسلام نفسه على كل خطأ ارتكبه حاكم مسلم. وحتى عندما أهمل العثمانيون التبحر في العلم والبحث واكتفوا بالاتباع والتقليد، عدّ بروكلمان هذا خطأ في الإسلام وانتهى من اتهامه للعثمانيين بعدم التبحر في العلوم إلى اتهام كل المسلمين بقوله: «ذلك أن العلم لم يكن يعني عند المسلم اكتساب معرفة جديدة بل التمكن إلى أقصى حد مستطاع من المادة التي أنتجتها الأجيال السابقة».

ولم تهدأ ثائرة هؤلاء الغربيين حتى قضوا على الإسلام في تركيا، بقيام حكومة علمانية بقيادة مصطفى كمال. الذي تنكر للإسلام ونظامه وأحل محله الأنظمة الغربية والمدنية وأغلق كل الزوايا الصوفية وأكبر

مسجدين، فحوّل أحدهما إلى متحف والآخر إلى مستودع، وألغى العمل بالشريعة والذي كان معمولاً به، وغير حتى ملابس الأتراك وغطاء رؤوسهم. وسمى بروكلمان كل ما أقدم عليه مصطفى أتاتورك اقتباس حضارة ولما صدح المؤذنون في تركيا بالأذان باللغة التركية بدلاً من العربية اعتبر بروكلمان ذلك حرية فقال: « من ذلك الحين صار المؤذنون يؤذنون للصلاة باللغة التركية، ليس هذا فحسب بل إن الحرية الدينية أدت إلى اعتناق عدد من الأتراك النصرانية عام ١٩٣٢ وهو عمل كان القانون الإسلامي في القديم يعاقب عليه بالقتل. ».

وما أشد فرحة بروكلمان هذا وهو يرى الإسلام قد مسخ إلى مثل تلك الصورة في تركيا أو وهو يستمع إلى ترداد الأذان باللغة التركية، ولعل الإسلام الآن وفي تركيا لم يعد مبدأ باليا ـ كما كان يرى ـ بعد أن تحدته القوانين الغربية، والمدنية الغربية والتي رفع راياتها مصطفى كمال في تركيا. إذن فلم يكن تشويه بروكلمان للإسلام ذلك التشويه إلا من أجل هذه الغاية التي وصلت إليها تركيا والتي هلل لها وكبر. ولكن الإسلام لم يبل بل بلي بروكلمان وواراه التراب وتركت الأيام لنا افتراءاته دليلاً واضحاً على موضوعيته الفاسدة ومنهجيته المنحرفة كعضو في المجمع الكنسي الاستشراقي المترصد للإسلام وأهله.

وأما ويلز فقد قال مفترياً على الإسلام: « إن الإسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت الأيام أن تقدمه وهو قد انتشر لأنه كان

يجد في كل مكان شعوباً بليده سياسياً تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم. وكذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أي شعب أصالة.».

انظر إلى هذا الدس الحاقد الإسلام خير نظام قدمته الأيام وانتهى دوره بعد أن أداه على التمام. ولم يعد يصلح لزماننا هذا ثم راح يعلل سبب انتشاره بأنه صادف أقواماً بليدين سياسياً يسلبون ويظلمون وتهضم حقوقهم ولا علم لهم بذلك. بل ولا يثورون على ذلك أي أن الإسلام دين يصلح للأغبياء من البشر البليدين سياسياً والذين لايعرفون الديمقراطية ولا الحزبية ولا البرلمانات، ولا يدافعون عن حقوقهم. ولهذا فهو قد أدى دوره وانتهى هذه هي فرية ويلز، وهي نفس فرية بروكلمان ولكنها في قالب تلميح أكثر منه تصريح. وفي الرد نقول:

١ـ إن انتشار الإسلام وامتداد ظلاله على كل أرجاء العالم ينقض مقولة ويلز هذه.

٢ـ لو كان الإسلام نظام سلب ونهب وظلم لطرحته الشعوب وحدها وخاصة في عصرنا عصر الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية، فتشبث الشعوب بالإسلام وتزايد أعداد المسلمين أكبر دليل على خطأ رأي ويلز.

٣ـ الإسلام لا يصلح لأنه طبق على شعوب بليدة سياسياً، أما الشعوب اليوم فقد تفتح وعيها وعرفت الديمقراطية والانتخابات وحقوق

الإنسان والحرية. وكأن الإسلام ينافي هذه المعاني ولا ندري هل وجد ويلز وقومه البديل عن الإسلام. لعله يظن أن الديمقراطية المقنعة والمغلفة بالسلب والنهب والاستعمار قد حلت مشاكل البشر، ولا ندري هل هذه الشعوب التي استعمرها الغرب منذ قرون ونهبوا خيراتها وفرضوا عليها حضارتهم هل هي متطورة سياسياً أم بليدة؟ في الجواب تعرف أن البلادة السياسية والذكاء السياسي لا يحتكم عندهم إلاّ إلى منطق الاستعمار والتسلط وأن تكون تلك الشعوب سوقاً استهلاكية لمنتجاتهم.

الإسلام خير نظام اجتماعي مؤقت استطاعت الأيام أن تقدمه وانتهى دوره فإذا لم يجد شعوباً بليدة لم يبق له ذكر. وإذن فبماذا يفسر ويلز لنا سر بقاء الإسلام أضعاف أضعاف ما كان عليه من قبل قرون. هل سيزعم أن البلادة السياسية عند الشعوب أيضاً هي سر تطوره وسبب ازدياده. هل كانت هذه الشعوب التي انضوت تحت راية الإسلام في الأرض شعوباً بليدة سياسياً، لا ندري، ولا ندري! كذلك إذا كان ويلز ما زال يرى أن الشعوب العربية والإسلامية التي استولى الغرب والاستعمار عليها شعوب مثقفة سياسياً لأنها رحبت بوجودهم المؤقت ورضيت به ولو لفترة. وهل تم انتشار الإسلام في بلدان العرب والمسلمين لأن شعوبها بليدة سياسياً، وماذا يقول عن كون الإسلام اليوم هو الدين الثاني في فرنسا هل لأن الشعب الفرنسي بليد سياسياً، والشعوب الأخرى في العالم التي تدين بالإسلام، هل هي كذلك؟

ثم راح ويلز يطعن بالحكومات الإسلامية بأنها كانت حكومات أنانية لا اتصال بينها وبين الشعب وليس عندها حرية ولا ديمقراطية ولذلك ساد فيها الإسلام أي أن الإسلام نظام لا يعترف بحق الشعب وحريته وكرامته، وهو دين سيطرة وظلم تظلم فيه الحكومات الشعوب، كل هذه المعاني استقاها ويلز من رؤيته أحد حكام المسلمين كان على مثل ما ذكر من الأنانية والظلم والتعسف، فحمل كل ذلك على الإسلام، أفيعيش النصارى في بلاد الإسلام بحرية وكرامة واعتراف بحقوقهم ويمنع من ذلك أبناء الإسلام نفسه. الحكام مختلفون عبر التاريخ في احترام الشعوب وإعطائها حقوقها أو في منعها ذلك، وسواءً أخرج الحكام عن نظام الإسلام فاستأثروا بالحكم لأنفسهم وجماعتهم أو عدلوا، فما جورهم عندئذ وزرٌ يؤاخذ به الإسلام وإنما يؤاخذ به الحكام أنفسهم، ويؤاخذ الدين من خلال مفاهيمه وقيمه التي يعرفها الناس، فإن أخطأ الحكام في تطبيقها فالوزر على الناس وليس على الأحكام ـ ولكن ويلز لم يقصد إلا أن يحمل كل أوزار الحكام عبر التاريخ على الإسلام ليجعل منه نظاماً عتيقاً بالياً لا يصلح للحياة.

أما المستشرق فيليب حتي: فرغم أنه امتدح الإسلام كدين استطاع أن يؤسس إمبراطورية مترامية الأطراف ورغم أنه امتدح أوثق ما في هذا الإسلام من أسباب المنعة وهو الإيمان الراسخ بوحدانية الله و (أن دين

محمد دين عملي صريح وقلما يشير القرآن إلى شيءٍ أو أمرٍ عالٍ يصعب نواله ويكاد يكون خلواً من العقد اللاهوتية وليس فيه أثر للأسرار).

ورغم أنه امتدح الإسلام وأنه لم ينشر بقوة السيف، إلا أن ذلك كله لم يمنعه من أن تزل به القدم، فيخوض فيما خاض فيه من قبله فقد جعل القرآن نثراً مسجوعاً كسجع الكهان، وطعن في رسول الله بقوله: «ومع أنه ليس بين أنبياء العالم من ولد في ضوء التاريخ إلا محمد ﷺ فإن نشأته محاطة بالغموض».[١٢] وقد عرضنا عليك من قبل الرد على فرية ويلز الذي ذكر أن محمداً سطع عليه ضياء التاريخ ولا ندري الآن مع فيليب حتي كيف يسطع ضوء التاريخ على رجل ثم تظل نشأته محاطة بالغموض فمن يسطع عليه ضوء التاريخ لا بد أن تشرق للناس حياته وأخباره وسيرته..

ثم أين هو هذا الغموض في حياة النبي هل هو في ولادته أم نشأته أم صباه أم شبابه أم في تجارته أم في بعثته ودينه. إن كتب السير سواء منها العربية أو الأجنبية لتوضح حياة هذا النبي بعيداً عن كل غموض يدعيه ـ حتّي ـ والذي لم يفتعله إلا استجابة للمدرسة الاستشراقية التي يعمل من أجلها، ولعل فيليب حتي الآن يسطع عليه هو الآخر ضوء التاريخ بعد أن نال من رسول الله ما يريد، ولكن ضوء التاريخ لم يسطع عليه إلا ليرينا حقده وافتراءاته، وكذا ـ كل إناء بما فيه ينضح ـ.

ثم زعم ـ فيليب حتي ـ كذلك: «لأن بناء المدارس يعد من النوافل في الإسلام». كيف يكون بناء المدارس في الإسلام نافلة والمسلمون أمة العلم والقراءة وأول آية في كتابهم (اقرأ) والحضارة التي أقاموها على مدى ثمانية قرون هل قامت على العلم أم الجهل؟ والغريب بعد هذا أن تجد جامعة سالرنو وغيرها تستقدم معلمين عرب إليها ليدرسوا فيها لماذا ذلك؟ يجيبنا فيليب حتي: «لأن بناء المدارس من النوافل في الإسلام» أرأيت إلى فيليب حتي هذا كيف يورط نفسه بقلمه ولسانه، فإذا كانت المدارس نافلة في الإسلام فكيف قام للأمة العربية هذا الصرح العظيم من العلوم والحضارة. وحتى في وقت ضعف المسلمين وتسلط العثمانيين كانت المساجد والكتاتيب مدارس خاصة تدرس فيها آيات الكتاب. ونبينا ﷺ يقول: «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ويقول: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

وقد جعل النبي افتداء كفار قريش من الأسر بتعليم كل واحد منهم لعشرة من المسلمين ـ كل ذلك لم يقنع فيليب حتي بأهمية العلم والمدرسة في الإسلام بأكثر من أن يجعلها نافلة لا أكثر.

كما طعن فيليب حتي بنظام الرقيق في الإسلام وأنه امتداد لما كان عليه في التوراة مع أن الفارق كبير بينهما ورغم كل وسائل الإسلام لإعتاق الرقيق فإن الرقيق بقي محفوظة حقوقه بقول النبي ﷺ: «إخوانكم حولكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه

مما يلبس» وإننا لنعجب أن يصدر اتهام الإسلام ونقده بنظام الرقيق فيه من قبل مستشرق نصراني والأمم النصرانية الاستعمارية متورطة كانت وما زالت في هذه القضية، فحملات تلك الأمم في استيرادها الزنوج وشرائهم من القارة الأفريقية بأعداد هائلة ٢٠ مليوناً. وترحيلهم إلى أمريكا حيث يعمل فيليب حتي فيها مدرساً جامعياً ولعله التقى بهؤلاء الرقيق السود أو أبناءهم ولعل بعض تلامذته منهم».. وقد حكت دائرة المعارف البريطانية ـ كما يقول د. شوقي أبو خليل حكت عن طريقة المستعمرين في اصطياد الرقيق وكان منهم من يموت أثناء القنص الأدمي، في الرحلة إلى الشاطئ حيث ترسو مراكب الشركة الإنجليزية وكان ثلث الباقين يموت بسبب تغير المناخ ثم يموت قسم ثالث أثناء الشحن، وقد كانت نسبة القنص ٨/١ أي لكي يتمكن الأوربي من استرقاق عبد واحد فإنه يقتل مقابل ذلك ثمانية لكونهم يدافعون عن أنفسهم.

وكانت الملكة اليزابيث الأولى (١٥٥٨-١٦٠٢) تشارك في الاتجار بالرقيق وهي شريكة لأعظم نخاس في التاريخ ـ جون هوكنز ـ وقد أعدت لهذا النخاس أسطولاً من ١٩٢ سفينة يتسع في الرحلة الواحدة إلى ١٧١٤٦ رقيقاً. (١٣)

فهؤلاء النصارى وقد غرقت أيديهم في ذبح العبيد واسترقاقهم والتمييز بينهم وبين البيض وحتى أيامنا هذه، العجيب بعد ذلك كيف يسقطون عيوبهم وسيئاتهم على الآخرين ويلومون الإسلام على طريقته

في الرقيق، وقد كفانا عباس العقاد رداً على هؤلاء بقوله: «لقد ظل صوت الإسلام يزمجر حتى استجاب له العالم بعد عدة قرون من تشريعه الحكيم، وإن زوال الرق هو إحدى الهدايا التي قدمها الإسلام للإنسانية».(١٤)

وزعم شاخت ومرجليوث أن الإسلام مستمد من اليهودية والنصرانية.

والمبشر نلسون يروي: «أن الإسلام مقلد وأحسن ما فيه مأخوذ من النصرانية وسائر ما فيه مأخوذ من الوثنية مع شيء من التبديل».

وتكلم بلاشير عن التشابه بين الإسلام وبين القصص اليهودي والمسيحي.

وقرر فيليب أرلنجي أن محمداً كان في المدينة تلميذاً لليهود وهم الذين كونوه.

ويرى فلهاوزن ولاماس وسيديو: «أن محمداً ألهم المبادئ اليهودية والنصرانية فأقام ديناً بعيداً عن الخوارق».(١٥)

وغولد تسهير يقول: «فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية والتي تأثر بها تأثراً عميقاً».

آراء هؤلاء المستشرقين جميعاً ما هي إلا امتداد لما أطلعناك عليه من آراء غيرهم في تفسير الوحي حيث زعموا أن النبي ﷺ قد التقى بالنصارى وخاصة الراهب بحيرا، وبعضهم جعل النبي يدخل كنائس كثيرة وبيع لليهود ليتم لهم ما وصم به النبي من أنه ألف القرآن استفادة من هؤلاء جميعاً. وليت هؤلاء دللوا على فريتهم هذه وعلى مواطن التشابه بين القرآن وبين ما ذكروه. أما إذا ذكرت التوراة والإنجيل بعض قصص الأنبياء وذكر القرآن ذلك، فهذا التشابه لا يطعن في أن النبي أخذ القرآن عنهم لأن القرآن ليس قصصاً كله، وإنما يعني ذلك أن الديانات السماوية أصلها ومصدرها واحد. ولكنك لو أمعنت في تلك القصص في التوراة وفي القرآن لعلمت أن هؤلاء اليهود قد شوهوا صورة الأنبياء الكرام فجعلوهم زناة قتلة ظالمين، فكيف يكون التشابه بين قصص القرآن والتوراة في الوقت الذي يمتدح القرآن هؤلاء الرسل ويجعلهم قدوة في العلم والأخلاق والفضائل.

١ـ وليس المفروض في الديانات السماوية الصحيحة أن تتعارض في الأصل بل الأصل فيها أن تتلاقى لكونها صادرة عن مصدر واحد وهو الله.

٢ـ نقول لهؤلاء بماذا قلد الإسلام اليهودية: هل بتأليه البشر كما ألهوا العزير أم بعبادة العجل يوم عبدوه أم بالظلم والعدوان وقتل الأنبياء كما فعلوا ويفعلون وبماذا قلد الإسلام النصرانية هل في الثالوث.

أو بالرهبانية والتقوقع في الأديرة، أو في الصلب والافتداء أو في تعاطي الخمرة والفسق والفجور. أو بالاستعمار والتعدي على الشعوب ونهب خيراتها.

وكيف يأخذ الإسلام من الوثنية وهو حرب عليها، وأصل الإيمان فيه إيمان بالله ونبذ الشرك وعبادة الأوثان..

٣ـ إن حديث المستشرقين عن إسلام مسيحي أو يهودي ينقضه الواقع وإسلام كثير من هؤلاء النصارى واليهود، فلو لم ير هؤلاء في الإسلام ديناً جديداً في نظرته إلى الكون والحياة والإنسان تختلف عن نظرة المسيحية أو اليهودية لما اعتنقوه.

٤ـ كيف يستفيد النبي ﷺ من النصارى وهو صبي في الثانية عشرة من عمره ويأخذ عنهم ما ألف منه القرآن رغم أنه لاقى الراهب بحيرا مرة واحدة ولمدة قصيرة، وإذا كان معظم القرآن مأخوذ من النصرانية واليهودية فإن هؤلاء اليهود والنصارى اليوم ليبدون في غاية الحقد والعدوان وهم يقفون من الإسلام هذا الموقف، ألا يعني لهم نشر القرآن نشراً للتوراة والإنجيل إذا كان القرآن مأخوذ منهما، فلماذا يقفون في طريق القرآن. لأنه أقام ديناً بعيداً عن الخوارق، ترى هل تلك الخوارق الموجودة في كتبهم تتلاقى مع العقل؟ كلا، إذن فإذا كان القرآن مأخوذاً عنهم فقد أزال عنهم رسول الله ﷺ خوارق في كتبهم

لا تتلاقى مع العقل، وتلك محمدة يجب أن يحمد عليها الإسلام، وهو يريد لرسالتهم أن تنتشر عن طريق موافقة العقل عليها.

نقول إن الكتب السماوية تتلاقى في كثير من أصول العقائد وتختلف في التفاصيل وليس ذلك بدافع لأحدها، ولا بدافع لأبناء التوراة والإنجيل أن يحملوا السيف والقلم في وجه الإسلام ليطعنوه في أعظم ركن من أركانه وهو الوحي فيجعلوه مستمداً من النصرانية واليهودية، ولو استجاب هؤلاء المستشرقون إلى نداء العقل والعلم والضمير لعلموا أن الإسلام يختلف تماماً اليوم عن كتبهم التي تحرفت حتى لم يعد العقل البشري يستسيغها، والإسلام متميز عنهما ولكنه رغم ذلك ما يزال يعترف بهما كديانتين لهما أصول ثابتة قبل أن تتبدل، وهذا من موضوعية القرآن ومنهجيته في احترام الرسالات وأنبيائها.

٥ـ وإذا كان القرآن هو تقليد لأديانهم فهو يتلاقى معها فإذن ما سر خوفهم من الإسلام وما سر هذه الحملة الشعواء التي أعلنوها ضد الإسلام والتي صرحوا بها على لسان قرارات مؤتمر الاستعمار الألماني (بأن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطى كبيرة) لماذا هذا الخوف من الإسلام؟ لا بد إذن أن يكون القرآن ليس

تقليداً للتوراة والإنجيل، وإنما كل خوفهم من الإسلام لأنه يملك من العقائد والقيم والأخلاق ما تميز بها عن سواه وما جعل الناس يقتنعون بدعوته فيسارعون إلى الإسلام، ومن ثم تتوقد نيران الحسد عند هؤلاء المستشرقين فيروحون ليفتروا على الإسلام تلك الدعاوى الباطلة.

مراجع الفصل السابع

(١) كتاب الغزو الفكري والتيارات المعادية. الرياض ١٩٨١ـ مقال د. علي عبد الحليم محمود.

(٢) مجلة رسالة الجهاد عدد ٦٢ـ عن كارل بروكلمان بقلم رئيس التحرير ـ ليبيا.

(٣) مجلة رسالة الجهاد عدد ٨٤ مقال د. شوقي أبو خليل عن دافيد صموئيل مرجليوث.

(٤) كتاب أجنحة المكر الثلاثة/ عبد الرحمن حبنكة.

(٥) كتاب ـ الغزو الفكري...

(٦) مجلة رسالة الجهاد عدد ٦٢ـ حول كارل بروكلمان ـ مقال قلم التحرير.

(٧) كتاب ـ الإسلام والعرب ـ لروم لاندو لعام ٩٦٢ ترجمة منير بعلبكي ـ دار العلم للملايين بيروت.

(٨) كتاب ـ محمد رسول الله ـ ناصر الدين دينيه ط٣ مارس ١٩٥٩/ الشركة العربية للطباعة.

(٩) كتاب ـ نبذة من السيرة النبوية ـ أبو النصر مبشر الطرزي الحسيني ـ سلسلة البحوث الإسلامية/العدد ٥٧/لعام ١٩٧٣.

(١٠) هذه أمثال قالتها العرب.

ـ وجد تمرة الغراب يقال فيمن وقع على أفضل ما يريد.

ـ مرعى ولا كالسعدان: يقال فيمن التقى بأحب ما يريد ـ السعدان نبلت وشوك طيب تحبه الإبل وهو أفضل مرعى.

ـ كل الصيد في جوف الفرا: يضرب لمن يفضل على أقرانه ـ الفرا: حمار الوحش.

ـ رماه الله بثالثة الأثافي: ضرب لمن يأتي بالشر ولا يبقي منه شيئاً الأثافي: حجارة الموقد الثلاثة حيث يطهى عليها...

(١١) كتاب ـ الغزو الفكري والتيارات المعادية ـ الرياض ١٩٨١.

(١٢) مجلة رسالة الجهاد. عدد ٦٥ كتاب تاريخ العرب المطول لحتي ـ عرض د. شوقي أبو خليل.

(١٣) كتاب ـ تحرير الاستعمار ـ د. شوقي أبو خليل ـ جمعية الدعوة الإسلامية ط١/١٩٩١.

(١٤) كتاب ـ ما يقال عن الإسلام ـ سلسلة كتاب الهلال ـ عباس العقاد.ـ العدد ١٨٩.

(١٥) مجلة رسالة الجهاد ـ عدد ٩٣ـ مقال غو ستاف لوبون ـ عرض د. شوقي أبو خليل.

الفصل الثامن

المستشرقون وتشويه التاريخ والحضارة

ظن المستشرقون بعد طعنهم المسلمين في أعظم ما يعتقدونه في دينهم من الكتاب والسنة، ظنوا أنهم سيناموون ملء عيونهم، ولن يستيقظوا إلا ويكون قرآن المسلمين وقد تحول إلى خيالات ورؤى رآها رسول الله، لمرض أصابه، وسنة نبيهم وأحاديثه ليست إلا آراء جدلية أملتها أجيال الصحابة والتابعين ومن عاشوا في القرون الثلاثة الأولى.. وهذا يعني في أحسن الأحوال أن المسلمين باتوا من دينهم ـ بعد تلك الحملات ـ على كف عفريت فلقد أعمل فيه المستشرقون مشارطهم وأقلامهم وبثوا سمومهم الحاقدة مدعين المنهجية والموضوعية مفترين على الله ورسوله بآراء ما أنزل الله بها من سلطان، مزورين الأخبار أو ناقلين منها ما يؤيد آراءهم، أو طاعنين في أخبار الصحابة الذين رووا أحاديث الرسول بأدق منهج علمي عرفته أوربا في القرن السابع عشر على يد ديكارت.

نظر المستشرقون بعد رحلتهم الطويلة تلك فوجدوا تاريخاً مجيداً للمسلمين وفتوحات عظيمة وأحداث جليلة ومعارك سامية وقادة عظاماً وقف التاريخ مشدوهاً مأخوذاً بأخلاقهم وبطولاتهم ومعاملتهم لأعدائهم وهذه صور تناقض ما أقدموا عليه من تزوير للقرآن والسنة، فكيف يكون القرآن ليس وحياً من الله، وكيف يكون الحديث النبوي ليس من كلام النبي، وها هو التاريخ يحكي قصة أبطال عظام، ومعارك رائعة وفتوحات إنسانية على مدى قرون، فكيف ينشأ كل ذلك من الفراغ، وبلا قاعدة

دينية أو أخلاقيـة، ولـهذا رأى هـؤلاء المستشـرقون أن لا بـد مـن تكملـة المشوار ولـو علـى حسـاب أخلاقـهم وكرامتـهم وأمانتـهم العلميـة. ولـو اقتضاهـم ذلك أن يكذبوا على التاريخ وعلى المناهج العلمية ولو ألزمـهم ذلك أن يكذبوا على أممهم التي ستعرف الحقائق ولو بعد حين. فكان أن مضوا في نفـس الطريـق مـن الطعـن والتشـويه وقلـب الحقـائق السـاطعة سطوع الشمس وبهذا صار صلاح الدين في نظرهـم هـادم أمـاكن العبـادة النصرانيـة وهـارون الرشـيد صـاحب الخمـرة والـترف والليـالي الحمـراء وخالد بن الوليد قاتل مالك بن نويرة من أجل زوجتـه الجميلـة ومحمـد الفاتح اقترنت همته وجرأته بالوحشية، وأبو بكر وعمر وأبو عبيدة أقـاموا اتفاقاً ثلاثياً للتحكم في المسلمين، والفتوحات الإسلامية ليست إلا غروراً والفاتحون غزاة برابرة همج والإسلام لـم ينتشـر إلا لأنـه صـادف شـعوباً بليـدة سياسـياً. وهكـذا راح هـؤلاء المستشـرقون يكيلـون بـهذا المكيـال ويزنون تاريخ المسلمين وحضارتهم ورجالهم بـهذا المـيزان، فراحـوا مـن أجـل ذلـك ينتقصـون مـن قـدر المسـلمين وكرامـة قادتـهم وخلفائـهم ومعاركهم وأخلاقهم وفتوحاتهم، حتى ليكاد التـاريخ العربـي والإسـلامي يكون نكتة سوداء في التاريخ العالمي.

ورحم الله ذلك الصياد الـذي لا حـق قـبرة بمكـان ليصيدهـا وقـد أتعبته فقال:

يالكِ من قـــبرة بمعمــر   خلالك الجو فبيضي واصفــــري

لابد يوماً أن تصادي فاحذري.

وقد خلا الجو لهؤلاء المستشـرقين منـذ القـرن المـاضي وصـادفوا حالة فوضى سياسـية عنـد المسـلمين واسـتعماراً غربيـاً لبلدانـهم فراحـوا يطعنون ويشوهون ويقلبون الحقائق فـي وضـح النـهار. فكـان أن اعتـدوا على لغة العرب وقرآنهم ونبيـهم وإسـلامهم والآن علـى تاريخـهم، ولقـد طغوا في ذلك واعتدوا، وبلغ السيل ـ في كتابتـهم ـ الزبـى، ولكـن الظلـم مرتعه وخيم ولابد لقبرة المستشرقين أن تسقط في فخ الحقيقـة، إذ طلـع عليهم من أبناء وطنهم من دعا عليهم بالويل والثبور وندّد بخروجهم عـن المنهج العلمي الدقيـق، وأشـار إلـى افتراءاتـهم علـى الإسـلام والمسـلمين والفضل ما شهدت به الأعداء ..

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح له لسان حسود

والتاريخ علم أثبت أنه أقوى من تزوير المزورين وأكبر من تشويه الحاقدين قد حمل في صفحاته سجل هؤلاء جميعاً بعد موتهم وأطلعنـا على مخازيهم وفضائحهم، فكان أن كشف لنا عن جرائمهم الفكرية التـي صيغـت بقوالـب علميـة ودراسـات أكاديميـة ومنـاهج استشـراقية. وبـدت قراطيس هـؤلاء المستشـرقين التـي سـودوا صفحاتـها بأكاذيبـهم وبـــدوا

كمَوتور لا يستطيع أن يفعل مع واتره شيئاً، بل لقد عراهم التاريخ من كل فضيلة وظهر للأمم أن ما طعنوا فيه من رجال الإسلام ومعاركه وأخلاقه وقيمه إنما هو من الأكاذيب المفتعلة لأغراض خبيثة، وأن المناهج العلمية بريئة من كل ما أقدموا عليه من أساليب. وإذا ببروكلمان الأديب الموسوعي صاحب المؤلفات التاريخية والأدبية لا يرى في العرب الفاتحين إلا غزاة يجوسون خلال الديار، وغولد تسيهر لا يجد في الفتوحات إلا تمكيناً لجنس بربري همجي اعتاد سفك الدماء، وفيليب حتي يعتبر معركة الزلاقة أكبر خطأ حيث أنها مكنت حكم العرب في الأندلس أربعة قرون أخرى ومرجليوث لا يرى في غزو المسلمين لخيبر إلا طلباً للغنائم، وبحيث صار الإسلام في نظر هؤلاء، أكبر خطر على العالم.

وهكذا مضى هؤلاء المستشرقون في تشويه التاريخ الإسلامي وتراثه وحضارته ليهدموا كل صور الكرامة والعظمة والقدوة الحسنة في هذا التاريخ ويطمسوا معالم الفضيلة والخير في فتوحات المسلمين وانتصاراتهم بحيث يتوازى هذا مع ما وصفوا به العرب من أنهم قبائل همجية عاشت في الصحراء وليس لها أي نصيب من الحضارة والتقدم.

الفتوحات الإسلامية ودور المستشرقين:

حار المستشرقون كيف يعللون سرعة هذه الفتوحات وعظمتها عند هؤلاء الأعراب الذين خرجوا من جزيرتهم فقضوا على أكبر إمبراطوريتين عالميتين ـ الفرس والروم ـ ثم زحفوا على بقاع الأرض في أسلوب فتح جديد ما عهدته الشعوب ولا خبرته الأمم. لقد عجب المستشرقون وحاروا كيف يفسرون سرعة هذه الفتوحات، واستجابة الشعوب لها، وقد تخبطوا في افتعال أسباب لها مما ينبئك أنهم لم يكونوا في تقييمهم لتلك الفتوحات موضوعيين وإنما كانوا مستجيبين لنزوات حاقدة وصليبية مبغضة، وسموم تغلي في الصدور، واستجابة لآراء مدارسهم الاستشراقية وقبل الخوض في تلك الأسباب والرد عليها لا بد أن تعلم أن أعظم فاتح في التاريخ لا يمكن أن يكتسح العالم ويفتحه ويبقي على حضارته قروناً طويلة دون أن يكون مستنداً على أفكار وأخلاق وقيم خلقية ودينية وإنسانية وإلا بدا عواره للناس خلال مدة قصيرة من الزمن، وهذا ما كشفه لنا التاريخ في حملات نابليون وفتوحاته، وهتلر وزحفه على الشعوب، فقد كشف لنا عن زيف هؤلاء الفاتحين وأطلعنا على نواياهم الاستعمارية الحاقدة، كما كشف التاريخ عن مزاعم كل المستعمرين الذين زعموا تحضير الشعوب وتمدينهم وظهرت بريطانيا المجرمة وتآمرها الواضح مع أمريكا لتثبيت قواعد العدوان الصهيوني، وما يزالون يدعون أنه لابد لليهود من وطن يؤويهم

وأن هيكل سليمان تحت جدران المسجد الأقصى ويفترون على الله والتاريخ والناس.

إذاً فالقادة لا يمكن أن تثبت لهم دعائم بلا مبادئ وأخلاق والشعوب بلا قيم لا يمكن أن تقوم لها قائمة، والغزاة الفاتحون كالتتار والمغول والحملات الصليبية والاستعمارية الغربية، والصهيونية أخيراً نشر التاريخ مخازيها ونواياها الشريرة، وباتت الشعوب على وجل من التعامل معها وإن أرغمت على ذلك لأسباب سياسية أو اقتصادية.

وأنت قد تستطيع أن تزور التاريخ قرناً أو قرنين ولكنك لا تستطيع طمس حقائقه إلى الأبد فلسانه لا يصمت وكلماته لا تتبدل والحقائق فيه لا يمكن أن تصبح أوهاماً ولو زيفها كتّاب التاريخ من جديد.

ولما بدا للغرب عواره، وكشفت حملاته الاستعمارية ودعاواه الرخيصة وأهدافه المقنعة لاستبعاد الشعوب ولما ظهرت صورة هذا الغرب المفترس للشعوب بالمقارنة مع المسلمين وفتوحاتهم وعظمة حضارتهم، هنالك أسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا وأن هذا التاريخ الإسلامي بصفائه ونقائه إنما يعريهم من فضائلهم إذا قورن تاريخهم به ولهذا استلّوا أقلامهم وراحوا يطعنون هذه الأمة في أقدس تاريخها وفتوحاتها غير مبالين لا بالأمانة العلمية ولا المناهج الموضوعية ولا بالحقائق التي اعترف بها مواطنوهم « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من

العرب» وإذا كانت هذه المقولة لغوستاف لوبون تصور عظمة الفتوحات فلا مانع أن يفتري عشرات المستشرقين عكس هذه المقولة ليوهنوا من عظمة الفتح عند المسلمين.

أسباب الفتوحات والرد عليها:

تعددت هذه الأسباب عند المستشرقين ولكنها كلها كانت تصب في نفس البوتقة، بوتقة تشويه المسلمين وتاريخهم وتنطلق من آراء مسبقة، ومن أحقاد تغلي على أبناء الإسلام.

فهنري ماسيه رد سهولة الفتح إلى أن الميدان كان مهيأ للعرب المسلمين بسبب الخلافات الداخلية في دولة بيزنطة حيث يقول: «وقد رأينا العرب يستقبلون كمحررين تقريباً من قبل أقباط مصر» «ومن السوريين السعداء بخلع النير البيزنطي والأمر كذلك في بلاد فارس وإسبانيا لأن الحكومة قد أثارت السكان». وفيليب حتى يقول: «ولقد يسر الفتح للعرب أسباب منها أن فارس وبيزنطة كانتا قد وهنتا بسبب الحرب فيهما، أجيالاً طوالاً فاضطرتها هذه الحرب إلى إرهاق رعاياهما بضرائب قاسية أدت إلى نفورهم» وجرجي زيدان يرى: «أن انتصار المسلمين كان على أمة ضعيفة منهكة ومنقسمة».[1]

وبروكلمان رد انتصار المسلمين في اليرموك إلى الأرمن الذين كانوا يؤلفون نصف جيش الروم وأنهم كانوا حاقدين على الدولة البيزنطية وغير راغبين في القتال، وجعل ذلك سبباً لانتصار المسلمين في

الشام ومصر، أما في الهند وإسبانيا فيرد انتصار المسلمين إلى ضعف الحكام وتمزق تلك البلاد.

وقبل أن نرد على تلك الأسباب ننقل لك نظرة أخرى لفريق آخر من المستشرقين في هذه الفتوحات وهي تغاير نظرة أولئك:

فغوستاف لوبون يرى: «أن للفتوحات الإسلامية طابعاً خاصاً لا تجد مثله لدى الفاتحين فقد أنشأ العرب حضارة جديدة تختلف عن الحضارات التي ظهرت قبلها وتمكنوا من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم فضلاً عن حضارتهم الجديدة».(٢)

وذكر لوبون: «أنه بالدعوة وحدها اعتنقت الإسلامَ الشعوبُ التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول». ومثل ذلك صرح فيليب حتي: «تمسك بعض كتاب النصرانية بفكرة خاطئة وهي أن المسلم العربي اكتسح البلدان رافعاً القرآن في يد والسيف في الأخرى ولا صحة لهذا الزعم، وقال ـ حتي ـ عن معركة بواتيه: «بأنها لم تفعل شيئاً» فعلق عليه د. شوقي أبو خليل:

لو انتصر المسلمون في ـ بواتيه ـ لتخلصت أوربا من ظلماتها وجهلها واستبدادها كما كانت ستتخلص من عار محاكم التفتيش السوداء.» وأعلن ول ديورانت: «ولم تشهد بلاد الأندلس في تاريخها حكماً أكثر حزماً وعدالة وحرية كما شهدته أيام فاتحيها العرب».

وقال جيبون: «لو انتصر العرب في بواتيه لتلي القرآن وفسر في أكسفورد وكامبردج».

وسجل التاريخ شهادة وأمنية الأديب الفرنسي أناتول فرانس: «ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي، إن انتصاره عليه أخّر المدنية عدة قرون إلى الوراء»[٣].

أية خلافات يتحدث عنها. هنري ماسيه ـ عند البيزنطيين؟ أية خلافات هذه التي سمحت للروم أن يحشدوا في مواجهة المسلمين ربع مليون جندي مقابل عشر هذا العدد عند المسلمين وأين هو الوهن الذي تحدث عنه جرجي زيدان وقد تسلح الروم بجيش منظم وحازوا على درايةٍ في الحرب. ويناقض أقوال هؤلاء المستشرقين ما اعترف به مواطنوهم أنفسهم من أن هرقل قيصر الروم قد تمرس على الحروب وقاتل الفرس في الشام ومصر ست سنوات حتى أجلاهم عنهما، ويناقض أقوالهم أيضاً ما تسلح به الفرس كذلك من جيش منظم له خبرة في القتال. وقد سبق لهم أن صارعوا الروم في معارك متعددة وخلال ٤٠٠ عام.

ثم أن الشقة واسعة بين المسلمين وبين الروم والفرس، فهؤلاء كانوا يحاربون في أراضيهم والمسلمون يحاربون في أصقاع بعيدة عن عاصمتهم، وإمداداتهم معدودة وعتادهم معروف وهو لا يقارن بسلاح الروم والفرس، ثم أنت تجد أن هؤلاء العرب فتحوا جبهتين على الروم

وفارس في وقت واحد، وفي نهاوند ومصر في آن واحد، وفي إسبانيا وفرنسا في وقت واحد. فكيف يزعم هؤلاء المستشرقين أن سبب الفتوحات هو وهن الروم والفرس أو الأقباط في مصر أو الأرمن في صفوف الروم أو ضعف الحكام أو تمت بقوة السيف، كل ذلك بعيداً عن أن يعترفوا بقوة المسلمين؟ والحقيقة في ذلك أن السر إنما يكمن في العقيدة التي كان يمتلكها المسلمون، والأطماع التي كانت تقاتل من أجلها الروم وفارس فلما ظهرت النوايا الخيرة والعقيدة الصادقة من المسلمين قضت على كل ذلك الزيف البيزنطي والفارسي أضف إلى ذلك ما امتازت به الفتوحات من كونها حرباً إنسانية لا يقصد منها التنكيل والتقتيل أو التشفي وإذلال الشعوب. أو نهب خيراتها أو حتى إكراهها على تغيير دينها وعقيدتها.

ولهذا فأنت تعجب بعد هذا عندما تسمع بروكلمان المحقق يقول: «كان الغزاة العرب يجوسون خلال الديار غانمين مخربين» (٤). وتعجب لفيليب حتي وهو يصف المجاهدين بقراصنة البحر المراكشيين) وإذا ذكر حروب التحرير والفتوحات الإسلامية وصفها بكلمة (استيلاء أو اكتساح أو تسلط) بعيداً عن كلمة ـ الفتح ـ بمعناها الحضاري، وإذا ذكر الصليبية قال (لما فتح الفرنجة بيت المقدس ـ فتح الفرنسيون مراكش ـ الفتح الروماني) وأما المسلمون فيذكر (استولى معاوية على قبرص ٦٤٩ م ـ والاستيلاء على إسبانيا) (٥).

يقولون ذلك كله وكأنهم يكتبون عن الشعوب الجرمانية وشعوب الهون التي قلبت أوربا وحولتها إلى خرائب وأطلال واندثرت تحت سنابك خيولهم حضارة الرومان واليونان، وكأنما نسي هؤلاء الحديث عن كشوفات قومهم الجغرافية والتي لم تكن للتجارة بقدر ما كانت مرتبطة بالعمل المقدس ونشر المسيحية وباسم هذا العمل المقدس (أبادوا أمماً وحرقوا شعوباً ونهبوا خيرات ومناجم وتاجروا بالرقيق) أما العرب فلم يكونوا يوماً ما مستعمرين ويكفيهم فخراً أن كلمة ـ استعمر ـ في قرآنهم وردت بمعنى الثبات والاستقرار في الأرض قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]. ذكر القرطبي في تفسيره: «قال قتادة: استعمركم فيها أي أسكنكم، وقال الضحاك: أطال أعماركم، وابن عباس استعمركم أعاشكم فيها وزيد: استعمركم فيها: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن وغرس أشجار».(٦)

إذن فأنت ترى معناها الإعمار والبناء فأين هذه المعاني مما عرفت به كلمة الاستعمار ـ ففي قاموس أوربا وفي الموسوعة الفرنسية والبريطانية نجد: «تعود جذور الاستعمار الغربي إلى عصر النهضة حيث تقدم العلم الحديث ورحلات الاكتشاف الكبيرة والوجود المتزامن في إسبانيا والبرتغال وإنكلترا وفرنسا للجنود النبلاء ورجال الدين والتجار المتلهفين لعمل توسعي خارجي بغية تحقيق أهداف تجارية وتبشيرية بآن واحد»(٧) ولعل هؤلاء عندما وصفوا الفتوحات الإسلامية بالظلم والعدوان والاستيلاء وقوة السيف ووصفوا الفاتحين بالهمجية والبربرية،

لعلهم نسوا تاريخ الاستعمار منذ عام ١٤٥٠ نسوا نتائج الحرب العالمية الأولى وكيف تقاسم المتكالبون الغنائم على الرغم من الوعود التي قطعوها على أنفسهم للعرب. ونسوا الثورة الصناعية وما أحدثت من إيجاد أسواق احتكارية في أفريقيا وآسيا، ونسوا ما فعلته فرنسا في الجزائر وما أراقته من دماء ومن سياسة الأرض المحروقة وما عملت بريطانيا في أستراليا من إبادة واستعمار وفي أفريقيا من تمييز عنصري، وما عملته إسبانيا والبرتغال في سكان أمريكا الجنوبية والوسطى من القضاء على حضارة الإنكا والمايا والأزتيك، وما عملت هولندا في إندونيسيا من امتصاص خيراتها وإذلال شعبها بحيث كان الهولندي يدوس على ظهر الإندونيسي ليعلو ظهر جواده. بل وكأنهم نسوا ما فعلت بريطانيا في مصر والهند وما خلفته حرب الأفيون في الصين وأخيراً ما تركت فرنسا في جيبوتي من أثر بعد استعمارها ٣٠٠ عام. حقيقة إذا لم تستح فافعل ما تشاء.

وإذا كان العرب غزاة ـ في نظر بروكلمان ـ فنحن نبرر له مقولته بأنهم غزاة، ولكنهم غزوا جهل أوربا وهمجيتها وأيقظوها من رقدة عصور الظلمات، غزوا أبناءها بالعلم والحضارة والتمدن.. وهم مخربون، نعم لأنهم خربوا حصون الجهل في أوربا وأيقظوا أبناء العرب ليعرفوا معنى العلم والتعلم. وبحمد الله ما زلنا نحيا نتائج فتوحات الغرب الاستعمارية التي وصفها فيليب حتي بأنها (فتوحات)، فها هي ذي

فتوحاتهم تجلت عن حربين عالميتين وقتل أكثر من عشرة ملايين إنسان، واستخدام سلاح ذري فتاك، واقتناص العبيد من أفريقيا كما تقتنص الوحوش، واستعمارهم للعالم العربي والإسلامي قروناً وزرعهم الصهيونية في قلب العالم العربي ثم يسمي فيليب حتي كل أعمالهم - بالفتح - لا ندري لعله يقصد الفتح الاستعماري ولكنه خجل أن يذكر ذلك لأسياده الأمريكان حيث كان يعمل مدرساً في جامعاتهم هناك.

معذرة يا فيليب حتي « إن استعمار فرنسا للجزائر فتح مبين » ودفاع المجاهدين الجزائريين عن أنفسهم وبلادهم تعصب، أن يدكّ - بورمون - قائد الحملة الفرنسية أسوار الجزائر ويدكّ غورو أسوار دمشق فذلك فتح مبين، أما أن يقف يوسف العظمة في دمشق، وعبد القادر الجزائري في الجزائر ليدافعوا عن أعراضهم وبلادهم فذلك محض التعصب الديني، وإذا وقف المجاهدون المراكشيون للدفاع عن وطنهم فهم « قراصنة بحار »[8] إن التاريخ لا يخجل من ذكر الحقائق ولكن يخجله أمثال هؤلاء المستشرقين الذين ارتموا في أحضان الغرب الاستعماري فراحوا يتجنون على التاريخ ويروونه ولا ندري كيف يلائم فيليب حتي هذا بين رفضه أن الإسلام نشر دعوته بالسيف وبين أن يصف الفاتحين بعد ذلك بالقراصنة والمستعمرين والمغتصبين!!.

عندما تكون الحقيقة غامضة جداً بحيث لا يهتدي إليها عشرات الرجال فذلك عذر لمن يبحث ويحقق في عدم اهتدائه إليها، أما أن

تكون الحقيقة أوضح من نور الشمس ثم تحتال لتغطيها بسحب افتراءاتك، فذلك ما لا نقبل فيه عذراً لمستشرق، بل لا بد من إدانته برجعية العقل والتفكير ـ ولو كان يعمل في بلد الحضارة والكمبيوتر ـ وبسماجة الخلق وبافترائه على المنهج العلمي وبخسارة الزمن الذي أضاعه في تسويد صفحات التاريخ بما ليس فيه. ورحم الله ابن عنين الشاعر يوم قال معرضاً بالقاضي الفاضل ودولته:

وحين أبصرت دولة الأحدب أربت على علا الشهب
فقلت للمسلمين ويحكم تحادبوا فهي دولة الحدّب

نعم هذه هي دولة المستشرقين، دولة الحدب الذي يرون الحقائق مقلوبة ثم لا يخجلون أن يقولوا ذلك هو الحق الصراح وما عداه الباطل. وقد صدق بعض الخفافيش ذلك فراحوا يصفقون له في غفلة من الزمن حتى ظن الناس أن ذلك هو الحق وأن المستشرقين على صراط مستقيم، بل هم قبل ذلك صدقوا أنفسهم في تلك الافتراءات فجعلوا للدراسات الإسلامية في بلدانهم كراسي جامعية على مستوى عال، خداعاً منهم لطلاب الدراسات العليا وحتى ليظن الظان أنهم حقيقة أعلم بتاريخنا وديننا وقرآننا منا نحن المسلمون. كما صرح غولد تسيهر بذلك. ولكن ما تجدْك المراجع والمخطوطات إذا كنت تبحث عن الحقيقة بعقل محدود ترى الحقيقة ممطوطة حتى لتستحيل في نظرك باطلاً، ويرون

الحق واضحاً حتى لتتحول الفتوحات الإسلامية عندهم استعماراً، وترى المناهج العلمية عند هؤلاء وقد احدودبت حتى بات واحدهم يقبل الهراء من القول فيعتمد الكتب السقيمة مرجعاً والكتب مجهولة الكاتب مصدراً ثم يبني على كل ذلك أحكاماً قاطعة يدين بها الإسلام والمسلمين. لا جرم نقول لهؤلاء المستشرقين ما هكذا تورد يا سعد الإبل، أو نخاطبهم بما خاطب الله به الناس ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]

الطعن برجال الإسلام وقادته:

ثم كانت الخطوة التالية لهؤلاء المستشرقين الطعن بقادة هذا التاريخ ورجاله العظام ورموزه الذين بيضوا صفحاته بفعال خالدات. وبما جعل الغربيين أنفسهم يعترفون بذلك ورغم ذلك مما لا تزال تسمع مطاعنهم في هؤلاء الرجال ويا ليتهم يملكون الدليل على صحة أقوالهم وإنما هي افتراءات وقلب للحقائق بعد أن نظروا إليهم من خلال المرايا المحدبة. فضاع عليهم العثور على الحقيقة.

ونبدأ بفيليب حتي الذي نظر من خلال مرآته المحدبة فرأى أن: «مبايعة أبي بكر كانت نتيجة اتفاق بينه وبين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة» هذه الكتلة الثلاثية التي أدارت شؤون الإسلام وهو بعد في مهده، وكأن هؤلاء الصحابة تآمروا وشكلوا هذا الحزب الثلاثي وفرضوا سلطانهم على المسلمين، وكيف يتآمر أبو بكر وهو القائل يوم بايعه

المسلمون: « إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني » وكيف يتآمر عمر وهو الذي سأل الرعية ما تفعلون لو رأيتم عمر قد بعد عن الكتاب والسنة فقام أحدهم وقال: « قومناك بسيوفنا » فقال: « الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من إذا انحرف قوموه بسيوفهم ».

وعلى عظمة ما فعله الخليفة عمر وما تركه في التاريخ من أمجاد فإن فيليب حتي لا يملك أن يصف وفاته إلا بقوله: « إن عمر لاقى حتفه إبان سطوته وقوته » فانظر إلى هذا الحقد الدفين والتعبير بالألفاظ النابية وإلى اختصار عدالة عمر وحكمه الذي عرفته الأرض والسماء بقوله: « إبان سطوته » لعله ظنه نابليون بونابرت إبان سطوته وجبروته. أوهكذا يظن هؤلاء المستشرقين عندما ينظرون إلى عظمائهم فيرونهم وقد صعدوا قمة المجد على تلال من الجماجم وأنهار من الدماء فيظنون أن كل بناة التاريخ وقادة الأمم كذلك مثل قادتهم.

وشوه فيليب حتي هذا قصة الرشيد ودعوة إبراهيم بن المهدي له إلى الرقة وتقديم وجبة طعام من ألسنة السمك، فقد روى المسعودي القصة:

«عندما استزار إبراهيم بن المهدي الرشيد في الرقة فزاره وقدم لهم جام (وعاء) فيه قريص السمك (قطع السمك) فاستصغر القطع وقال: لم صغّر طباخك السمك فقال يا أمير المؤمنين: هذه ألسنة السمك، قال:

فشبه أن يكون في الجام مائة لسان فقال خادمه يا أمير المؤمنين: فيها أكثر من مائة وخمسين لساناً، فاستحلفه الرشيد عن ثمن السمك فأخبر بأكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده وحلف لا يطعم شيئاً وأمر أن يتصدق به وقال للمضيف: أرجو أن يكون كفارة لسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم ثم ناوله إلى بعض الخدم، اخرج وانظر إلى أول سائل فادفعه إليه. فغمزت بعض خدمي للخروج مع الخادم ليبتاع الجام وفطن الرشيد فقال الرشيد للغلام: إذا دفعته إلى سائل فقل له: يقول لك أمير المؤمنين: احذر أن تبيعه بأقل من مئتي دينار وهكذا كان»[٩].

أما فيليب حتي صاحب الأمانة التاريخية والأستاذ الجامعي في جامعات أمريكا فقد روى القصة حتى وصل إلى (أن أخبر الرشيد بأن ثمن السمك أكثر من ألف درهم) وحذف الباقي ثم علق على القصة: «حتى إذا جردنا صورة حياة البلاط ببغداد عما ألبستها القرائح الشرقية من الإطناب والمبالغة رأينا فيها ما يملأ النفس دهشة وعجباً» عجيب أمر فيليب حتي المؤرخ المنصف هذا. عندما يدعى الرشيد إلى مائدة المهدي في الرقة فيقدم له جام من السمك يقدر ثمنه بألف درهم لا يرى في ذلك دهشة ولا يرى أثراً للقرائح الشرقية والخيال الشرقي، وعندما يعرف أن الرشيد اعترض على ذلك ورفض أن يأكل بل وأرسل السمك مع الخادم ليتصدق به. عندئذ فقط يرى أن خيال المؤرخين وقرائحهم عملت على افتعال تتمة القصة مما يثير دهشة فيليب حتى كل ذلك من

أجل أن يدين الرشيد بأنه كان يحيا حياة البذخ والبطر والترف والأشر ولهذا قطع القصة عندما انتهت بأن ثمن مائدة السمك التي جلس الرشيد ليأكل عليها هو ألف درهم ليوهمك أن الرشيد لم يكن تلك الشخصية البارزة التي صورتها المراجع العربية فها هو يحيا حياة الملوك في ترف وغنى فاحش. فهو لا يريد أن يعترف بالرشيد وحكمه العادل وزهده وإنما راح يحمل التاريخ ورجاله ما ليس فيه فصدق في بلاط الرشيد كل ما رواه صاحب الأغاني وكل ما جاء في قصص ألف ليلة وليلة من ترف وفجور وليالٍ حمراء.

وقد شوه التاريخ بما يدين به الرشيد ثانية عندما أورد حتي: « إن نقفور أرسل كتاباً مهيناً للرشيد». ولكن الحقيقة هي: « أنه في سنة ١٧٦هـ. نقض صاحب الروم نقفور الصلح الذي كان بين المسلمين وبين الإمبراطورة إريني بعد أن خلعها الروم وملكوه». وكتب إلى الرشيد: « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ (أقوى حركة في الشطرنج) وأقامت نفسها مقام البيدق (الجندي في الشطرنج) فحملت إليك أحوالها ما كنت حقيقيا بحمل أمثاله إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها و افتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك» فلما قرأ الرشيد الكتاب غضب وكتب على ظهر الكتاب نفسه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك ياابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه والسلام»[١٠] .

ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم فطلب نقفور الموادعة على جزية يؤديها كل سنة فأجاب الرشيد إلى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعة الرشيد إليه، ولكن الرشيد عاد بنفسه مع جيشه فلم يبرح حتى بلغ ما أراد وأذل نقفور وجنده.[١١] فأنت ترى أن الرشيد هو الذي كتب الكتاب المهين إلى نقفور وليس العكس ولكن فيليب حتي تأبى عليه موضوعيته إلا أن يطعن بأعدل الخلفاء العباسيين هارون الرشيد.

أما بروكلمان الموسوعي فقد ركز حملته كذلك على التاريخ الإسلامي ورجاله فبدا نقده الأعمى واضحاً في كل ما كتب ولم تجده سعة البحث عنده في أن تدعه يصل إلى الحقيقة. بل قل إنه كان يعرفها ولكنه كان يتعمد اتهام الرجال لتشويه سمعتهم ولكن التاريخ لا ينتظر من أمثال بروكلمان وغيره ليتعرف على الحقائق وحسبنا أن التاريخ كشف هذا الزيف في معظم ما كتبه بروكلمان.

فقد زعم بروكلمان عن أبي بكر: «أنه لم يحالفه التوفيق في الحكم على الحالة الدولية» كيف لم يحالفه التوفيق وقد قضى على المرتدين وأرسل جيشين في وقت واحد لقتال الروم وفارس وتابع نهجه الخليفة عمر وتم النصر فكيف لم يحالفه التوفيق، لا ندري كيف يلقي بروكلمان الأحكام دون تثبت، لقد رفع التاريخ صوته بانتهاء إمبراطورية الروم والفرس من الوجود، وافتعل المستشرقون أسباباً واهية ـ كما رأيت ـ ليعللوا سبب انتصار المسلمين عليهم. ثم يطلع علينا بروكلمان بأن أبا بكر لم يحالفه التوفيق. هل يعني هذا إلا أن بروكلمان يريد أن يشوه صورة الخليفة أبي بكر والذي أعجز الفاتحين بعبقريته وبجيشه الذي غزا أكبر إمبراطوريتين معاً.

وافترى بروكلمان كذلك على صلاح الدين الأيوبي فزعم أنه: «هدم صلاح الدين بعد تحرير القدس أماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة وفي غير ما إبطاء سعى إلى أن يقضي على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق»[١٢].

أين هي هذه الأماكن التي هدمها صلاح الدين ولو أنصفنا لوجدنا أن هدم المعابد كانت صفة ملازمة لحملات أوربا في شتى أنحاء العالم، وهل من وجه للمقارنة بين صورة بيت المقدس يوم استولى عليه الصليبيون أواخر القرن الحادي عشر «وصورته حين استعاده أهله أواخر القرن الثاني عشر. وماذا فعل الصليبيون من خراب ودمار وقتل وتذبيح

حتى ليعترف بعضهم أنهم وصلوا إلى مساجد المدينة في بحر من الدماء أما صورته يوم دخله صلاح الدين فقد حمى الأرواح وبجل رجال الدين وكرم الحرائر من النساء وصان المباني المقدسة. إذن فليس إلا الحقد يغلي في قلب بروكلمان هذا.

ثم افترى كذلك على القائد محمد الفاتح بقوله: «والحق إن السلطان محمد الفاتح ليمثل أصدق تمثيل العثماني القديم بجميع فضائله ونقائصه ذلك بأن همته الجبارة وسعيه الدائب في سبيل أهداف جديدة اقترنا بوحشية تجاوزت قسوة عصره ونفسه بمراحل عديدة وأنا لنقع عنده على ما يوازي ما كان الآشوريون عليه من معاملة أسرى الحرب من قطع الجسد نصفين بواسطة المنشار».(١٣)

وهذا يعارض ما هو معروف في التاريخ من أن محمد الفاتح عندما دخل المدينة لم يعارض مطلقاً إقامة المسيحيين لشعائرهم، بل ضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم فرجع من كان قد هاجر منهم ومنحهم حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية. وعين مجلساً مؤلفاً من أكبر موظفي الكنيسة وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسس. أما ذلك التقطيع بالمناشير فهو علامة خزي وعار على كذب بروكلمان وعلى مكانته العالية في البحث والتحقيق.

ولم يكتف بروكلمان بذلك حتى راح يطعن في عدالة هارون الرشيد وتصويره والجلاد معه، كما دان الخلفاء العباسيين بذلك فقال: «ولكنهم تصرفوا فيما يتصل بالموت والحياة مباشرة، فقد كان الجلاد ـ وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية قبل ذلك العهد ـ يلازم الخليفة دائماً وكان النطع حاضراً أبداً قرب العرش لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها».

هذا التعميم مرفوض تاريخياً ومدان علمياً ففي مواعظ المنصور لابنه المهدي: «إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا تصلحه إلا الطاعة والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعدل أقدرهم على العقوبة وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه». وكان الرشيد مضرب المثل في العدل فقد كان المتهم عنده يسوق حججه على أعلى مستوى يتصوره دفاعاً عن متهم، في حضرة خليفة يحسن الاستماع وبوجود قاض هو أعظم أهل الدنيا علماً يوم ذاك وهو أبو يوسف ولم يأمر الرشيد بقتل إنسان إلا زنديقا يعلن كفره ومجاهراً بالكفر أو مستخفاً بقيم الآخرين، أو مسلماً تبيح الشريعة قتله أو متآمراً يهدف إلى قلب نظام الحكم ليشيع الفوضى والذعر والقتل والفتك. وهكذا فإن صفق الرشيد وقال: «السيف والنطع يا غلام» فهذا يعني بعد محاكمة بكل ما في الكلمة من معنى وبعد إدانة ضمن حدود الشريعة، ولكن بروكلمان فهم من ذلك ظاهر اللفظ وبنى عليه أن الرشيد والخلفاء العباسيين

جزارون ومحبون لإراقة الدماء وقطع الرؤوس والحقيقة أنه بهذا لم يشوه سمعة الخلفاء وإنما شوه سمعة نفسه إذ بدا لنا أنه بقلمه المسموم يريد أن يطيح بهؤلاء الأعلام في تاريخنا الإسلامي. ولكنه لم يكن في ذلك إلا كناطح عاتيات الصخور برأسه فقد تحطم رأسه وظلت الصخور كما هي.

وقد طعن بروكلمان كذلك في الخليفة عبد الملك بن مروان وزعم أنه يوم استولى عبد الله بن الزبير على مكة حاول أن ينشئ في القدس بديلاً عن البيت الحرام فشيد ما يدعى بقبة الصخرة ليصرف الناس إلى الحج إليها وليس من المعقول أن يفكر عبد الملك في ذلك والحج إلى البيت الحرام فرض مفروض على المسلمين كما أن أهل الشام لم يلاقوا عناء في الحج حتى يحتال عبد الملك لهم بمثل تلك الحيلة ويدين كذلك غولد تسهير الحديث:« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.» ليشوه سمعة الزهري والخليفة معاً.

كما طعن بروكلمان كذلك في نزاهة خالد بن الوليد وشرفه فزعم أنه (أمر بقتل مالك بن نويرة وقتل جميع أتباعه طمعاً منه في زوجته الجميلة) ولكن كيف يقدم خالد على مثل ذلك الفعل الشنيع وهو على ما هو عليه من الإيمان، وقد دافع التاريخ عن خالد لبيان سبب ذلك فذكر (أنه ما قتل خالد مالك بن نويرة إلا بعد أن حاوره وأنبه على ما صدر منه من متابعة سجاح المتنبئة وعلى منعه للزكاة وقال خالد له: « ألم

تعلم أنها قرينة الصلاة» فقال مالك: «إن صاحبكم ـ يعني رسول الله ـ كان يزعم ذلك» قال خالد: «أهو صاحبنا وليس بصاحبك يا ضرار اضرب عنقه فضرب عنقه». وقد أكد عدالة خالد في قتله مالكاً مقولة عمر بن الخطاب لمتمم أخي مالك: «لوددت أني رثيت أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك مالكاً». فقال له متمم: «يا أبا حفص: والله لو علمت أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته» فقال عمر: «ما عزاني أحد عن أخي مثل تعزيته» وهذا دليل على أن مالكاً لم يكن مسلماً وإلا لعرف ذلك أقرب الناس إليه وهو أخوه متمم، ولو علم أنه من أهل الخير لما رثاه كما قال ذلك لعمر.(١٤)

وإذا كان منتهى العلم وحقيقته هو ما توصل إليه هؤلاء المستشرقون من الدس والافتراء وتشويه الحقائق فنحن لا نملك إلا أن نردد مع الشاعر:

كبر على العلم يا صديقي ومل إلى الجهل ميل هائم
وعش حماراً تعش سعيداً فالسعد في طالع البهائم

وإذا سألت لماذا يكون السعد في طالع البهائم أجبناك لأن الجهل بتاريخ المسلمين الذي سيؤخذ من هؤلاء المستشرقين هو أولى بالناس، وإلا فما قيمة دين وإسلام أقام حضارة وقيماً وإنسانية لا نجد فيه عند هؤلاء المستشرقين ما يمكن أن يشار إليه بالبنان لا في لغة ولا فكر

ولا حضارة ولا تاريخ. ولكنها حزازات النفوس والأحقاد التي نبتت في مراعي قلوب هؤلاء المستشرقين والتي لم تستطع الأيام اقتلاعها:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى

وتبقى حزازات النفوس كما هيا

تشويه الحضارة:

إذا كانت الحضارة تراثاً إنسانياً تشارك فيه شعوب الأرض ويأخذ اللاحق منها من السابق على قدر همته وسعيه، فمن العجب أن يمنع هؤلاء المستشرقون أن يكون للعرب والمسلمين دورهم في نهر هذه الحضارة، وأنهم ليسوا إلا سعاة بريد ووسطاء نقلوا حضارة اليونان والرومان إلى الغرب المسيحي الذي بدت الحضارة الإنسانية على يديه في قمتها فقد نقل سيديو في تاريخه العام عن همبولد بأن العرب: « كانوا مستعدين بما يقضي بالعجب ليمثلوا دور الوسيط بين الأمم القاطنة فيما بين نهر الفرات والوادي الكبير »[١٥] كيف يكون هؤلاء العرب وسطاء فقط في نقل الحضارة وكتب أطبائهم ظلت تدرس إلى مطلع القرن السابع عشر في جامعات العالم، ولماذا ترجم الغرب علوم العرب في العصور الوسطى عن العربية إلى اللاتينية ولم يترجموا تلك العلوم من اليونان أنفسهم، لا جرم أن اليونان كانوا قد أضاعوا تلك العلوم يومها وكانوا كالطفل المدلل المتلاف فلم يحافظوا على الميراث الذي أخذوه

من بلاد مصر والرافدين. بل إن ساراتون أبدى أنه: «من سذاجة الأطفال الافتراض أن العلم بدأ في بلاد اليونان» وها هو ول ديورانت يؤكد أن حضارتهم إنما ترجع إلى آسيا والشرق «إن قصتنا تبدأ بالشرق لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنية معروفة لنا»[١٦].

كما أكد دور المسلمين في الحضارة المؤرخ الكبير سيديو (لقد كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم وكانوا هم السبب في خروج أوربا من الظلمات إلى النور)[١٧].

ولكن يحلو للغربيين أن يغمطوا العرب هذا الدور الحضاري الذي قاموا به عبر التاريخ فتراهم يدعون أن حضارة الإغريق نشأت هكذا من العدم ولم تتأثر بغيرها وأن العرب ليسوا في مسيرة الحضارة إلا وسطاء ليس إلا.

وإذا كانت الحضارة هي ميراث الفكر والثقافة واللغة والدين والعلوم للأمة، فإن الطعن فيها جميعاً هو طعن بتلك الحضارة في نفس الوقت ولهذا ترى أن الغزو الفكري بتشويه لغة العرب وقرآنهم ونبيهم ورجالهم إنما هو في نفس الوقت تشويه للحضارة.

وما فتئ ساسة الغرب يرددون على أسماع العالم والأجيال المتعاقبة أن الإسلام هو المسؤول عن التخلف السائد في أكثر بلاد الإسلام مع العلم أنه لا يمكن لأي منصف أن ينكر أن البلاد التي طبق

فيها الإسلام قد تمتعت بازدهار مادي ومعنوي، وكيف يكون الإسلام سبب تخلف لأبنائه وريادة العلوم ونشأتها كانت في دار الإسلام ومدارسه وجامعاته ومدنه في الأندلس ودمشق وبغداد، وحواضره جميعاً وقد أنشأت تلك الحواضر الإسلامية المدارس التي نهضت بالعلوم نهضة رائعة كانت القاعدة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، ولهذا لا تعجب إذا ما رأيت المستشرقين يتناولون أول ما يتناولون بالطعن في جوانب حضارتنا، تلك العلوم، فبروكلمان مثلاً عندما شاهد جمود العلوم في أخريات الدولة العثمانية، حمل ذلك على الإسلام كلية ودان به الدين فقال:

« ذلك أن العلم لم يكن يعني عند المسلم اكتساب معارف جديدة بل التمكن إلى أقصى حد مستطاع من المعارف التي أنتجتها الأجيال السالفة » وهذا من أغرب ما يصدر عن مستشرق ملم بشيء من الثقافة والعلم فضلاً عن كونه عالماً ومؤرخاً وكأنه لم يقرأ عن حضارة العرب وعلومهم وفلاسفتهم وكأن أوربا لم تترجم تلك العلوم والكتب ولم تسرق تلك المخطوطات والتي ما تزال في مكتبة بروكلمان بعض منها، ويفاخرون بأنهم يمتلكون مخطوطات كنوز حضارة المسلمين ثم يطلعون علينا بأن العلم عند المسلمين ما هو إلا صورة مكررة لما عرفه سابقوهم فلا جديد عندهم، ولم يعد دينهم يصلح لتطور العصر بل إنك لتسخر من فيليب حتي عندما تسمعه يصرح: « بأن بناء المدارس في الإسلام من النوافل ».

وقد بالغ غير واحد من هؤلاء المستشرقين فزعموا أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية، ولكن المستشرقين أنفسهم ردوا هذه الفرية تاريخياً وعلمياً، فالمكتبة أحرقت قبل أن يفتح عمرو مصر بثلاثة قرون فأنى يحرقها عمرو، ثم لماذا يحرق عمرو المكتبة ودينه يأمر بالعلم والتعلم والعرب أنفسهم كانوا يتوسطون ليصلوا إلى أقبية الكتب عند الرومان واليونان لإخراج تلك الكنوز وترجمتها لنفع الإنسانية.

وبعد عدة قرون من بداية النهضة الأوربية شرع الغرب يفتخر بليبرالية التعليم أي التعليم العقلي الموجه، وراحوا يدينون نظام التعليم في الإسلام بأنه يعتمد بشكل كبير على حفظ القرآن الكريم وبذلك فإنه يركز على الاستظهار دون فهم، وبالتالي فهو يفشل في تطوير الملكات العقلية الخلاقة للفرد مما يؤدي إلى ضيق الأفق العقلي، ولكن الحقيقة التي لا يريد هؤلاء الاعتراف بها هي أن الإسلام أوجد كل المعارف والعلوم وأن القرآن كان مصدر تلك العلوم سواء بدراستها مباشرة أو الحض عليها وأن المناهج العلمية الاستقرائية التي وجدت عند ديكارت في القرن السابع عشر إنما وجدت عند المسلمين منذ القرن الأول عند علماء الحديث الذين كانوا أول من وضع أصولها. وأما عن مدارس الغرب التي يزعمون أنها تعلم التحرر الفكري وسعة القلب والعقل بعكس مدارس الإسلام فما ذلك إلاّ ضجيج دعاية فقد سادت مدرسة الفنون الحرة الإنجليزية في شبه القارة الهندية منذ مائة عام ولم يكن نتاج هذه المدرسة أكثر من أفراد يتسابقون للحصول على شهادات

ودبلومات أعطتهم جواز مرور إلى وظائف تافهة وقل مثل ذلك في أنظمة التعليم الغربية السائدة في آسيا وأفريقيا فالقيم المبتذلة والتفكير السطحي من السمات الغالبة على إنتاج تلك الأنظمة. (١٨)

وما يفتأ هؤلاء الغربيون يرددون أن العقائد والمواعظ والتعاليم الواردة في القرآن والحديث لا تصلح إلا لتلك المرحلة الزمانية والمكانية، وبناء على ذلك فالمستشرقون ما زالوا يحتجون بأن أمتنا لن تتحرر، من العبودية والتخلف في نظرهم إلا بطريقين: إما أن نعتنق المادية والإلحاد وإما أن نعلمن دولة الإسلام (نجعلها دولة علمانية). والشعار الحديث لعلماء اللاهوت في اليهودية والنصرانية يقول: «لا يمكن لأي تعاليم أو عقائد أو مناهج حياة مهما كانت ربانية أن تستمر بفعالية في هذا العالم المتسم بالإبداع والتطور والتغير المطرد»، وهم إنما يعلنون ذلك أخذاً من أن دعاة العصرنة في الحضارة الغريبة ولمجرد كونها تهيمن وتسيطر على الأرض فلها تفوق على جميع الحضارات الأخرى ولهذا فهي حضارة سليمة ومتطورة ومدنية وتقدمية وتتطلع إلى المستقبل دائماً بينما الحضارة الإسلامية متخلفة وليس لها أمل في التطور لكون أبنائها شغلوا أنفسهم بالثواب والعقاب، ولكون الإسلام يشترط منهم الطاعة المطلقة للشريعة وهم يرون في ذلك ـ اعتداءً إجرامياً على حرية الفرد ـ ولذا فالمسلمون في نظرهم مخطئون عندما تخلفوا عن التطور والموضة والعري ولحم الخنزير والأفيون والتحلل. فما لم يأخذوا بكل ذلك سيظلون وراء الأمم.

هذه النظرة مأخوذة عند الغرب من أن الحياة عندهم مادة فقط، وأن الدين قد أدى دوره وانتهى وصار حاجة شخصية ثانوية قد يرجع إليها وقد لا يحتاجها، ولكن الحقيقة، لو ناقشنا النتيجة التي انتهى إليها الغرب في حضارته من وراء إطلاق الحريات لرأينا أن الغرب تدب فيه الفوضى في كل أطراف مجتمعاته فالطاعة التي فرضها الإسلام إنما هي لأوامر ونواه لا يستطيع العقل الراجح أن يرفض منها شيئاً، وليس بالضرورة أن تكون طاعتك لمفاهيم صحيحة سيؤدي بك إلى ألا تكون إنساناً حضارياً كما أنه ليس صحيحاً أن التخلص من الدين مدعاة لأن يجعل منك إنساناً حضارياً. فإذا علمت أن الدين لم يهتم بالجانب المادي للحياة، بل جمع إليها الجانب الروحي ووازن بين الدنيا والآخرة في نظام حياة وأسلوب عيش قل نظيره في العالم أدركت أن الدين بهذا المفهوم لا يمكن أن يكون سبب تأخر المسلمين ولا يمكن إلا أن يكون ديناً حضارياً تقدمياً ولعلنا نأسى اليوم لما آلت إليه النظم الاقتصادية الرأسمالية والشيوعية، حيث لم تستطع أن تحل عقدة العيش عند البشر دون أن يكون هناك استغلال أو احتكار أو تحكم. وقد ثبت بطلان ما ذهب إليه هؤلاء القوم من أن الأديان الغيبية والمعايير الأخلاقية لا وجود لها وأن خير الإنسان مرتبط بالازدهار الاقتصادي وأن نماء المنجزات المادية يشير إلى نمو روحي وأخلاقي، فها هو الغرب قد أطل علينا بماديته وأخلاقياته فلم نعرف منها إلا ألواناً من الحروب والعذاب والدمار للبشر ولم نعرف في كل نظمه أنه استطاع أن يوقف السرقة

والغش والزنا ويمنع الخمرة والأفيون ولم يستطع بناء مجتمع راق حتى يصلح أن يكون نموذجاً للأمم، ورغم ذلك تجد هؤلاء يحملون القرآن الكريم مسؤولية تخلف بلاد الإسلام وركودها الحضاري وكأن عندهم هذا البديل، وكيف يلام وينعت الدين بالتخلف الحضاري وهو الذي يدعو إلى البحث والتقصي والنظر في ملكوت السماوات والأرض، وهو الذي كان فيه أبناؤه قادة العالم لمدة خمسة قرون في الطب والصيدلة والعلوم والرياضيات والتجارة، وأن المسلمين صاغوا العلوم الإغريقية صياغة جديدة جعلوا لها أثراً في الميدان العملي التجريبي في الوقت الذي كانت فيه تلك العلوم عندهم متعة عقلية ليس إلا.

ونحن نأسف لفيليب حتي المؤرخ عندما يجعل العرب في ميدان الحضارة العالمية وسطاء وسعاة بريد فحسب حينما يقول: «قاموا ـ أي العرب ـ مقام الوسيط بأن نقلوا خلال العصور الوسطى كثيراً من هذه المؤثرات الفكرية التي أنتجت بالتالي يقظة أوربا الغربية ونهضتها» ولا ندري إذا كان العرب وسطاء وسعاة بريد فقط كيف نقل الغرب حضارته عنهم؟ ولماذا لم يتجه إلى اليونان مباشرة لينقل من كتبهم ومخطوطاتهم وقد اجهدت المستشرقة الألماينة هونكه نفسها في الرد على هؤلاء ودفع هذه التهمة عن العرب فعندما ذكر بعضهم «أن تاريخ العالم في الآداب والفنون والعلوم يبدأ بالنسبة للإنسان العربي من مصر القديمة وبابل ثم يمر سريعاً ويتشعب ببلاد اليونان ويتابع سيره ماراً بالعصور الوسطى المسيحية لينتهي بالعصور الحديثة» بعيداً عن ذكر دور

الحضارة العربية، وعندما ذكروا آن العرب نقلوا كنوز القدامى إلى بلاد الغرب دون إضافات، نجد هونكه تعلق على ذلك: «بأن بساط الحضارة نسجته وتنسجه أيدٍ كثيرة وكلها تهبه طاقاتها وكلها تستحق الثناء والتقدير». ثم تخص العرب بالتعظيم: «إن ما قام به العرب المسلمون لهو عمل إنقاذي له مغزاه الكبير في تاريخ العالم، وإن حضارة قد هوت وتحطمت (حضارة اليونان) وكانت على وشك الفناء أمام أعين خالقيها. الذين صار لهم الآن هدف لا يمت لهذا العالم بصلة، فما بقي من هذه الحضارة يجب أن تشكر عليه البشرية اليوم العرب وحبهم للعلم ولا يعود لبيزنطة منه إلا فضل قليل» (١٩).

أما أن يلجأ هؤلاء المستشرقون إلى تشويه حقيقة الدين والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ثم يروحون ليصفوا المسلمين بعد ذلك بأنهم متخلفون حضارياً فذلك منتهى الكذب والافتراء، هذا يتم في الوقت الذي تسمع فيه أن عالمية الإسلام وشموليته وقيمه تلقى ترحيباً كبيراً عند كثير من الباحثين الموضوعيين.. وإلا كيف تفسر مواصلة الإسلام تقدمه الحثيث في آسيا وأفريقيا، وفي دول الغرب نفسه وعلى الرغم من الانحطاط الذي أصاب المسلمين فإن المستشرقة فاغليري ترى: «أن القرآن لا يعقل أن ينبثق عن غير الذات التي وسع علمها كل شيء في السماء والأرض» (٢٠) وهي تؤكد بأنه: «بينما نجد جميع الأديان تقدم إلى أبنائها حملاً ثقيلاً من العقائد التي لا يستطيعون حملها وفهمها نرى الإسلام ذا سهولة معجزة وهو قادر على النفاذ إلى أعماق نفوسهم من

غير ما لجوء إلى شروح مطولـة أو عظات معقدة». إذن بـهذه البسـاطة وبتلك الآيات التي تخاطب العقول والقلـوب بنـى المسـلمون حضارتـهم ولم يكونوا بحاجة إلى أن يستعيروا بردة الحضارة من أحد ولكنهم رغـم ذلك لم يمانعوا فـي الاستفادة مـن حضـارات الأمـم كلـها فنبشـوا كنـوز اليونان والرومان وأعملوا عقولهم حتى بنوا صرح تلك الحضارة.

وإذا كان المسلمون اليوم قد فقـدوا بريـق حضارتـهم تلـك لتحـول الدين عندهم إلى مجرد طقوس وعادات وتقـاليد شـكلية، ممـا أدى إلـى انغلاقهم على أنفسهم وبالتالي إلى انتقال العلوم إلى أعدائهم، إلا أن ذلك كله لا يدين الإسلام وقواعده بشيء، بقـدر مـا يديـن الغـرب نفسـه الـذي عمل ـ ومازال يعمل ـ على القضاء على الإسلام وبالتالي على حضارتـه في صورة التدخل المباشر بالدول الإسلامية ومحاولـة قلـب نظـم الحكـم فيـها وفـي صـورة الغـزو الفكـري والثقـافي والحضـاري وعلـى كافـة المستويات.

لقـد هلـل بروكلمـان وكـبر يـوم أزيـل وجـه الحضـارة الإسـلامية والإسلام عن تركيا واستبدلت نظام الإسلام بالعلمانيـة الغربيـة بـل صـرخ معلنا فرحته يوم دوّى صوت الأذان بالتركية فـوق مآذنـها. ويـوم صبغـت الحياة الغربية وجه تركيا وصف بروكلمان ذلك بـأن الأتـراك عرفـوا الآن معنى الحرية الدينية. بل إنك لتسمع هذا الصوت الحاقد على لسان وليـم بالكراف حين يقول: «متى توارى القرآن ومكة من بلاد العرب يمكننا أن

نربي العربي حينئذ ليندرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه» وبهذه النظرة كان الإسلام عند كرومر: «إن الإسلام بطبيعة تعاليمه عدو للحضارة الأوربية».

ولا ندري والقرآن ما يزال العلم حتى اليوم يكشف بعض أسراره كيف يدعي هؤلاء المستشرقون مثل تلك الدعاوى وكيف يفهمون من ذلك تخلف المسلمين وزمنية قرآنهم و مكانيته وأنه أدى دوره وانتهى، والعجب الأكبر يبدو في هذا الاهتمام العريض الذي أقدم - ويقدم - عليه المستشرقون منذ قرنين، على الدراسات القرآنية والأحاديث النبوية وتاريخ الإسلام، وهذا التركيز على تشويه الإسلام في كافة مجالاته فإذا كان الدين قد أدى دوره وانتهى حضارياً وفكرياً، فلم هذا الوجل الذي يصدع قلوب المستشرقين منه، ولم هذه الحملات الشعواء التي لم تدع جانباً من جوانب الإسلام إلا وطعنت فيه. إن هذا التركيز من هؤلاء المستشرقين على الإسلام يجعلنا نتأكد أن هناك أصولاً ثابتة وقيماً حضارية عظيمة تستطيع أن تخلق من العرب أمة قوية من جديد إذا ما طبقت تلك المبادئ. وهذا بالذات ما يحمل هؤلاء المستشرقين على تشويه العقيدة والحضارة والتاريخ والفكر واللغة عند المسلمين.

وإن لم يكن الأمر كذلك فإن الحقيقة الساطعة هي التي استطاع أن يهتدي إليها المنصفون من أبناء الغرب أنفسهم فجعلوا للقرآن مكانته العظمى في بناء الأمم وللأحاديث دورها في التشريع والتنظيم، وللتاريخ

الإسلامي وللأمة الإسلامية حضارة رائدة استقى منها الغرب أصول حضارته.

فقد اعتبر ـ أرنولد توينبي ـ أن سيرة رسول الله السياسية عاملاً عظيماً في تواريخ الحضارات، وشدد المستشرق جون.س.بادو على أن العرب خلقوا حضارتهم ولم يفرضوا حضارة عن طريق الغزو فقال: «لقد برزت تلك الحضارة إلى الوجود ضمن الدولة الجديدة وأخذت هوية وطابع النظام الجديد الذي نجم عن فتوحات الإسلام».

وقال: «ولم تكن حضارتهم صورة مركبة من نتف وقطع حضارات مختلفة وإنما كانت نمطاً جديداً متميزاً صهر كل تلك الألوان والحضارات والثقافات بروح جديدة». (٢١)

ونستمع إلى مسيو إدوارد مونتيه يؤكد أن: «الإسلام في الواقع حضارة قائمة بنفسها ترجع أصولها إلى قديم الزمان».

ونحن نرى اليوم أن الحضارة الغربية بكل ما فيها أحوج ما تكون إلى الإسلام من أي وقت آخر، فما فيها من خير ورقي وتقدم يتلاقى مع الإسلام وما فيها من شر وظلم وجبروت تجد الإسلام قد نهى عنه وذم فاعليه، ونحن بانتظار أن تلتقي هاتان الحضارتان ليكون في ذلك سلام العالم وخيره بعيداً عن كل مهاترات المستشرقين ودعواهم الكاذبة.

***

مراجع الفصل الثامن

(١) كتاب ـ تحرير الاستعمار ـ د. شوقي أبو خليل ـ منشورات جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس ١٩٩١.

(٢) مجلة رسالة الجهاد عدد ٩٣ ـ مقال د. شوقي أبو خليل حول ـ غوستاف لوبون.

(٣) انظر كتاب ـ أجنحة المكر الثلاثة ـ الشيخ عبد الرحمن حبنكة.

(٤) مجلة رسالة الجهاد ـ العدد ٦٢ مقال قلم التحرير عن ـ كارل بروكلمان.

(٥) مجلة رسالة الجهاد العدد ٦٥ مقال د. شوقي أبو خليل عن فيليب حتي.

(٦) انظر تفسير القرطبي ـ سورة هود ـ ص ـ٣٢٨٤ طبعة دار الشعب ـ المجلد الخامس.

(٧) انظر كتاب تحرير الإستعمار. د. شوقي أبو خليل.

(٨) مجلة رسالة الجهاد العدد ٦٥. د. شوقي أبو خليل مقالة عن فيليب حتي.

(٩) المرجع نفسه.

(١٠) المرجع نفسه.

(١١) المرجع نفسه.

(١٢) مجلة رسالة الجهاد العدد ٦٢/ مقال قلم التحرير عن كارل بروكلمان.

(١٣) المرجع نفسه.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) انظر ــ كتب أنصفت حضارتنا ت للأستاذ فريد حجا.

(١٦) المرجع نفسه.

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) مجلة كلية الدعوة الإسلامية ــ العدد السابع ١٩٩٠ ــ طرابلس ليبيا ــ.

(١٩) انظر كتاب ــ شمس العرب تستطع على الغرب ــ د. زيغريد هونكة.

(٢٠) مجلة رسالة الجهاد العدد ٩٤ مقال د. شوقي أبو خليل عن المستشرقة لوزافيشيا فاغليري.

(٢١) انظر كتاب ــ عبقرية الحضارة العربية ــ مجموعة من المؤلفين ــ ترجمة عبد الكريم محفوض.

الفصل التاسع

افتراءات جديدة للمستشرقين

إذا كان هؤلاء المستشرقون قد رأوا في الإسلام خصماً عنيداً منذ آن أخرجوا من بيت المقدس بعيد اغتصابهم له مدة طويلة، وإذا كان الإسلام قد انتشر في الأندلس وكادت راياته تخفق في فرنسا وأوربا كلها، وإذا كان العثمانيون قد أوصلوا هذا الإسلام إلى أسوار فيينا والدانوب، فإن الغرب ما زال يرى أن هذا الدين هو العقبة الوحيدة التي تحول بينهم وبين تنصير الأمم والشعوب، والغريب أن هؤلاء لم يفلحوا في نشر عقيدة التثليث ـ إلا قليلاً ـ ولما كانوا يبغون تنصير المسلمين للاستيلاء على أراضيهم، ولما كانت عقيدة المسلم أصلب من الصخر في قلبه، لكل ذلك أضمروا أحقاداً خفية ظهرت صورتها في الاحتلال العملي الاستعماري لبلدان الإسلام، ومن ثم مضوا لينشروا عقيدتهم.

ورغم ذلك لم يفلحوا إذ ثبت لديهم أن هؤلاء المسلمين يستحيل أن يبدلوا عقيدتهم كما ثبت عندهم أنه ما من شعب مسلم أسلم ثم بدل عقيدته، ولما كانت عقيدة المسلمين مرتكزة على القرآن الكريم والسنة النبوية لذا فقد كمن هؤلاء المستشرقون في جامعاتهم يوجهون السهام للنيل من هذا الدين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وما لبثوا أن شهروا أسلحتهم في وجوه المسلمين وأقلامهم لتحريف الكتاب والسنة ولهذا بدؤوا بالدس والافتراء وترجمة القرآن والطعن في الأحاديث النبوية وأسانيدها ورواتها ومشاهير المحدثين والرواة كابن عباس وأبي هريرة والزهري، حتى طعنوا برسول الله ﷺ نفسه فادعوا أنه لم يكن يستشعر أنه رسول يوماً ما.

هؤلاء المستشرقون الذين تربوا على كراهية الإسلام والطعن في أهله اطلع متأخرهم على كتب الأوائل منهم أمثال دوزي وشاخت وغولد تسهير ومرجليوث وفيليب حتي[١] فورثوا تلك السموم والأحقاد من خلال تلك الكتب التي وضعت لهم أو من خلال تلك المحاضرات التي كانت تلقى عليهم. على الرغم من أن أغلبهم لم تكن له هذه الأهلية لتسلم مركز الأستاذية وقد ذكر الدكتور السباعي ماراه في رحلته إلى أوربا وملاقاته بعض هؤلاء المستشرقين وأن بعضهم يدرس نصوصاً من ـ الكشاف ـ للزمخشري أو أحاديث مما جمعه البخاري ومسلم وهو لا يستطيع فهم جملة في جريدة. ومع ذلك يروح واحدهم يشرح كتاب الله وحديث رسول الله كما يحلو له متمشياً مع المدرسة الاستشراقية التي وجهته ليكون عمله متوازياً مع آراء تلك المدرسة في التشويه والدس والطعن لإخفاء الصورة الحقيقية، وإلا فما معنى أنهم لا يمنحون شهادة الدكتوراه لبحث ينصف الإسلام وأهله.

زد على ذلك ما ادعاه هؤلاء من أنهم درسوا القرآن والحديث دراسة منهجية علمية، بل ادعى بعضهم أنه أعظم فهماً وتحليلاً لنصوص القرآن والحديث من المسلمين كما فعل ـ كايتاني ـ الإيطالي فانظر إلى هؤلاء كيف حملوا قضية المنهج العلمي وسرقوها من علمائنا في الحديث ثم راحوا يطبلون ويزمرون بها وأنها ميزة امتاز بها الإنسان الغربي في البحث والتحقيق والدراسة العلمية ثم بالغوا وراحوا يطبقونها

ـ بما تحتوي من وسائس خفية ونوايا شريرة على القرآن والسنة فكان أن خرجوا بنتيجة مفادها أن القرآن ليس من عند الله بل هو من كلام محمد وليس هو كلام محمد نفسه بل هو تلقاه عن بحيرا الراهب أي أن القرآن إن هو إلا امتداد لما جاء في التوراة والإنجيل فليس فيه فضل زيادة أو تميز عن سابقيه من الكتب السماوية.

نقول: إذا كان الأمر يرونه كذلك فما خشيتهم هذه على أبنائهم من الإسلام وما خوفهم المتزايد من الدين الإسلامي وأهله؟ وطالما أن القرآن الكريم هو امتداد للإنجيل والتوراة أو هو موجود فيهما، وهم يؤمنون بالتوراة والإنجيل، فلم هذه القيامة التي أقاموها على أبناء الإسلام واحتلوا ديارهم، ولم يعمدون إلى تشويه قرآننا وقد تلاقت أفكار القرآن مع التوراة والإنجيل؟ ولم تمادوا فزعموا أن معظم الأحاديث النبوية لم يقلها رسول الله وإنما هي من وضع المسلمين في القرون الثلاثة الأولى؟ وكان رائدهم في ذلك كايتاني الأمير حيث زعم: « إننا معشر الغرب غير المسلمين لم يخف علينا الشك في قيمة الحديث النبوي لكثرة إطلاعنا على مسائله وهو شك يتزايد ويتعاظم كلما تقدمنا في دراستنا للحديث باحثين فيه عن مواطن التناقض وما لا يقبله عقل »[٢].

ما أعظم غرور هؤلاء الناس بأنفسهم وما أكثر استخفافهم بعقول الآخرين، وانظر إلى مقولة كايتاني هذه وإنصافه ومنهجيته، فهو يقبل على دراسة الحديث وفي ذهنه مسبقاً ما سمعه من أساتذته من شك

وتناقض في حديث رسول الله، فهو لا يقبل على الدراسة بأسلوب العالم المنصف الذي يريد أن يميز الغث من السمين أو الصحيح من الضعيف كما ينبغي أن تكون الدراسة، وإنما يقبل على دراسته وفي ذهنه رأي مسبق وجاهز فيروح يبحث ليرينا مواطن التناقض والذي لا يقبله عقل، ـ وكأن الأحاديث ليس فيها إلا هذا التناقض ـ وليس كذلك يكون البحث المنصف ولا الباحث العادل.

إذاً فهو قادم ليشوه صورة الأحاديث النبوية ورواتها وشيوخها من أجل أن ينفر المسلمين من ركن عظيم بني دينهم عليه وهو الحديث النبوي، ومعنى ذلك أنه لم يصح عنده شيء من حديث رسول الله، إلا القليل ولذا راح يتناول الموثوق بهم من رواة الأحاديث ومن أكابر القوم أمثال أبي هريرة وابن عباس والزهري وراح يطعن فيهم، فأين التوثيق وأين المنهجية والدراسة الأكاديمية والثقافة الموسوعية؟ ليس أمام هؤلاء إذن إلا الحقد على الإسلام بهدم أصلين من أصوله وهما القرآن والسنة، ومن أجل تنفيذ ذلك تراهم وقد لجؤوا إلى أساليب متعددة فمرة يدعون المنهجية العلمية، ومرة يدعون سعة أبحاثهم وعمقها ومرة يدعون أن لديهم من المخطوطات ما لا يعرفه العرب. وبهذا راحوا يشوهون عقيدة المسلمين، بعقول شيطانية ونوايا استشراقية مغرضة، ومخططات استعمارية لا تخدم إلا دولهم وعقيدتهم الباطلة.

ونقول لهؤلاء قبل الخوض في الرد عليهم: « إذا كنت تريد أن تقدح في عقائد الآخرين أو تناقش تلك العقائد فيجب أن تكون:

١ـ على إطلاع واسع بقرآنهم ودينهم وثقافتهم.

٢ـ أن تملك زمام اللغة العربية حقيقتها ومجازها، وتملك مقدرة في تحليل النصوص وخاصة المتشابه منها، والذي يحتمل أكثر من وجه.

٣ـ أن تكون النزاهة رائدك في بحثك والتفتيش عن الحقيقة غايتك ولو كانت هذه الحقيقة تناقض ما تعتقده من أفكار.

٤ـ أن تكون في بحثك حراً ونقصد هنا حرية التفكير، وعدم الانتماء إلى مدرسة فكرية استشراقية لها آراؤها المغرضة في الدس على الإسلام مسبقاً لأنك عندئذ سترضخ شئت أم أبيت إلى آراء تلك المدرسة أو على الأقل ستضطر أن تخلط السم في الدسم فتمدح وتقدح وتعلي وتخفض كما فعل فيليب حتي في تاريخه.

٥ـ الأكاديمي المنهجي هو الذي يتعرض لجملة من الآراء ليخرج منها برأي سديد وهو الذي يرجع إلى المراجع العربية الأصيلة طالما أن البحث في قضية إسلامية تخص العرب، وإلا أوقعت نفسك موقع الظن والاتهام بمحاولة النيل من الإسلام وأهله، ولا ريب أن المسلمين العرب تعرضوا في القرون الأولى للرد على هؤلاء الذين عارضوا القرآن والحديث، ووضعوا قواعد وضوابط دقيقة لمعرفة الأحاديث الصحيحة.

٦ـ صاحب المنهج العلمي لا يقتطع من الخبر الجزء الذي يدعم رأيه فقط ويترك الجزء الباقي الذي هو الحقيقة التي تناقض ما توصل إليه تماماً كما قرأ إبليس هذه الآية (لا تقربوا الصلاة.) ولم يكملها، وهذا أسوأ ما يتخلق به الباحث وهو صورة من صور المكر والتدليس ولا تدل إلا على غباء صاحبها زعماً منه أنه لا أحد يراه وينسى أن علماء الأمة بل مواطنيه لا بد أن يعرفوا الحقيقة يوماً فيا خجلته من التاريخ والمنهجية ومن مواطنيه عندئذ، وكذلك صاحب المنهج العلمي لا يدلي برأي معمم دون تحديد أو دون أن يكون له أصل ولا يطلق خبراً فيه دس وافتراء دون تحقق من ذلك كما فعل ـ منجانا ـ عند ما صرح أنه وقع على ترجمة للقرآن بالسريانية سقط قسم منها ليوهمنا أن القرآن الكريم يختلف عن هذه النسخة التي رآها.

٧ـ الحقائق الصادقة كالشمس مهما حاول المستشرقون إخفاءها فلا بد أن تظهر يوماً ويكفي هؤلاء المستشرقون خجلاً ما يوجهه إليهم مواطنوهم من المستشرقين المنصفين من لوم وعتاب على أساليبهم الملتوية التي يلجؤون إليها وقلبهم للحقائق لا لشيء إلا لكون الإسلام ديناً سماوياً ما تزال رايته تغزو العالم، ولا لشيء إلا لكونهم يتوهمون أن الإسلام هو العدو الأول لهم. والغريب أن هذا العدو لا يحمل سلاحاً ضدهم وهم متقلدون أسلحتهم في كل ساعة ورغم

ذلك تراهم يفشلون والإسلام يتمدد كعبق الزهر لا يوقفه شيء وصدق الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح له لسان حسود

ومن هؤلاء الذين تعمدوا الدس والافتراء ـ على عمق دراسته وموسوعيته ـ كارل بروكلمان الألماني والذي ما قرأت في كتاب تاريخ للأدب إلا وشهدت معظم كتابنا يشيدون بموسوعيته الأدبية وغزارة إنتاجه ومراجعه الكثيرة والمخطوطة حتى أوهم الكثيرين أنه منهجي في دراساته لا يبتغي إلا جلاء الحقيقة. فلما جاء إلى العقيدة والدين لم يمنع نفسه من الدس والتشويه وليس ذلك عجيباً. وقد طارت له شهرة عظيمة في الشرق والغرب، في فقه اللغة وقراءاتها وفي التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب مما جعل كتبه مراجع يعتمدها غيره من الكتاب، وما ذلك إلا لكون الكنيسة راضية عما يكتب حيث لم يقدم حقائق تثير رجال الكنيسة كما فعل ريسكه ـ زميله الذي أبغضوه وحالوا بينه وبين كرسي الجامعة.[٣].

بروكلمان هذا في معرض حديثه عن النبي ﷺ قال (لسنا نعلم علم اليقين السنة التي ولد فيها محمد النبي وليس يبدو أن عشيرته هاشم لعبت دوراً على شيء من الامتياز في مكة. والواقع أن الروايات الإسلامية قد سعت إلى أن تحيط النبي بها لما له من التمجيد منذ اللحظة الأولى.)

وهذا كلام مرفوض فميلاد النبي ﷺ معروف في كل المراجع الإسلامية الموثقة، ونحن نحتفل كل عام بمولد النبي ﷺ في وقت معروف ولكن ليقل لنا بروكلمان لماذا يحتفلون هم بعيدين لميلاد المسيح، وإذا كانت المراجع ذكرت بعض الاختلاف عن يوم ميلاده فليس ذلك بطاعن في نبوة النبي ولا خلقه ولا دينه وهل جهلنا بذلك دليل يدفعنا إلى أن نحقد أو نكره أو نشوه سيرة النبي، وهل جهلنا بميلاد الرجال العظماء مثلاً دليل يدفعنا إلى الشك في أخلاقهم وتقواهم. إن ما يقدس الإنسان ليس يوم ميلاده وإنما تقدسه أخلاقه وفعاله ودينه وتقواه ثم غمز بروكلمان في عشيرة النبي وعلى الرغم من أن بني هاشم كان لهم دور كبير في مكة، وخاصة بعد أن حفر ـ عبد المطلب بن هاشم ـ بئر زمزم وتولت هاشم سقاية الحجيج وهو شرف عظيم يومئذ ناله أجداد النبي وبقي لهم إلى بعثة النبي، وكل الدلائل التي كانت في مكة كانت تثبت لما لبني هاشم من قيمة واحترام وتقدير، بل إن النبي نفسه قد اعترف بأنه من خيار العرب وقريش وبني هاشم (فأنا خيار من خيار من خيار) ثم ماذا على ـ بروكلمان ـ هذا ألا تكون هاشم قد لعبت دوراً على شيء من الامتياز في مكة هل لهذا تأثير على نبوة النبي ـ لا ندري ما يقصد من وراء ذلك ـ بل إننا لنرى عندئذ إذا ثبت أنه لم يكن لها شم مثل ذلك الدور، نرى ذلك مدعاة للفخر بهذا النبي الذي لم تكن له عشيرة قوية ممتازة تحميه ورغم ذلك استطاع تبليغ الرسالة ونشر دين الله.

وهو يرى أن الروايات أحاطت النبي بهالة من التمجيد والعظمة. لا ندري هل هو ينفس عليه هذه المكانة ويحسده على تبوّئه قمتها، أم هو جاد فيما يقول، إن من صنع من قبائل متناحرة متباغضة عباد أوثان ليس لهم حضارة ولا مجد، من صنع من هؤلاء أمة قوية حضارتها صارت أساساً لحضارة الغرب نفسه وبنى عليها الألمان قوم بروكلمان ـ أصول تقدمهم إن من فعل ذلك فبقيت علومه وحضارته إلى أيامنا هذه، نرى أننا مهما أحطناه بهالات التقدير والتكريم مازلنا مقصرين عن مجازاته وهل كان ينتظر منا أن نمجد هتلر وموسوليني وماركس أكثر من تمجيدنا لرسول الله، ثم ما هو الغلو الذي رآه في ذلك التمجيد، هل جاوزنا حدنا في ذلك كما جاوزوا هم حدهم في تأليه المسيح عليه السلام ثم ضاعوا في تمجيدهم له بين آب وابن وروح قدس، ويحضرني هنا هذا المثقف الأوربي الذي التقى الذكتور عمر فروخ، فقد أنكر المثقف على الدكتور فروخ أن يقول محمد رسول الله قائلاً له: « أنت الرجل المثقف تريد أن تبحث بحثاً علمياً ثم تدعي أن محمداً رسول الله بلا دليل عقلي وعلمي». يقول د. فروخ : « فعلمت أن المنطق لا ينفع مع صاحبي فقلت له: ولكن يا أخي أتنكر علي ـ في باب البحث العلمي ـ أن أقول محمد رسول الله بينما أنت تقول إن المسيح هو الله ـ فبهت صاحبي».

وقد جاء النهي لهؤلاء النصارى عن الغلو في دينهم في قوله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ [النساء :١٧١] بل ويبدو عندي أن هؤلاء النصارى وقد شوهوا سيرة نبيهم فجعلوه يبيت على خشبة الصليب يريق دمه من أجل أن يفتدي بنفسه خطايا بروكلمان وأمثاله ـ في الوقت الذي لا تزر وازرة وزر أخرى ـ وجعلوا من ذلك عقيدة لهم. في هذا الوقت كأنما عز عليهم أن يروا المسلمين قد أحاطوا نبيهم بهالة من التعظيم والإجلال تليق بصاحب رسالة عالمية نقول لبروكلمان هذا: يا أخي أطلقوا نبيكم عن خشبة الصليب واحتفلوا به وأحيطوه بهالة من الإجلال كما فعل المسلمون بنبيهم، وكفاكم كيداً وحسداً ودساً وتشويهاً. ثم نقول لبروكلمان أين هي هذه الهالة إذا كان النبي نفسه نهى المسلمين عن القيام له وتعظيمه كما تعظم الأعاجم ملوكها ونهى عن السجود إلا لله، وقد بلغ من تواضعه ما هو مذكور في سيرته ولم نعهد الشعراء رفعوه إلى مكانة الألوهية التي تسنمها المسيح بل سمعنا البوصيري يقف عند قوله:

ومبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

ثم راح بروكلمان يكرر ما ذكره غيره من «أن محمداً اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى وهو ورقة بن نوفل» لماذا يصر هؤلاء المستشرقون على مثل هذه الفرية وليس عندهم الدليل المقنع الذي يجعلنا أو يجعل الناس يصدقون أن طفلاً أو فتى في الثالثة عشرة من عمره يلتقي ولمرة واحدة بورقة بن نوفل النصراني ـ والقرآن لم يكن قد نزل بعد ـ وخلال هذا اللقاء استطاع ورقة أن يلهم القرآن الكريم لمحمد الفتى، فيرجع رسول الله وينام بعدها ٢٧ عاماً ويستيقظ في الأربعين، يعلن للناس ما جاءه من الوحي؟ هذه الفرية تقتضي أن يقنعنا هؤلاء بأن فتى ما، يستطيع أن يلهمه نصراني مثل ورقة أفكاراً عظيمة كالتي جاء بها القرآن العظيم، ولا ندري هل الإلهام مما اختص الله به ورقة أم هو سارٍ على بقية رجال الكنيسة حتى يمنحوا فتياننا أو على الأقل فتيانهم مثل هذا الإلهام ولعلهم فعلوها فكان لديهم ما يزيد عن مائة إنجيل قبل أن يصطلحوا فيما بينهم على أربعة منها مؤخراً.

وهذا كرم حاتمي من هؤلاء النصارى، فعلى قلة معرفتهم بالتوراة والإنجيل يومئذ ورغم التحريف الذي حدث لكتابهم إذ بدأ التحريف من قبل بولس في القرن الثاني للميلاد ونبينا ولد في القرن السادس رغم ذلك لم يمتنعوا أن يجعلوا محمداً قد أخذ القرآن عن ورقة، ولعلهم نسوا في غمرة أريحيتهم هذه أن يبقوا لأنفسهم شيئاً من القرآن أو لعلهم نسوا أن يلوموا ورقة هذا الذي فوّت عليهم فرصة ذهبية فراح يلقن القرآن لمحمد

لا لراهب نصراني آخر، لعله لم يجد من هؤلاء النصارى من هو أهل لذاك.

ثم انظر مقولة بروكلمان المستشرق المتعمق، كيف صاغها بصيغة التمريض: «فلعله ـ النبي ـ اتصل بجماعات من النصارى». أفكتاب عظيم كالقرآن بنى أمة ودولة وحضّر شعوباً واعترف علماء من كل أقطار الدنيا بحضارة الإسلام وهو يريد أن يهدم هذا البناء وينسبه إلى النصارى فلا يملك إلا كلمة ـ لعل ـ لمَ لَمْ يتحقق بروكلمان من ـ لعل ـ هذه بالمقارنة بين الإنجيل والقرآن ليرى حقيقة ذلك.

وإذا كان الأمر كما ذكر من أن محمداً ﷺ قد أخذ القرآن من ورقة هذا فهذه محمدة لنا ولهم علينا بهذا أن نلتقي على شريعة واحدة لأن كتبنا السماوية واحدة مأخوذ بعضها من بعض فلماذا وقفوا منا موقف المعادي، فغزوا بلادنا وقتلوا في حروبهم الصليبية عشرات الألوف وشوهوا وفعلوا ما فعلوا. فإذا كان قرآننا هو نفس إنجيل ورقة فإنهم ليبدون اليوم في منتهى التعصب الذميم وهم يعادون الإسلام، ولكن الحقيقة تبدو خلاف ذلك، ورقة لم يلهم النبي ﷺ وهو فتى بشيء وما كان ليمنحه شيئاً في مدة وجيزة، وبالمقارنة تجد أن القرآن يملك من وسائل الإعجاز اللغوي والفكري والحضاري والعلمي والمستقبلي ما يزال به ينبض بالحياة حتى يومنا هذا وما أظن أن إنجيل ورقة كان يحوي من ذلك وإلا لماذا حرفه أبناء المسيح فجعلوه مئة إنجيل أو يزيد.

كما كرر بروكلمان فرية أخرى تعاهد هؤلاء المستشرقون فيها بينهم وأقسموا بالمسيح فيما بينهم ليكررونها حتى يتم تشويه الإسلام ونبي الإسلام، تلك الفرية هي: «وكان على محمد أن يعوض هذه الخسارة ـ (في صلح الحديبية) التي أصابت مجده العسكري عن طريق آخر ففكر في القضاء على اليهود فهاجم بني النضير لسبب واهٍ».

عرفنا من السيرة النبوية أن غزو النبي لبني النضير لم يكن لسبب واهٍ كما يدعي بروكلمان المحقق ولكن كان بسبب تآمرهم وخيانتهم، فقد تآمروا عليه واستزاروه واستعدوا رجلاً ليعلو السطح فيلقي صخرة على رسول الله ويتخلصوا منه، ولكن الله نجاه منهم ومن كيدهم. هذا سبب واهٍ في رأي بروكلمان. ولا ندري كيف سيرى ذلك ـ قوم بروكلمان ـ هذا إذا تآمر اليهود الألمان عليه فاستزاروه إلى بيوتهم ثم استعدوا من ألقى صخرة من علٍ عليه فأطاحت بحياته، أكان الألمان ساعتئذ يرون في هذا سبباً واهياً تافهاً مثلما يرى في تآمر اليهود على حياة محمد. وإذا كان قومه يرون ذلك فما نرى ذلك إلا من هوان بروكلمان على قومه، وأما محمد فما أظن مسلماً يمكنه أن يفرط بحياة نبيه فضلاً عن أن يدع يهودياً ليتآمر على حياته.

بل قل لماذا لا يكون ذلك سبباً واهياً في نظر بروكلمان وهو يكتب ضمن مدرسة استشراقية كنسية لها حريتها ومنهجيتها التي تدعمها ولها السبق في تأييد اليهود وتبرئتهم أمام العالم، بل لها شرف الطعن في نبوة الأنبياء والكيد للإسلام.

ثـم انظـر كيـف راح يربـط بـين فشـل النبـي فـي الحديبيـة ـ والذي ادعاه ـ وما ترك هذا الفشل عليه من أثر بالقيام بحملته على بني النضير في خيبر.

وهذه افتراءات تناقلها هؤلاء المستشرقون بعضهم عن بعـض وهـم يظنون أنهم بنقل هذه الأخبار الملفقة ستصبح يوماً ما في نفوس الأجيـال حقائق موقع عليها من قبل مرجليوث وشاخت وبروكلمان وفيليب حتـي وغيره. ونسوا أن التاريخ لا يمكن لأعلم أهل الأرض أن يزور صفحاته.

فالحديبية صلـح رضـي بـه النبـي بينـه وبـين قريـش، وكتبـه النبـي بأخلاقه وصبره وحلمه على قريش حتى لا تـراق قطـرة دم واحـدة وهـو يتوقع إسـلامهم ولـهذا رضـي بالشـروط المذلـة ـ والتـي ثـار مـن أجلـها الصحابة وحتى عمر ـ وعارضوا في البدء لدرجة أن عمـر أعلـن لرسـول الله ـ كيف نرضى الدنية في ديننـا ـ ورغـم كـل ذلـك كـانت نهايـة ذلـك الصلح، لمصلحة المسلمين، فحقنت دماء المسلمين وعاد المسـلمون لأداء العمرة في العام التالي وانتشر الأمان وصار الصحابة يزورون أقاربهم فـي مكة وانتشرت الدعوة فبينما كان النبي يوم الحديبية في ١٤٠٠ صحـابي، دخل مكة بعد عامين بعشرة آلاف صحـابي. أي أنـه أسلم خـلال هذيـن العامين خمسة أضعـاف مـن أسلم قبـل ذلـك فـهذه فـي رأي بروكلمـان وحساباته الرياضية الاستشراقية ـ هذه خسارة عسكرية ـ لا أظن أن هتلر نفسه صاحب المغامرات غير المتعقلة يوافقه على ذلـك. وكيـف يعـوض

هذه الخسارة الكبرى في رأي بروكلمان ـ فكر النبي وقدر فكانت غزوته المفاجئة لهؤلاء اليهود. ألا ترى أن بروكلمان وقد زور التاريخ ـ يبدو وكأنما استأجرته الصهيونية العالمية من أجل أن يجد سبباً يدين به النبي عندما هاجم خيبر، فكانت هذه الفرية التي ادعاها من أن النبي أصيب بهزيمة في الحديبية، ولكن نسي بروكلمان أن يذكر الأسباب الأخرى وراء ذلك وخيانة وتآمر هؤلاء اليهود ونسي أن يذكر فعل هذا النبي الغازي كيف أبقى هؤلاء اليهود ـ بعد أن انتصر عليهم ـ في أراضيهم يزرعونها.

وكأنما أراد أن يسم نبينا بالحقد الذي تمتلئ به صدور القادة إذا فشلوا في معركة ما والغريب أن النبي ﷺ قد نكأ الدمل الذي يخز في خاصرة بروكلمان فكشف المستقبل لنا عن أن النبي رغم عداوة اليهود له ورغم انتصاره عاملهم معاملة حسنة. فأين الخسارة؟ وأين الأحقاد؟ وأين هذه الافتراءات التي يدعيها بروكلمان عند رسول الله ؟ ألا يخجل بروكلمان من إطلاق هذه الفرية حتى عندما يسمع الصهيوني اليهودي.د. إسرائيل ولفنسون ذلك يتخذ عذراً لمهاجمة محمد خيبر (وهم يهود) بقوله: (وقد علم الرسول بما يدور في خلد يهود خيبر فأخذ يتهيأ لقتالهم).

أبعد هذا يمكنك أن تشك في أن بروكلمان هذا إنما يعمل ضمن مدرسة استشراقية كنسية غايتها الطعن بالإسلام ونبي الإسلام؟.

وقد رأى بروكلمان أن هذا الدس لا يكفي سادته في الكنيسة ليرضوا عنه فكانت فريته الكبرى على النبي والتي أراد أن ينسف بها كون النبي نبياً حقيقة فقال: «وليس من الميسور أن نقرر على وجه الدقة ما إذا كان النبي قد استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية».

ترى ماذا يقول بروكلمان لو أننا واجهناه بمثل مقولته للنبي: «أنه من غير الميسور علينا نحن أيضاً أن نقرر على وجه التدقيق ما إذا كان كارل بروكلمان يستشعر أنه يكتب في تاريخ الأدب العربي والحضارة الإسلامية والعقيدة والتاريخ الإسلامي" هل يرى في هذا سبباً كافياً لاتهامنا إياه بذلك وإخراجنا إياه من دائرة البحث والتحقيق والموضوعية. فكيف يريدنا أن نقبل تهمته للنبي تلك.

لماذا يقول ذلك هل لديه الدليل على أن النبي ﷺ كان يشك في نبوته أو في الوحي هل هناك نص ديني أو مقولة لأحد الصحابة أو حتى لكفار قريش تؤيد مثل ذلك الرأي، بل عرفنا أن كفار قريش كان واحدهم يقول: «ما رأينا أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً» فكيف يشكون بنبوته بل كيف يشك هو نفسه بنبوته.

وهذا ـ كايتاني ـ الإيطالي بعد تشويه القيمة التاريخية لسيرة ابن هاشم وابن اسحق وبعد أن انتقد كبار رواة الحديث من الصحابة كابن عباس وأبي هريرة والزهري. انتهى إلى قوله: «إذا تكلمنا من ناحية علمية لوجب نبذ الجزء الأكبر ـ من الأحاديث.. والاكتفاء فقط بالقرآن

وبعض الأحاديث التي لا يشك في قدمها وصحتها »[٤] وأنت ترى رغم افتراءات كايتاني العظيمة لم يستطع إلا أن يعترف بالقرآن وبأحاديث للنبي ﷺ فكيف يعترف كايتاني بالنبي وبأحاديث له ويطلع علينا بروكلمان أن النبي لم يكن يستشعر أنه نبي. وهذا القرآن الذي رضي كايتاني بالاكتفاء به نسمع فيه قوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب :٤٥].

فكيف يبيح بروكلمان لنفسه مثل تلك الفرية، إنه محض التعصب البغيض والحسد الذميم إذ رأى دعوة الإسلام تغزو العالم وتدخل قلوب الملايين وشهد لها القريب والبعيد، فعز عليه ذلك وظن أنه بفريته تلك يستطيع أن يهتك رايات الإسلام التي خفقت فوق بقاع الأرض، كما ظن أنه يستطيع أن يفعل شيئاً وقد رضي أن يكون تحت وصاية سدنة الكنيسة يكتب ما يريدون ويفتري ما يقترحون..

وقد زعم المستشرق مايور ـ كما نقل عن مرجليوث (أن أهل البدو كانوا كثيري الاهتمام بتعلم البلاغة وطلاقة اللسان فلا يبعد أن النبي مارس هذا الفن حتى نبغ فيه).

وتلتقي مع هذه الفرية، فرية غولد تسهير من أن الأحاديث النبوية ما هي إلا مجموعة من وضع القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وليس من قول رسول الله، وادعى أن أحكام الشريعة لم تكن معروفة لدى جمهور المسلمين في الصدر الأول من الإسلام وأن الجهل بها وبتاريخ الإسلام

كان لاصقاً بكبار الأئمة. وقد حشد لذلك بعض الروايات الساقطة مما نقله عن كتاب الحيوان للدميري وأن أبا حنيفة لم يكن يعرف هل كانت بدر قبل أحد أم بعدها.!! فانظر سخف هذا القول وإلى أية درجة بلغ هؤلاء المستشرقون في أبحاثهم وضعف تفكيرهم فإن أطفالنا اليوم يعلمون أن بدراً كانت قبل أحد فكيف أشكلت هذه المعضلة أن يفهمها أبو حنيفة وهو ركن ركين في الفقه الإسلامي. فغولد تسهير يطعن في فهم وثقافة أبي حنيفة وأستاذه اليهودي شاخت يدرس أحاديث البخاري ومسلم التي بنى أبو حنيفة وأضرابه الفقه الإسلامي عليها. فانظر كيف يطعنون بأئمتنا من جهة ويروحون يدرسون أحاديث البخاري ومسلم من جهة أخرى لتشويش عقول طلبتهم.

وعوداً على فرية مايور بأن البدو كانوا على اهتمام بالبلاغة وأن النبي قد يكون مارس هذا الفن عنهم. إذا كان البدو يعرفون البلاغة ويهتمون بها لدرجة صلح أن يلقنوها رسول الله فهؤلاء المستشرقون قد درسوا البلاغة وادعوا أنهم أشد فهماً لها منا وبعضهم صاروا يمنحون درجات علمية عالية، فلماذا وهم على هذا المستوى من المقدرة العلمية لماذا لا يمارسون البلاغة ويخرجون منها بمثل ما خرج محمد لهداية الخلق. ونقول لهم: ما الذي يعيقكم عن ذلك والمخطوطات العربية عندكم وكتاب محمد ـ القرآن ـ بين أيديكم، ما الذي يمنعكم أن تدّعوا النبوة وأنكم أصحاب رسالة من عند الله كما فعل محمد. وإذا كان النبي

قد تلقى بلاغته من البدو فهم إذن علموه ما ستطاع به أن يأتي بالقرآن فالقرآن إذن ليس من عند الله بل هو يمثل بلاغة النبي التي ورثها عن شيوخه ـ البدو ـ الذين يدعيهم مايور ومارجليوث.

كذب هؤلاء ولكن محمداً رسول الله أنزل عليه الكتاب. وهو كلام متميز عن كلام العرب بدوهم وحضرهم عجزوا أن يأتوا بمثله، وأن غولد تسهير وشاخت ومرجليوث وفيليب حتي ولوبون ومايور وجب ولوي ماسينيون ونيكولسون. كل هؤلاء الحاقدين أعجز من أن يأتوا بسورة مثل كتاب الله، ومن عظمة كتاب الله أنه عندما تحداهم أعطانا الجواب مسبقاًبأنهم عاجزون عن هذا بقوله تعالى ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء :٨٨] فليرينا هؤلاء المستشرقون ـ وقد صاروا أفهم منا بشريعتنا وبديننا ـ وهم أهل الحضارة والرقي، فليرونا آية واحدة دليلاً على تفوقهم حتى يصح لنا أن نؤمن معهم بأن القرآن كلام محمد وأنه تعلمه من البدو الرحل، فكيف يتعلم النبي البلاغة من البدو ويضع القرآن ـ وقد صار عندهم ترجمته ـ ثم لا يستطيعون هم أن يفعلوا شيئاً، فعجزهم هذا دليل على افتراءاتهم، واعتراف العرب بما فيهم ـ البدو ـ ببلاغة القرآن دليل على كذبهم، وما في القرآن الكريم من آيات وعلوم ودلائل مستقبلية يترفع عن أن يأتي بها النبي محمد فضلاً عن أن يعلمه إياها هؤلاء البدو، كل ذلك دليل على الدسائس التي يفتريها هؤلاء المستشرقون.

وأما فيليب حتي رغم أقواله التي تحسب له مدحاً للمسلمين ولنبي الإسلام، إذ ذكر (أن النبي استطاع في سحابة عمره أن يهيئ الوسائل لنشوء أمة قوية لم تكن قد نهضت من قبل واستطاع أن يؤسس ديناً دحر النصرانية واليهودية، واستطاع أن يضع حجر الأساس لإمبراطورية ما لبثت أن حوت بين أطرافها كل مقاطعات العالم المتمدن.![٥]

رغم هذا المدح إلا أن فيليب حتي لم يخل في كتبه من الدس الرخيص، فراح يغمز في هذا النبي إذ جعله دعياً منتسباً إلى قريش وليس من قريش ثم جعل أمية بن أبي الصلت تربطه قرابة به عن طريق أمه، وأن العرب لما أمعنوا في ضلالتهم أساءوا إليه ـ إلا زوجته خديجة ـ التي كانت قد تأثرت بتعاليم ابن عمها ورقة بن نوفل حنيفي فكانت أول امرأة أسلمت ـ) كل ذلك ليقول لنا بأن محمداً ﷺ تأثر بورقة وألهمه ورقة القرآن، وهذه خديجة تتأثر بورقة بن نوفل ابن عمها لا ريب أنها أثرت أيضاً بثقافتها النصرانية التي تلقتها عن ورقة، على رسول الله مما يكون عند ـ حتي ـ حجة جديدة تؤيد الزعم الذي يقول بأن النبي قابل ورقة بن نوفل، ولو تلقى النبي ﷺ شيئاً عن ورقة بن نوفل هذا لقامت قيامة قريش عليه إذا كان من العرب نصارى وهم يعرفون الإنجيل. فلو رأوا في القرآن شيئاً من مثل ما في الإنجيل لكان في ذلك حجة بالغة لكفار قريش يدينون بها محمداً من أنه لم يأت بجديد، وكيف يقولون ذلك وقد أعجزهم ذلك وهم أرباب الفصاحة عن أن يأتوا بمثله.

ولو كان النبي تلقى القرآن عن ورقة فكيف لا نجد هذا التشابه بين عقيدة المسلمين والنصارى وعلى الرغم من دحض الحجج التي يتمسك بها هؤلاء النصارى في إثبات ثالوثهم، دحضاً علمياً وعقلياً فهم متمسكون بها فكيف يصح لهم ـ ودليلهم في هذا الثالوث يختلف عن وحدانية المسلمين ـ كيف يصح لهم أن يزعموا بأن محمداً أخذ قرآنه عن ورقة بن نوفل وهو في الثالثة عشرة من عمره.. وتأييداً لتلك الفرية راح فيليب حتى يطعن بأمية النبي وراح يفسر الأمي بأنه الذي لا يقرأ الأسفار المقدسة مما عند اليهود والنصارى، ليصح له القول بأنه ولو كان نبياً أمياً لم يقرأ التوراة والإنجيل فهو لأجل هذا يكون قد تلقاه شفاهة من ورقة هذا.

ومذهب ـ حتي ـ هذا على مبدأ (إذا لم يكن ما تريد ـ من الدس ـ فأرد ما يكون) وفسر الكلام كما يحلو لك.. والحقيقة أن أمية النبي صفة أثبتها القرآن له وهي صفة محمدة فيه ودليل رباني ليفقه هؤلاء القوم أنه لا يمكن لأمي أن يأتي بقرآن مثله فضلاً عن عجز علماء البلاغة، ولو كان يعرف الكتابة والقراءة (التي ادعاها حتّي له إذ نفى عنه القراءة في الأسفار أي أنه قادر أن يقرأ شيئاً غير الأسفار) لعاتبته قريش على هذا الكذب وأنه كتب القرآن، كيف وهم مازالوا يسمونه الصادق الأمين وكيف وقد عجز شعراؤهم عن أن يأتوا بآية واحدة من مثله.

لو كان هؤلاء المستشرقون مخلصين في أبحاثهم وهم يدعون أن قرآننا مأخوذ من إنجيل ورقة لوجب عليهم أن يمتدحوا محمداً هذا الذي حافظ على كتابهم المقدس ونفى عنه التدليس والتحريف. أما وقد ادعوا تلك الدعوى ـ ووقفوا موقف العداء من الإسلام ونبي الإسلام فما ذلك إلا دليل على بطلان تلك الدعوى، بل لو كانوا صادقين أكثر لتمنوا للنبي ﷺ ما تمناه ورقة له بعد أن نصح عمه أبا طالب ونبهه إلى خطر اليهود عليه، قال: يا ليتني فيها جذع، وتمنى أن لو عاش ولدافع عن رسول الله ضد بعض هؤلاء الكفار.. ونحن نقول لورقة اليوم: ليتك حاضر اليوم لترى أن أعداء رسول الله لم يكونوا هم اليهود والمشركين وإنما هم المستشرقون أمثال مرجليوث وغولتسهير وحتي وبروكلمان. فانظر إلى هؤلاء كيف يكيدون للإسلام ولنبي الإسلام، وورقة هذا من نسبوا إليه أنه لقن النبي القرآن، يتمنى لو يعيش ليدافع عن رسول الله. ونحن لا نملك لهؤلاء المستشرقين أن نخاطبهم إلا بما خاطبهم به ربنا ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾ [آل عمران:٦٤]

***

مراجع الفصل التاسع

(١) فيليب حتي: مستشرق مسيحي من لبنان كرسته الجامعة الأمريكية في بيروت ليقوم بهذا الدور الاستشراقي الخطير وذلك أن نصارى العرب هم أقدر الناس على مثل هذا الدس لفهمهم اللغة العربية ولهذا فعند ما عقد رئيس الجامعة الأمريكية ــ هوار دبلس ــ عام ١٩١١/ مؤتمرا لاتحاد الطلاب المسيحيين العام في استانبول كان ممن حضروه فيليب حتي وأخوه وطانيوس سعد ومريم بارودي وكانت غاية المؤتمر: (توحيد حركات الطلاب المسيحيين وجمع المعلومات المتعلقة بالأحوال الدينية للطلاب ثم التعاون على مد مملكة المسيح بين جميع العالم وعلى أخص في البلدان غير المسيحية) من كتاب التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ ومصطفى الخالدي.

(٢) كتاب ــ من قضايا الفكر الإسلامي ــ منشورات كلية الدعوة الإسلامية ــ طرابلس ليبيا.

(٣) مجلة رسالة الجهاد العدد ٦٢ مقال رئيس تحرير المجلة بعنوان (كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان) وعرضه الكتاب.

(٤) من قضايا الفكر الإسلامي ــ مقدمة حوليات الإسلام لكايتاني عوض وتحليل د. الصديق بشير نصر ــ منشورات كلية الدعوة ــ ليبيا.

(٥) مجلة رسالة الجهاد العدد ٨٤/ انظر مقال د. شوقي أبو خليل.

الفصل العاشر

الصهيونية أخطر مظاهر التغريب

عندما لا يكون لك نسب تعتد به في الناس، ثم لاتأبه لذلك فقد يجد الآخرون لك عذراً، أما إذا كنت ذا نسب عريقٍ بينٍ، تقرُّ به وتفاخر، ثم تروح بعد ذلك لتقدح في ذلك النسب أو تحاول تشويهه أو تطعن بجهلك في أصوله، ويلقى منك الآخرون ما لا يكاد يصدق من التصرفات، فذلك ما يجعلك سبةً على ألسنة الناس في نواديهم أبد الدهر. ذلك هو ما أقدم عليه هؤلاء اليهود، ففي الوقت الذي راحوا ينسبون أنفسهم إلى الأنبياء ويعتدّون بذلك، ولا يفتأون يرددون أنهم أبناء إبراهيم واسحق ويعقوب، بل ويتخذون لكيانهم اسماً من (إسرائيل) وهو يعقوب عليه السلام، ويزعمون أنهم شعب الله المختار، في هذا الوقت تراهم فجأة وقد انقضوا على هؤلاء الأنبياء قتلاً وتمزيقاً وفتكاً وتجريحاً، فيصمونهم بكبائر من القول والفعل يترفع عنها أوساط البشر فكيف بأنبياء الله تعالى؟ وقد دعاهم السيد المسيح عليه السلام بأولاد الأفاعي، ومسخهم رب العباد قردة وخنازير وجعلهم لعنة التاريخ، وذكر أفعالهم ورذائلهم وجرائمهم في كتاب سماوي خالد يتلى إلى يوم القيامة.

هؤلاء اليهود بدؤوا تاريخهم بالمواربة والخداع والتكذيب لأنبياء الله وشرائعهم، ثم عدوا عليهم بالقتل ثم ثنوا بتحريف كتابهم المقدس وتآمروا على قتل المسيح عليه السلام، وقبل ذلك كان حالهم مع سيدنا موسى عليه السلام عجباً، وهو يحاول انتشالهم من وحول الذل الذي أحاط بهم من الفراعنة ثم ترددهم في الخروج معه وحتى بعد أن رأوا المعجزات عياناً، ثم ضلالهم في صحراء التيه وعبادتهم العجل ورفضهم

دخول فلسطين معه لأن فيها قوماً جبارين، ثم ما كان منهم زمن سيدنا محمد ﷺ من تآمر وغدر وخيانة ونقض للعهود، ومحاولتهم قتله، حتى أجلاهم بعيداً عن جزيرة العرب، ثم ما كان منهم من إثارة الفتن في المجتمعات الإسلامية ممثلين بعبد الله بن سبأ، وغيره ممن انتحلوا المذاهب الباطلة وراحوا يبثونها في المدن الإسلامية لتمزيق وحدة المسلمين بحيث أن النصارى عندما وافقوا على تسليم مفاتيح بيت المقدس لسيدنا عمر رضي الله عنه اشترطوا عليه ألا يساكنهم فيها اليهود. ثم تذكر ما كان منهم عبر التاريخ حيث قطعهم الله فرقاً وأحزاباً في الأرض، وكيف عادوا إلى مسرح الأحداث يتسلطون على مقدرات الشعوب ويتآمرون مع القوى الاستعمارية لاضطهاد الأمم واستغلال خيراتها، إلى تحكمهم بإعلام واقتصاد الدول العظمى، وتسيير سياساتها وفق أهوائهم مستخدمين كل قواهم المنظمة بإشراف وكالة المخابرات الإسرائيلية (الموساد) والمحافل الماسونية والمنظمات والمؤسسات الصهيونية عبر العالم مستخدمين في ذلك كل أساليب الاحتيال والخداع والتضليل والرشوة والنساء والمال والتهديد، لتنفيذ مآربهم.

فمن هم هؤلاء الذين أثبت التاريخ أنه ما من بقعة ساد فيها الهرج والمرج والاضطرابات والحروب والقتل والسلب إلا وكان اليهود من وراء كل ذلك؟ من هم أولئك الذين ضاقت الشعوب في الأرض من مآسيهم وفسادهم، فعملت على إخراجهم من بلدانها تخلصاً من شرورهم؟ من هم هؤلاء الذين عكروا صفو حياة الأمم والشعوب لينتهوا بطرد شعبنا

من فلسطين واحتلال أقدس مقدسات المسلمين، وما هي أساليبهم ومنظماتهم، وكيف عملوا على تغريب الإنسانية في حضارتها ورقيها ودينها وأخلاقها وسلبوا البقية الباقية من حياء الإنسان وكرامته وشرفه وأمانه واطمئنانه؟.

تحريف التاريخ والدين:

لقد أثبت المحققون والباحثون في التاريخ وفي علم الآثار أن هؤلاء القوم (اليهود) لم يكونوا على دين موسى عليه السلام وأن إلههم - يهوه - الذي اتخذوه لأنفسهم هو من صنيع أفكارهم وهو غير الإله الذي دعا إليه موسى عليه السلام وأنهم قد كفروا بما جاءهم به واتهموه بالزيغ والكفر، ثم عمدوا بعد موته إلى اختلاق توراة من عند أنفسهم نسبوها إليه وادعوا فيها ما شاءت لهم أهواؤهم ونفوسهم المريضة وادعوا أنها منزلة من عند إلههم - يهوه - الذي يأمرهم بالمنكر وينهاهم عن المعروف ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]. والقرآن الكريم لا يعترف إلا بالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام والتي هي نور وهدى ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٥]. هذه التوراة التي تضمنت وحدانية الله والإيمان باليوم الآخر والجنة والنار، ومواعظ الأنبياء لم يعد لها وجود بتلك الصورة التي كانت زمن موسى عليه السلام فقد تخلص اليهود منها وكتبوا غيرها بما يتلاءم مع أهوائهم ومخططاتهم ثم زعموا أنها توراة موسى.(١)

لقد حرفوا كتابهم المقدس وشوهوه تأويلاً وتعمية إخفاء للحقائق الإلهية وليحافظ رؤساؤهم ورهبانهم على مكاسبهم وقد وصفهم القرآن الكريم..

- ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

- ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] - وفي غمرة حبهم للسلطان وحفاظاً على مراكزهم أن تضيع منهم قام فريق من رؤسائهم الدينيين بإخفاء بعض الأسفار في الهيكل وقد أخبر الله عنهم:

- ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥].

- ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٦١] وحذرهم باللعنة من كتمان ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ونقل هنا بعض ما أكده العلماء من ضياع التوراة الأصلية. يقول جان ملتر سنة ١٨٤٣: «اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية وكذا نسخ العهد القديم ضاعت من أيدي عسكر بختنصر، كما ورد بأنه لما فتح أنتيوكس ملك ملوك الفرنجة أورشليم أحرق جميع نسخ العهد

القديم وأمر بقتل كل من يوجد عنده نسخة منها، وكانت هذه الحادثة قبل ميلاد المسيح بأكثر من مائة عام»[٢] ومما يجزم أن هذه التوراة المتداولة ليست توراة الله أنها صورّت أنبياء بني إسرائيل في صورة مشوهة ونزعت عنهم العصمة وردتهم إلى درك الشرك والكفر والقتل فقد ورد فيها أن لوط عليه السلام زنى بابنتيه ـ والعياذ بالله ـ وحملتا من أبيهما وولدتا له ولدين هما أبو المؤابيين والعمانيين، كما ورد أن داود زنى بامرأة أوريا قائد جيشه بعد أن صير زوجها إلى المعارك فقتل كما زعموا أن سليمان عليه السلام ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها معابد[٣].

ومن انحراف وتزييف توراتهم هذه ما تجد فيها من دعوة إلى التفرقة العنصرية (وهي التي ما زالت الصهيونية اليوم تمارسها في جنوب إفريقيا (وقد استقلت) وفلسطين ومناطق أخرى) وذلك بجعل اليهود هم شعب الله المختار، وأن بقية الشعوب هي شعوب وضيعة ثم تضع التوراة لليهود قوانين ليتحكموا بالشعوب كتحريم قتل بعضهم بعضاً وجواز إخراج الآخرين، بل الواجب عليهم غزو الشعوب الأخرى وضرب رقابهم بالسيف بعد الانتصار، واسترقاق نسائهم وأطفالهم والاستيلاء على أموالهم...

وقد انتهى غوستاف لوبون من وصفه لهؤلاء اليهود بأنهم في عهد ملوكهم ليسوا إلا بدويين أفاقين سفاكين وأن البادية كانت وطنهم الحقيقي وأن فلسطين لم تكن غير بيئة مختلقة لهم، وأنهم لا أثر للرحمة فيهم فكانوا يفتعلون المجازر باسم الإله يهوه.[٤]

وأنهم ليسوا سوى قبائل بدوية أرهف حدها الجوع والحرمان وقوّى عودها التهجر والتبدي في سيناء فشهرت سيوفها للاستيلاء على أرض العسل واللبن، وحين رأوا أصحاب الأرض انقضوا عليهم انقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين. (٥)

وكان من نتيجة إيمانهم بمبادئ التوراة المزيفة أن أباحوا لأنفسهم الظلم والعدوان والفساد وإخراج الآمنين من عرب فلسطين من ديارهم، وهنا وصفهم كاتب ـ قصة الحضارة ـ ويل ديورانت بقوله: « إن الربانيين والحاخاميين أخذوا يفسرون التوراة حسب أهوائهم وبالشكل الذي يرضي غرائزهم الشريرة ». وهذه القسوة والشراسة التي صورتها التوراة ينتقدها الدكتور ـ سوسة ـ بقوله: « إن عزو مثل هذا العمل والوعد بأرض كنعان القائم على القتل وإبادة الجنس، إلى الله عز وجل إن هو إلا سبة موجهة إلى ذات الله كما لا يمكن أن يكون هناك إله سماوي يأمر بإبادة الجنس البشري والفتك بالشعوب المسالمة البريئة » ثم يعلل ذلك:

« ولا غرو في ذلك فيهوه إله التوراة إن هو إلا إله قبلي ينحصر واجبه بالعناية بقبيلته (اليهود) فهو يخولهم حق ارتكاب كل ما في وسعهم للحصول على الغذاء والثراء كما أنه يبرر كل ما يرتكبه شعبه المختار من المعاصي..).

وقد بدا للدكتور ـ أحمد سوسة ـ من خلال استقراء المكتشفات الأثرية والمصادر التاريخية أن هؤلاء اليهود كتبوا تاريخهم في بابل حيث كانوا في الأسر وكتبوه حسبما أملته عليهم أهواؤهم ونزعاتهم الدينية

والسياسية، ولم يكتف هؤلاء اليهود بأن جعلوا تاريخهم يرجع إلى عهود قديمة لم يكن لها وجود، بل بالغوا في ذلك بإرجاع لغتهم العبرية إلى عهود قديمة أيضاً، فاعتبروا وجود لغتهم، العبرية قبل دخول أرض فلسطين في القرن الثالث العشر الميلادي. في حين أن العبرية التي كتبوا بها التوراة مشتقة من الأرامية، ولم تظهر إلا بعد مرور أكثر من ٦٠٠ عام على دخول اليهود أرض فلسطين فكتبوا بها العهد القديم، لتضليل الناس وفي هذا يقول الخبير القانوني هنري كتن عن تأثير الدعاية الصهيونية المضللة:

« إن حقيقة مسألة فلسطين قد ظهرت تحت أطباق من التضليل المتعمد والوقائع الشائكة والدعاية المخادعة التي تراكمت على توالي الحقب.. ذلك لأن الصهاينة يملكون شبكة من وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون في بلدان العالم، وإن جهاز الدعاية الصهيونية بكل تشعباته الكثيرة وقوته وتنظيمه الكفء وقدرته على أن يعمل داخل كل دولة ويمثل كياناً داخلياً قومياً إنما يعد خطراً على العالم، لأن قدرته على تزييف الأخبار هائلة ولأن في وسعه أن يقود الرأي العام العالمي وأن يضلله حسب هواه، ويحمله على تأييد اليهود بغض النظر عن الحق والصواب والعدل». وقد ثبت عند العلماء أن اليهود غرباء دخلاء على فلسطين وأن كل ما يملكونه من المقومات الثقافية ومن ضمنها لغتهم وكتابهم المقدس مقتبس من الحضارتين الكنعانية والآرامية وهما من أصل عربي، كما ثبت أن اليهود كانوا أقلية بين السكان الأصليين وثبت عجزهم في أي دور من أدوار التاريخ عن إنشاء دولة مدنية زمنية تضم

كل فلسطين، وإن الحضارة الفلسطينية التي ينسبونها لأنفسهم بما فيها عقيدة التوحيد ما هي إلا حضارة سامية عربية كنعانية اقتبسوا منها لغتهم وديانتهم في وقت لاحق، وأن كل ما ورد في توراتهم من وعود بمنحهم فلسطين باعتبارهم شعب الله المختار وما شابه ذلك إن هو إلا أساطير من نسج الخيال ومن ترتيب كتبة التوراة بعد عصر موسى بعدة قرون.

ومن هذا الهراء الذي ادعوه اعتمادهم وجود بني إسرائيل حتى في عصر إبراهيم خليل الرحمن في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وذلك قبل أن يولد يعقوب (إسرائيل)، كما أن التوراة عدت وجودهم بعد عهد أبيهم يعقوب بحوالي ٦٠٠ عام أي في عهد موسى عليه السلام ثم اعتبرت وجودهم في جميع الأدوار والأحداث... وحتى يهود الخزر الذين اعتنقوا اليهودية في وقت لاحق وهم من أصل تركي وكذلك يهود أوربا وأمريكا ويهود العالم جميعاً هم على رأي التوراة نفس أبناء يعقوب الذين عاشوا قبل ٣٧٠٠ عام.

هذا التغريب التاريخي الذي اتبعته الصهيونية اليوم والذي جعلت فيه كل يهود العالم ينتسبون إلى يعقوب عليه السلام، الغاية منه جعل فلسطين وطناً أصلياً لهم وذلك بالرغم من تأكيد التوراة نفسها أن فلسطين هي أرض غربة بالنسبة لإبراهيم واسحق ويعقوب، وبخاصة أبناء يعقوب الذين ولدوا في حران ونشأوا فيها أما وطنهم الأصلي فهو ما بين النهرين أي منطقة حران. ولهذا فقد ابتدع مدوّنو التوراة فكرة منح الرب أرض كنعان إلى إبراهيم وذريته، وأن الرب (إلههم يهوه) قد أمرهم بإبادة

الكنعانيين جميعاً ليحلوا محلهم.. كل هذا يقولونه مع العلم أن التاريخ أثبت اليوم أن عصر إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب والذي يرجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد هو عصر عربي بحت له لغته وقوميته ودينه. وهو مرتبط بالجزيرة العربية وباللغة الأم ولا صلة له بعصر موسى عليه السلام الذي يأتي في وقت لاحق بعد عصر سيدنا إبراهيم بـ ٧٠٠ سنة) كما لا صلة له بعصر اليهود الذي يأتي بعد عصر إبراهيم الخليل بـ ١٥٠٠ سنة وقد كشف القرآن الكريم هذه الحقائق قبل أن يعرفها العلماء بقوله تعالى (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً....).

وليثبتوا لأنفسهم تلك الصلة ابتدعوا الإله يهوه عندما دون الكتبة التوراة، كما ادعى هؤلاء اليهود أن تاريخهم في فلسطين يرجع إلى ٥٠٠٠ سنة وأن العرب لم يدخلوها إلا بعد الفتح الإسلامي وهذا يشكل أكبر تزييف للواقع التاريخي.. وفي هذا يقول العقاد: « ومن أقوال اليهود أن العرب فتحوا فلسطين بعد قيام الدعوة الإسلامية وأنهم لم يكن لهم وجود قبل النبي محمد عليه السلام، وقد نجح دعاة الصهاينة في الترويج لهذه الخرافة حتى صدقها الكثير من الأوربيين والأمريكيين ومن العرب أيضاً ».

والحقيقة أن عصر اليهود يبدأ في القرن السادس ق.م أعقاب السبي البابلي وهو عصر يهودي قائم بذاته وبلغته وثقافته وديانته ويمثل بداية اليهودية إذ تبدأ الديانة اليهودية الحالية بكتابة التوراة على يد الكهنة في الأسر في بابل وما بعد الأسر وهذه هي التوراة التي بين أيدينا اليوم وهي

غير التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام باللغة المصرية قبل ٨٠٠ عام من عصر اليهود هذا[٦].

وقد سردنا هذه المقدمة التاريخية للتدليل على مدى التغريب التاريخي، وتزييف الحقائق التي أقدمت عليها الصهيونية لتبرر عدوانها على فلسطين وأن فلسطين أرض لهم منذ ٥٠٠٠ عام وأن التوراة تقر بذلك وأن لهم نسباً يصل إلى إبراهيم الخليل وأن جميع يهود العالم الذين أثبت علم الأجناس أنهم لا يرجعون إلى جنس واحد هم من أصل فلسطيني، كل ذلك من أجل التأثير للهجرة إلى فلسطين..

وما زال الدين والعلم والآثار تنكر كل ذلك وتؤكد تحريفهم لتوراة موسى واعتمادهم توراة جديدة كتبوها تأييداً لمآربهم وغاياتهم البشعة التي يريدون بها السيطرة على شعوب الأرض.

بروتوكولات حكماء صهيون والإعداد المسبق:

من المحقق أن العالم كله لم يأبه لكل تلك الافتراءات والتزويرات التي افتعلها اليهود حتى عندما كتبوا توراتهم من جديد وصرحوا أنها توراة موسى عليه السلام. فقد ظلوا على مدى القرون المتطاولة معذبين في كل بلد ينزلون فيه. ولهذا كانوا يعتزلون الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها في (غيتوات) ومجموعات منعزلة عن الناس، ويروحون يخططون لتأكيد أفكارهم المزيفة وآرائهم العقيمة... ولم يتهيأ لهم ذلك حتى كان أواخر القرن التاسع عشر فاطلع العالم على أخطر وثائقهم السرية التي كشفت رغماً عنهم وهي بروتوكولات حكماء صهيون، والتي

كشفوا فيها عن تآمرهم على الإنسانية ومخططاتهم من أجل السيطرة على مقاليد الشعوب مستخدمين أحط ما في الإنسان من كذب ودجل وخيانة وقتل واغتيال. وسنحاول رسم صورة موجزة بقدر ما يقتضيه المقام لسياسة التغريب التي يتبعها هؤلاء الصهاينة ضد العالم الإسلامي وضد الإنسانية عامة. والطرق الجهنمية التي يتبعونها للسيطرة على الشعوب.. يقول د. أوسكار ليفي: (نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه ومحركي الفتن فيه وجلاديه) فانظر إلى هذا المدح الذي يكيله هذا الصهيوني لأبناء جنسه، بأنهم أصل الفساد في الأرض ومحركو الفتن وقال الله فيهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ثم اربط بين هذه المقولة، ومقولة التوراة المزيفة من أنهم شعب الله المختار، ونسوا أن شعب الله المختار لا تكون مهمته إحداث الفتن ولا جلد الشعوب وإنما إصلاح الأمم وسعادتها.

بل ويزيد الأمر بلاء أنهم يزعمون أن ربهم ـ يهوه ـ قد اختصهم لذلك وأمرهم بالتسلط على هذه الشعوب... فهل تجد في تاريخ الظلم والإفساد حجةً أحقر من هذه الحجة وأكثر إفساداً لمفهوم الإله، مما فسره به هؤلاء اليهود؟

والبروتوكولات كتاب مدروس ووثيقة صهيونية سرية خطيرة تفيض بالحقد والاحتقار والانتقام من العالم كله، كما يكشف عما تنطوي عليه نفوس هؤلاء المتوحشين قتلة الأنبياء، إذ يكشف عن معرفتهم الواسعة بالطرق الشريرة التي تمكنهم من إخضاع الأمم، وقد راحوا

يبرزون هذه الجوانب الشريرة ويجردون الإنسانية من كل الضوابط الفاضلة كالأديان والشرائع والقوانين... ويتضح من خطتهم في ذلك الكتاب أنهم يسعون إلى هدم الحكومات في كل الأقطار والاستعاضة عنها بحكومات ملكية استبدادية يهودية، ويهيئون لذلك أخس الوسائل من إغراء الملوك باضطهاد الشعوب، وإغراء الشعوب بالتمرد على ملوكها متوسلين لذلك بنشر مبادئ الحرية والمساواة ويفسرونها تفسيراً خاصاً يؤذي الشعوب والحكام بحيث يبقى الجميع في حالة عداء وحذر من بعضهما. ثم يعمدون إلى إفساد الحكام مستعينين على ذلك بالنساء والمناصب والمال، وقبل ذلك يعمدون إلى إلقاء بذور الخلاف والشغب في تلك الدول عن طريق الجمعيات السرية السياسية منها والدينية والفنية والرياضية والمحافل الماسونية والأنديه، ونقل الدول من التسامح إلى التطرف السياسي والديني فالفوضوية فاستحالة تطبيق مبادئ الحرية والمساواة التي عرضوها على الشعوب ونادوا بها ـ وهم يرون أن هذه الطريقة في الحكم لا يمتلكها إلا نخبة موهوبة ممتازة من اليهود، ولذا يجب أن يساس الناس كما تساس البهائم.. وحتى الزعماء فنراهم إنما هم قطع شطرنج تسهل استمالتهم واستعبادهم بالتهديد أو المال أو النساء أو المناصب.

ولتحقيق هذا الغرض فيجب عليهم أن يحتكروا ذهب العالم وتكون كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والمدارس والجامعات وشركات السينما والعلوم والقوانين تحت إشرافهم.. والذهب عندهم

أقوى هذه الأسلحة لإثارة الرأي العام وإفساد الشبان والقضاء على الضمائر والأديان والقوميات ونظام الأسرة وإغراء الناس بالشهوات وإشاعة الرذيلة والانحلال..

وفي مؤتمر بال بسويسرا ١٨٩٧ برئاسة ـ هرتزل ـ اجتمع ٣٠٠ من أعتى حكماء صهيون كانوا يمثلون خمسين جمعية يهودية، وقد قرروا في المؤتمر خطتهم السرية لاستعباد العالم تحت تاج ملك من نسل داود، وكانت قراراتهم سرية جداً، ولكن سيدة فرنسية استطاعت أثناء اجتماعها بزعيم من أكبر رؤسائهم في وكر من أوكارهم الماسونية في فرنسا، استطاعت أن تختلس بعض هذه الوثائق التي طبعت فيما بعد وعرفت بـ بروتوكولات حكماء صهيون..

وبمقارنة ما جاء في هذه البروتوكولات من خطط وجرائم وإفساد، بما جاء في كتابهم المقدس ـ التوراة المزيفة ـ تشعر أن هؤلاء الصهاينة إنما أرادوا أن يتخذوا لجرائمهم ومفاسدهم برهاناً وحجة من التوراة، فكان أن استفادوا كثيراً من تلك النصوص المحرفة لمتابعة طريقهم في الظلم والإفساد والغي والضلال.... فالبروتوكولات تدعو اليهودي إلى أن يستحل الغش والسرقة والربا والزنا وامتهان الشعوب، والقتل ـ كما كان موسى يفعل (إذ اعتبروا نبي الله موسى قاتلاً ـ قاتلهم الله ـ) ولهذا لا نعجب عندما يقف د. زرائيلي منذ أكثر من سبعين عاماً، وهو يهودي تنصر متعمداً ليصل إلى الوزارة البريطانية، لا نعجب له وقد صار رئيس الوزراء في بريطانيا، وهو ينصح الإنكليز بأن يتخذوا قاعدته في الحياة

أساساً لسياساتهم إذ يقول: «لا بأس بالغدر والكذب والوقيعة إذا كانت هي طريق النجاح».

ويندر أن ترى هؤلاء اليهود إلا عبيداً أذلاء يمكرون أو جبابرة غاشمين وقد وصفهم كثير من أنبيائهم بأنهم شعب غليظ القلب وهم أبناء الأفاعي وقتلة الأنبياء وقد أكد القرآن الكريم هذه المقولة في آيات كثيرة.. وما كثرة أنبيائهم إلا مخزاة لهم ودليل على تحكم الرذيلة والجريمة في قلوبهم، فأينما حطوا في قطر ما، يحاولون الاندساس فيه والتسلط عليه اقتصادياً وسياسياً في الخفاء بالخديعة والنساء والرشوة ويربطون بإحكام بين مصالحهم ومصالح الحاكم حتى إذا أحس بالخطر حاولوا التخلص منه أو إثارة شعبه عليه وقد بلغوا من تحكمهم في ذلك أن طالبوا الإنجليز بوقاحة أن يعترفوا لهم بجنسيتين، مدنية إنكليزية وأخرى دينية يهودية..

ولكن إجماع كل الأمم على اضطهادهم ليس إلا ظاهرة تستحق التعليل، ولا تعليل لها إلا سوء طبائعهم وإحساس الأمم أنهم خطر عليهم في السلم والحرب.

وسنعرض لك جانباً من دور هؤلاء الصهاينة في تعمد إفساد سياسة الشعوب وأخلاقهم وأديانهم، لترى إلى أي سبيل لجأ هؤلاء في تغريب الإنسانية عن طريق الفضيلة والمحبة والسلام... ونعرض لك هذه الجوانب في محاور ثلاثة المحور السياسي والمحور الديني والمحور الأخلاقي:

في المجال السياسي:

إنك لتفاجأ وأنت تقرأ هذه البروتوكولات بما خططه هؤلاء فالبروتوكول الأول يفاجئك بأنه (يجب أن نلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة في الناس أكثر من ذوي الطبائع النبيلة وإذاً فخير النتائج في حكم العالم ما ينتزع بالعنف والإرهاب لا بالمناقشات.. فكل إنسان يسعى إلى القوة وكل واحد يريد أن يصير دكتاتوراً على أن يكون ذلك في استطاعته، وإن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع وهو لذلك غير راسخ على عرشه).[٧]

فأنت ترى أن نظرتهم إلى شعوب الأرض بأنهم أشرار مجرمون وأن المجتمع البشري ما هو إلا مجتمع غاب يأكل القوي فيه الضعيف، وأن الناس مفطورون على الشر والفساد وربما جاءتهم هذه النظرة من دراستهم لتاريخهم عبر القرون واضطهاد الناس لهم، ومن الغريب بدل أن يفكروا في طبائعهم وأخلاقهم وتصرفاتهم التي حملت الشعوب على كراهيتهم، بدل أن يفكروا في ذلك راحوا يردون ذلك إلى فساد الإنسانية وأن الظلم هو المسيطر والشر هو القاضي العدل بين البشر. فلا نبل ولا أخلاق ولا عدالة وما عليك إلا أن تكون دكتاتوراً تسبق غيرك لتتحكم فيه قبل أن يسبقك فيحكمك ويجلدك وكأن كرتنا الأرضية ليست إلا غاب سباع وضباع يفوز فيها صاحب الأنياب الفتّاكة...

ولهذا تراهم في البروتوكولات يرسمون مخطط الهجوم (إنني أتخذ لنفسي خطاً جديداً للهجوم مستفيداً بحق القوة لتحكيم كيان

القواعد والنظم القائمة والإمساك بالقوانين وإعادة تنظيم الهيئات وبذلك أصير دكتاتوراً على أولئك الذين تخلوا بمحض رغبتهم عن قوتهم) فانظر كيف يروجون ليستعبدوا الشعوب المسالمة أو الضعيفة والتي تخلت برغبتها عن مبدأ القوة والظلم ودعت إلى السلام.

وتطبيقاً لهذه المبادئ قام هؤلاء الصهاينة بتدمير الحكم القيصري في روسيا مستغلين مفاسده في إثارة الجماهير ضده حتى إذا تخلصوا منه حكموها بحكمهم الشيوعي ولهذا كانت عندهم الغاية تبرر الوسيلة، (وعلينا ونحن نضع خططنا في الخفاء ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد) هذه النظرة الميكيافيللية التي ترى استعباد الشعوب والصعود على أكتافها وبأية وسيلة كانت وكما يرون أنه (بغير الاستبداد المطلق لا يمكن أن تقوم حضارة وأن القوة المحضة هي المنتصرة في السياسة ويتحتم لذلك ألا نتردد لحظة واحدة في أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدمنا في تحقيق أغراضنا).

ولأجل هذا كان البروتوكول الثاني يشير إلى أن اليهود لتنفيذ ما جاء في البروتوكول الأول، هم الذين سيعينون القادة (وسنختار من بين العامة رؤساء إداريين ممن لهم ميول العبيد غير مدربين على فن الحكم ولذلك سيكون من اليسير أن يمسخوا قطع شطرنج ضمن لعبتنا وفي أيدي مستشارينا). ألا ترى اليوم أن قادة الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا قد تحولوا إلى قطع شطرنج في أيدي القيادة الصهيونية واللوبي

الصهيوني لدرجة أن أحد رؤساء الولايات المتحدة من أجل أن يكسب المعركة الانتخابية خرج على شعبه متوشحاً العلم الصهيوني.

والصهاينة لا يقصرون ميدان سيطرتهم على السياسة في الدول وإنما استطاعوا تطويع العلوم والعلماء واستغلالهم وتوجيههم وتسخير علومهم لمصالحها مثلما استفادوا من نظريات علماء الأجناس بعد أن حرفوا مفهومها في كون الشعب اليهودي والصهيوني في أرجاء العالم كله يرجع إلى أصل واحد، وقد دللوا على مقدرتهم في إخضاع العلماء ما جاء في البروتوكولات (يجب أن تلاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل)، وقد تنبأ نيتشة في بعض كتبه بفلسفة ماركس اليهودية الشيوعية وما كان أحد يومئذ يتصور ذلك وحدد الدولة التي ستعتنقها، وقد تحققت نبوءته وأكرهت روسيا بالعنف والخديعة على احتضان شيوعية ماركس اليهودي على أيدي اليهود.

وبهذه المغريات والمخططات الجهنمية جاز لهم أن يقولوا (إن كل الموازين الذاتية القائمة ستنهار لأننا على الدوام نفقدها توازنها كي نبليها بسرعة).

وانظر إلى تدبيراتهم في الخفاء لتغريب الدولة عن نظامها السياسي الأمثل بقولهم:

(ولكي نغري الطامحين إلى القوة بأن يسيئوا استعمال حقوقهم، وضعنا القوى في الدولة الواحدة، كل واحدة ضد غيرها، بأن شجعنا

ميولهم التحريرية نحو الاستقلال ووضعنا أسلحة في أيدي كل الأحـزاب وجعلنا السلطة هدف كل طموح إلى الرفعة، وقـد أقمنـا ميـادين تشتجر فوقها الحـروب الحزبيـة بـلا ضوابـط ولا التزامـات وسـرعان مـا تنطلـق الفوضى ويظهر الإفلاس في كل مكان). ومن مبادئهم الهدامة (أننا يجب علينا ـ حين نستحوذ على السلطة ـ أن نمحـق كلمـة الحريـة مـن معجـم الإنسانية باعتبار أنها رمز القوة الوحشية).

ومـن أحابيلـهم التـي ينصبونـها لاصطيـاد الشـعوب وإيقاعـها فـي شراكهم ما صرحوا به من أنه (في كـل أوربـا وبمسـاعدة أوربـا يجـب أن ننشـر الفـتن فـي سـائر الأقطـار، والمنازعـات والعـدوان المتبـادل، وبـهذه الوسائل سنتحكم في أقدار تلك الأقطـار. كمـا أننـا بالمكـائد والدسـائس سـوف نصطـاد وبكـل أحابيلنـا وشـباكنا التـي نصبناهـا وزارات جميـع الحكومات).

وإذا وقفـت كـل شـعوب الأرض ضدهـم بسـبب تلـك الجرائـم والمخططات (فعندئذ سنجيبهم بـالمدافع الأمريكيـة والصينيـة واليابانيـة) أي نرد على كل بلد يقف ضدنا بنفس سلاحه لأن لهم في كل دولة جنوداً وعناصر قد تغلغلوا فيها.

ومن العجيب حقاً لهؤلاء الصهاينـة ـ وقـد ظـهرت جرائمـهم ـ أن يتخذوا من الشعارات الإنسانية شعاراً لهم في الظاهر من أجـل أن يصلـوا إلى ما يريدون فقد جاء في البروتوكول التاسع:

(إن الكلمات التحريرية لشعارنا الماسوني هي الحرية والمساواة والإخاء، وسوف نصوغ هذه الكلمات ببساطة معبرة عن أفكارنا وبها سنمسك الثور من قرنيه. إننا نستطيع في ثقة القول: بأننا أصحاب التشريع وأننا المتسلطون في الحكم والمقررون للعقوبات، أولو الأمر الأعلون في كل الجيوش ونحن نحكم بالقوة القاهرة، إن لنا طموحاً لا يحد وشرهاً لا يشبع ونقمة لا ترحم... إننا نسخر في خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب من شيوعيين واشتراكيين ولقد وضعناهم جميعاً تحت السرج وكل واحد منهم على طريقته الخاصة ينسف (في بلده) ما تبقى من السلطة ويحاول أن يحطم كل القوانين القائمة، وبهذا التدبير تتعذب الحكومات وتصرخ بنا طالبة الراحة ولكننا لا نمنحهم السلام حتى يعترفوا في ضراعة بحكومتنا العليا. وعندما يكشف أمرنا فنستطيع أن نعتمد على القوة وسوف نرهب أشجع الرجال وننسف كل مدن العالم ومعها أنظمتها وسجلاتها جميعاً).

ويعلق المرحوم محمد خليفة التونسي على هذه القوى التي يهددون بها، فقد تكون انقلابات سياسية أو جمعيات دينية أو سياسية أو خيرية أو ماسونية أو أدبية أو إصلاحية.. ومن وسائطهم إلى تنفيذ هذه المخططات الجهنمية استخدام الصحافة وما تقوم به من تهييج العواطف الجياشة في الناس وإثارة المجادلات الحزبية (وسيكون علينا أيضاً أن نظفر بإدارة شركات النشر الأخرى وسنحول إنتاج النشر العالمي مورداً من موارد الثروة يدر الربح لحكومتنا، بتقديم ضريبة معينة بإجبار

الناشرين على نشر ما نريد، وسيكون لنا جرائد شتى تؤدي الطوائف المختلفة من أرستقراطية وجمهورية ثورية وفوضوية.

(وبهذه الإجراءات سنكون قادرين على إثارة عقل الشعب وتهدئته في المسائل السياسية حين يكون ضرورياً لنا أن نفعل ذلك. وسنكون قادرين على إقناعهم وبلبلتهم بطبع أخبار صحيحة أو زائفة).

وقد ثبت عبر التاريخ المعاصر محاولتهم تطبيق معظم ما جاء في هذه البروتوكولات خطوة خطوة فقد بدؤوا بروسيا فقلبوا النظام القيصري وثبتوا النظام الشيوعي وعلى رأسه اليهودي ماركس (وسيمر معنا سيطرتهم على القيادة في الولايات المتحدة الأمريكية) وما زالوا خلف بريطانيا حتى حطموا الخلافة العثمانية والتي زعم قائلهم: « إن الأفعى الصهيونية كي تصل إلى فلسطين يجب أن تمر عبر تركيا » وذلك عقاباً منهم للسلطان عبد الحميد الذي وقف في حزم في وجوههم ورفض بيعهم أي جانب من فلسطين. كما تمكن رئيس وزراء بريطانيا دزرائيلي - وقد وضع روتشليد المليونير الصهيوني كل ذهبه بين يديه - تمكن أن يشتري بذلك نصيب مصر في أسهم قناة السويس لصالح بريطانيا، بأربعة ملايين جنيه كي تقف بريطانيا إلى جوارهم وتصدر وعد بلفور. وقد قادوا بريطانيا والحلفاء إلى الحرب العالمية الأول ليتسنى لهم قطف بعض الثمار ولما لم تكف قوة الحلفاء، راحوا يضغطون على أمريكا لتخرج من عزلتها التقليدية عن مشاكل العالم، وأمكنهم إخراجها لتحارب في صف بريطانيا وتقلب موازين القوى، وخرجوا من ذلك كله

بوعد بلفور ١٩١٧ الذي ضمنت بريطانيا لهم فيه إقامة وطن قومي في فلسطين.. وبإخراجهم لأمريكا من عزلتها وزجها في الحرب حطموا الرأسمالية غير اليهودية في أمريكا وفتحوا أسواقاً جديدة لرؤوس الأموال اليهودية الأمريكية في أقطار أخرى... كما استخدموا نفوذهم الكبير في أمريكا من أجل التمكين لهم في فلسطين ففي البيت الأبيض والكونغرس لهم عناصر يلجؤون إليها لا يستطيع إلا القليل معرفتهم لأنهم كانوا مختفين ومقنعين وراء الدين، وهم يضغطون لجر القوتين العظميين إلى الحروب وهم يبدون رسل السلام بعد كل حرب لم تقم إلا بسبب مكائدهم، وهم الذين يستفيدون دائماً من السلم والحرب فقد خرجوا من الحرب العالمية الأولى بوعد بلفور ومن الحرب العالمية الثانية بإقامة الكيان الصهيوني في فلسطين عام ١٩٤٨.

إذاً فمخططات الصهيونية في السياسة العالمية لتثبيت أقدامها في فلسطين كانت أحقاداً على الشعوب وتحكماً في اقتصادها وخيراتها وتدخلاً في شؤونها الداخلية، وديدنها بالتجسس على الدول التي احتضنتهم ويسرت لهم سبل الحياة، ومحاولة إثارة الحروب بين الدول وخاصة إذا كانت الحرب في صالحهم، والدعوة إلى السلم إذا كان السلام أنفع لهم، وهم يدعون إلى الدفاع عن الحرية وهم يحطمونها في مكان آخر، ويدعون إلى المساواة والعدالة عندما يرون أنفسهم مضطهدين ولكنهم لا ينفكون عن التآمر مع الإمبريالية إذا كان ذلك يمنحهم وطناً قومياً على حساب الآخرين، وهم ينادون بالاشتراكية وهم يضعون

الحبائل والمصائد بخلاياهم الماسونية لكل الاشتراكيين، هذه السياسة المتناقضة مع واقع الحياة هي التي تعبر أصدق تعبير عن الروح العام الذي ينتظم الحركة الصهيونية وهي الروح التي تتمثل في الحقد على الشعوب والغدر وانتهاز الفرص والإيقاع بين الأمم ونشر الفوضى واللامبالاة وافتعال الحروب في الأرض، وما يزالون بعد خمسة حروب أشعلوها ضد العرب والمسلمين يتابعون فسادهم بلا رادع أو تأنيب ضمير في حمل أمريكا ودول العالم ـ الحلفاء الجدد ـ على مهاجمة العراق والشعب العراقي في أبشع حرب في التاريخ، إذ جعلوا من أنفسهم قاضياً عدلاً يعيد الحق إلى أهله، فانظر إلى السفاح القاتل الأمريكي ذابح الأطفال في بنما وفيتنام وغرينادا وجنوب أفريقيا وفلسطين، كيف أخذته الحمية في أخريات الزمان وكيف عز عليه أن تنتهك حرمات العدالة في الأرض، فقام يلبس مسوح الحق والعدل ليدافع عن الشعوب المظلومة وبأية صورة؟ بالأساطيل والطائرات والصواريخ. وأنت تعجب لهؤلاء الأمريكان كيف أخذتهم (الحمية العربية) على الكويت فراحوا يعاقبون صدام حسين على غزوه الكويت، وكيف لم يتنبهوا طوال أربعة عقود إلى المجرم الصهيوني الذي شرد شعب فلسطين وعدا على أبنائه وما زال يقتل ويذبح أطفال فلسطين ويناهض انتفاضة شعبنا، ولا يعترف لهم بأي حق في الحياة، تعجب كيف لا يعاقب ذلك المجرم الصهيوني إلا بمزيد من الدعم بالمال والسلاح وتثبيت دعائم سلطانه في فلسطين .

في المجال الأخلاقي:

كانت مصيبة المصائب عند هؤلاء الصهاينة أنهم صدقوا مقولة التوراة فيهم بأنهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه وقد رد الله تعالى عليهم هذه المقولة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

وهم يرون أنهم المؤمنون وغيرهم كفرة وهم مخلوقون على أحسن صورة وغيرهم من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة، وهذه النظرة جعلتهم يعتقدون أن خيرات الأرض كلها لهم وحدهم من الله، وأن كل ما في أيدي غيرهم هو ملك لهم ولذا فلهم أن يسرقوهم أو يغشوهم ويكذبوا عليهم ويغتصبوا أموالهم ويهتكوا أعراضهم والله تعالى لا يعاقبهم على ذلك بل يعدها قربات لهم يثيبهم عليها وقد أكد القرآن الكريم هذه النظرة عندهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي لسنا ملزمين بمراعاة أي شريعة كريمة في الأميين (غير اليهود).

واقرأ معي ملخص ما جاء في تلمودهم وأعجب لتلك الرذائل التي يدعوهم إليها (اليهود أحب إلى الله والملائكة من كل البشر، ومن يصفع اليهود كمن يصفع الله والموت جزاء الأممي (غير اليهودي) إذا ضرب اليهودي، ولولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض، واليهود يعاملون الأميين كما يعامل الإنسان البهيمة، وكل خير صنعه يهودي مع

أممي فهو خطيئة عظمى، والربا غير الفاحش جائز مع اليهودي كما شرع موسى (في رأيهم) وصموئيل، والربا الفاحش جائز مع غيره، وكل ما على الأرض ملك لليهود مغتصب منهم وعليهم استرداده بكل الوسائل... وطالما هم بعيدون عن السلطة فهم غرباء منفيون، وإذا انتصر اليهود في موقعة وجب عليهم استئصال أعدائهم عن آخرهم).(٨)

نعم هكذا فعلوا ـ حسب شريعتهم ـ يوم دخلوا فلسطين بعد موسى ضد الكنعانيين والأدوميين وهكذا فعلوا بأبناء فلسطين وما يزالون.

ومن يقرأ كتبهم المقدسة يروعه أن المؤامرة قوام تاريخهم وحتى على أنبيائهم ورسلهم الذين بعثوا فيهم، وقد أثبت الله جرائمهم وغلاظة أكبادهم واتباعهم لأهوائهم ومصالحهم دون مبالاة، بنبي أو رسول ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وكثرة أنبيائهم ليس لها تعليل إلا سوء طباعهم وفساد خلائقهم ومسخ جبلاتهم، فهي مخزاة لهم وليست مفخرة من مفاخرهم، وأينما كانوا يحلون كانوا يحاولون التسلط والسيطرة سياسياً واقتصادياً وفي الخفاء، وديانتهم تبيح لهم استعمال كل الوسائل الخسيسة وهم يتعاونون بأساليب ملتوية،

ويعدون نجاحهم دليل عبقريتهم وتميزهم، ورغم ذلك لم يلاقوا إلا كل ظلم واضطهاد من شعوب الأرض.

وعندما تهيأت لهم الأجواء منذ أواخر القرن الماضي وسنحت لهم الظروف بطرح الشعارات الصهيونية، كان حاخاماتهم قبل ذلك تطلعوا إلى تدمير أخلاقيات البشر وتجريدهم من الفضائل ونشر الرذيلة والدعارة والإباحية والخمور والقضاء على الفكر الواعي والعاقل في العالم بإلهائه بترهات الحياة وشهواتها وبأساليبهم المضللة..

وإذا كان قمة البشر أخلاقاً وفضيلة هم الأنبياء، صاروا في نظرهم زناة وقتلة وسفاحين، فماذا تتوقع أن تكون عليه أخلاق العوام من الناس؟ لقد تعمدوا تشويه صورة الأنبياء والقديسين ليتسنى لهم أن يجعلوا منهم دليلاً وشاهداً على الإباحية وسفك الدماء بما يتناسب مع نفوسهم من ميل إلى القتل والفجور والفوضى اللاأخلاقية... بحيث تحولت المجتمعات في الغرب وأمريكا إلى إنسان مسخت فيه أخلاقه وعاداته، ومسخ فيه العقل والكرامة والنبل والشهامة.. فلقد خدرت الصهيونية العالمية، العالم بالخمر والمرأة والعري الفاضح وضغطت على جيوبهم بحصارها الاقتصادي وعلى عقولهم بسيطرتها على دور النشر، وعلى أخلاقهم بأخلاق توردها لهم، في عقر أوطانهم، وهم غرباء عن كل أمة نزلوا فيها، فأي قوة خادعة وأي فضيحة لا أخلاقية يمثلها هذا الكيان الصهيوني في الأرض؟!

ورغم أن الغرب قد عمل بكل وسائله على تحويل آثام وشرور ومفاسد الصهيونية من بلدانه إلى فلسطين ليتخلصوا منهم، إلا أنهم فوجئوا بأن الثعبان الصهيوني ابتلع فلسطين وما يزال يلسع ويتمدد ويفح وينشر سمومه.

إن الحصار اللاأخلاقي الذي ضربته الصهيونية منذ أكثر من قرن وما زالت، بدءاً من تشويه تعاليم التوراة ونشرها في الأمم المسيحية خاصة، والفساد المتعمد في الدين والأخلاق والسياسة يدل أبلغ دلالة على تميز هذا الكيان عن غيره.. فهو يمثل ردة هذا الإنسان. إلى عصر الهمجية، وإن كل تطلعات العصر الحاضر ومدنيته وثقافته لم تزد هؤلاء الصهاينة إلا غلواً في الرذيلة ومضيّاً في طريق الفساد. ولكن هذا التغريب الأخلاقي الذي أرادوه للإنسانية قد كشفه القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً وحذر منه الإنسانية وأكد استمراريتهم فيه وعدوانيتهم على الأمم وفساد أخلاقهم، وتميزهم عن كل الشعوب بحيث استحقوا فيما مضى أن يمسخهم الله قردة وخنازير.. وها هي الشعوب قد صحت لهذا الدور التي تقوم به الصهيونية العالمية على مسرح الأحداث وإن كانت لا تستطيع أن تفعل شيئاً بسبب الدرع المالي والاقتصادي والإعلامي الذي أحاطت به الصهيونية نفسها، إلا أن الإسلام والإسلام وحده هو القادر على كشف رذائل هؤلاء وهو القادر على تأديبهم في مستقبل الأيام وهم أخشى ما يخشون من البشرية هذه النهضة الإسلامية أن تشمل العالم وتكون فيها نهايتهم ولهذا فهم يحاولون بكل مستطاع أن

لا يجعلوا من قضية فلسطين قضية دينية بل سياسية حتى لا يتنبه المسلمون ويلتقوا للقضاء عليهم.

أما في المجال الديني:

فقد جاء في البروتوكول الرابع لحكماء صهيون (يجب علينا أن ننتزع فكرة الله ـ من عقول المسيحيين وأن نضع مكانها عمليات حسابية ومادية، ولكي نحول عقول المسيحيين عن سياستنا يجب أن نبقيهم منهمكين في الصناعة والتجارة).

كما ورد في موضع آخر من بروتوكولاتهم (حين نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض لن نبيح قيام أي دين غير ديننا. أي الدين المعترف بوحدانية الله الذي ارتبط حظنا باختياره إيانا كما ارتبط به مصير العالم) ولهذا السبب فهم يجدوّن في تحطيم كل عقائد الإيمان، فانظر إلى هذه الصراحة الوقحة التي تتحدى بإطفاء عقائد الإيمان في قلوب البشر وإخماد نور الفطرة في النفوس.. من أجل أن يحيا الناس لا مبالين وبلا عقيدة فلا تتحكم فيهم فضيلة ولا خلق ولا دين.. ويزيدنا مترجم البروتوكولات بأن: (علماء اليهود يجدّون بكل ما في وسعهم لهدم الأديان عن طريق المذاهب الاجتماعية والسياسية والفكرية مثل مذهب دوركايم، والشيوعية والوجودية ومذهب التطور).

واليهودي يهودي قبل كل شيء ومهما تكن جنسيته ومهما يعتنق من مبادئ وعقائد فهو لا يتجنس بالجنسية الإنكليزية أو الأمريكية أو

الفرنسية إلا وله في ذلك مصلحة، وهو يسلم أو يتنصر نفاقاً ليفسد الإسلام والمسيحية أو يوجه تعاليم ذلك الدين وجهة تعود بالخير على اليهود وحيثما ظهر مذهب أو مبدأ فلسفي أو ديني هب اليهود ليكونوا من ورائه ليحولوه إلى صالحهم، وتاريخهم مع الإسلام هو نفس تاريخهم مع كل دين، فقد حاربوه في البدء وتآمروا مع الأحزاب للإطاحة بالمسلمين حتى إذا فشلوا ارتدوا يسالمونه سلاماً كان شراً عليه من حربهم المعلنة، وقد أسلم منهم نفاقاً في عهد الخلفاء الراشدين الكثير أمثال عبد الله بن سبأ والذي راح يثير غضبة المسلمين على خليفتهم عثمان بن عفان لما أحدث من بدع ـ في رأيه ـ فإذا طرد من مصرٍ مضى إلى مصرٍ آخر يؤسس الخلايا السرية ضد الخليفة ويعمل على انقسام المسلمين شيعاً وأحزاباً، ويثير الأحزاب بعضها على بعض حتى انتهى الأمر بقتله، وكان السبئيون أتباع عبد الله بن سبأ السبب الرئيسي في حرب صفين بين علي ومعاوية...

وقد نشط هؤلاء اليهود لنشر المبادئ الهدامة للإسلام والمسيحية وعملوا على نشر الخرافات وما ظهر مذهب أو فلسفة أو نظرية إلا حرفوه وشوهوه بما يفسده لينتهي إلى آرائهم وعندها يرفعون صاحبه إلى مكانة عالية بين أساتذة الثقافة العالمية ولو كان حقيراً. وكذلك تراهم يروجون لكل قلم ما دامت آثاره ـ عن قصد أو غير قصد ـ تساعد على إفساد الناس، ورفع شأن اليهود وكما فعلوا مع نيتشة الذي تهجم على المسيحيين وأخلاقهم، وكذلك روجوا لمذهب التطور عند دارون

وأولوه تأويلات ما خطرت على بال دارون نفسه واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والقوانين، مظهرين أن كل شيء بدأ ناقصاً ثم تطور بما يثير السخرية والاحتقار فلا قداسة إذاً لدين ولا لوطن ولا لقانون ولا لمقدس من المقدسات، وقد كشف عباس العقاد حقيقة هذا الدور الذي احتضنته الصهيونية عند هؤلاء العلماء بقوله: «ولن نفهم المدارس الحديثة في أوربا ما لم نفهم هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي أن إصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان». ويؤكد التونسي في البروتوكولات صحة هذا القول بضرب الأمثال على ذلك حيث يقول: «فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان، واليهودي دوركايم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة البالية ويحاول أن يبطل أثرها في الفضائل وتربية الأجيال، واليهودي سارتر وراء الوجودية التي نشأت معززة لتحلل الفرد فجنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد بآفات القنوط والانحلال، واليهودي فرويد من وراء علم النفس يرجع كل الميول والآداب الدينية والخلقية والفن والصوفية والأسرية إلى الغريزة الجنسية كي يبطل قداستها ويخجل الإنسان منها، ويسلب من الإنسان إيمانه بسموها وقدسيتها ما دامت راجعة إلى أدنى ما يرى في نفسه وبذلك تنحط في نظره صلاته بأسرته ومجتمعه والكون جميعاً.

فهل رأيت أو سمعت أغرب من هذه التصرفات المبنية على تشويه العلم والقائمة على المعرفة التي تفرد اليهود وعلمائهم بتشويه صورتها على شكل رؤية جديدة في الأدب والدين أو الاجتماع أو الأسرة، ولكنها حقيقةً لم تكن إلا السم مدسوساً في الدسم قال الله في وصف هؤلاء ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤٢].

***

مراجع الفصل العاشر

(١) كتاب ــ العرب واليهود في التاريخ د. أحمــد سوســة طــــ ــ دار العربي للطباعة والنشر.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) وثيقة الصهيونية في العهد القديم ــ د. جورجي كنعان.

(٦) العرب واليهود في التاريخ ــ د. أحمد سوسة.

(٧) بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي.

(٨) المصدر نفسه.

الفصل الحادي عشر

الاستشراق الصهيوني وتزييف الحقائق

دور الإعداد:

جاء في البروتوكول الأول للمنظمة الصهيونية (إن الغاية تبرر الوسيلة). وكان هذا هو شعار الميكافيللية والذي تبنته الحركة الصهيونية في سياستها. وتنفيذاً لهذا الشعار قام زعماء الحركة الصهيونية بممارسات ونشاطات سياسية هدفها إقامة كيانهم العنصري في فلسطين، وقد اتبعوا أساليب متعددة من الكذب والدجل وشراء الضمائر والتنصر واستخدام المال والنساء والقتل والتدمير.. وما زالوا يتخذون تلك الوسائل الإجرامية حتى فازوا بوعد بلفور بعيد الحرب العالمية الأولى، وبإقامة الكيان الصهيوني بعيد الحرب العالمية الثانية.

وبعد انسحاب بريطانيا من الساحة ودخول أمريكا، قام الصهاينة بالضغوط المتوالية على الولايات المتحدة بحيث أجبر الأمريكيون على الخضوع للإرادة الصهيونية ويتجلى ذلك في مقولة الرئيس الأمريكي ترومان للمندوبين العرب في الأمم المتحدة عندما احتجوا لديه على تأييد الولايات المتحدة لقرارات الكيان الصهيوني، قال مخاطباً لهم: «آسف أيها السادة أن أستجيب لمئات الألوف من الذين يتطلعون إلى نجاح الصهيونية، فلا يوجد هناك مئات الألوف من العرب في مناطقي الانتخابية» إذن فالقضية ليست قضية عدالة وحقوق الشعوب والدفاع عنها وإنما هي قضية مصلحة ومنافع فالصهاينة مسيطرون سياسياً وإعلامياً واقتصادياً فهم الأولى بالتأييد بغض النظر عن صاحب الحق... وقد كرر هذه الآراء رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية أيام حرب

١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ فاستخدموا الفيتو عشرات المرات ضد مصلحة العرب وحقوقهم، وهو نفس الموقف الذي تقفه أمريكا اليوم ودول الحلفاء معها ضد العراق والأمة العربية إذ استحصلت بسرعة على قرار دولي يسمح لها بإبادة الشعب العراقي والإرادة العربية من أجل الطفل الصهيوني المدلل في فلسطين.

ولكنك إذا فكرت في أسباب هذا الموقف الأمريكي المتشنج ضد العرب وحقوقهم عرفت أنه يوجد في الولايات المتحدة أكثر من ستة ملايين يهودي معظمهم واقع تحت تأثير الإيديولوجية والدعاية الصهيونية وقليل منهم يعارضون نزعة التعصب ويقفون ضد النزعة الصهيونية الموالية للاستعمار والإمبريالية..... ولإثبات قبضتهم على مراكز القوة في أميركا عمد قادة الصهيونية العالمية إلى خلق شبكة من المنظمات الصهيونية والموالية لها مستندين في ذلك إلى الجاليات اليهودية المنتشرة في العالم، فما إن انتهوا من عقد مؤتمرهم الأول في بال بسويسرا عام ١٨٩٨/ حتى راحت الجمعيات والاتحادات الصهيونية تنتشر في مدن أوربا وأمريكا وسرعان ما أخرجت وبمختلف اللغات نشرة دورية صهيونية تعبر عن آرائها، وقد تضاعف عدد تلك المؤسسات بين الحربين العالميتين وكان من أبرزها: الوكالة اليهودية التي أشرفت على نشاط المنظمات في أكثر من ٢٥ بلداً، والمؤتمر اليهودي العالمي الذي يملك فروعاً في ٦٧ بلداً ثم حكومة الكيان الصهيوني في فلسطين. كما أن هناك عشرات المنظمات والجمعيات اليهودية والتي تؤلف بمجموعها العمود الفقري للوبي الصهيوني..

ونركز حديثنا هنا على اللوبي الصهيوني لأهميته، واللوبي يعني وجود مجموعة لها مصالح مشتركة منظمة داخلياً وتعمل على ممارسة الضغط والنفوذ في مجال التصويت للمجالس التشريعية وفي المجالات المتعددة بهدف تحقيق مصلحة معينة أو منع اتخاذ قرار.

والنفوذ الصهيوني في أمريكا ارتبط ارتباطاً عضوياً بانتظام الانتخابات الأمريكية بشكل عام والطائفة اليهودية لها مشاركة كبيرة وفعالة في هذه الانتخابات ولها ضغوط كبيرة على الأحزاب والشخصيات، ولهذا يعمد اللوبي الصهيوني إلى تخصيص الأموال الطائلة لدعم هذه العناصر لتفوز مقابل التأييد الكامل لجميع المواقف الصهيونية في مؤسسات الحكومة الأمريكية، وحتى يتوافر الفوز لأية فئة سياسية في أمريكا لا بد لها من ثلاثة عناصر: المال والإعلام والخبرة وهي عناصر متوفرة إلى حد كبير لدى اللوبي الصهيوني.. وقد رأينا من قبل كيف استطاعوا جر أمريكا إلى الحرب العالمية الأولى لتقاتل مع بريطانيا والحلفاء وترجح كفة النصر، كل ذلك مقابل وعد بلفور، والمال إحدى الوسائل الكبرى التي تعمد إليها الصهيونية لشراء البشر، فقد دفع الرأسمالي اليهودي أبراهام فينبرغ وحده مليون دولار لدعم المرشح الديمقراطي ـ همفري ـ عام ١٩٦٨، كما أن نجاح الرئيس الأمريكي ـ كارتر ـ كلف اللوبي ملايين الدولارات.

ولتتم عملية تنجيح أي رئيس تريده الصهيونية لذا قامت بالسيطرة على أجهزة الإعلام في أمريكا وقد ورد ذلك في البروتوكول الثاني عشر (يجب السيطرة على الصحف ودور النشر ووكالات الأنباء لأن الصحافة والأدب هما أعظم قوتين تعليميتين) ولذلك تراهم يملكون عشرات من دور النشر ووكالات الأنباء ووسائل الإعلام الضخمة مثل (نيويورك تايمز ـ واشنطن بوست) وغيرها كما يملكون أكثر من ٣٠٠ صحيفة يومية وأسبوعية ودورية. ذلك هو دور الإعداد لتنفيذ مخططات الصهيونية، أما الخطوات التالية التي لجؤوا إليها فكانت:

١ـ التخلص من المعارضة بكل أشكالها وفي كل الأوساط وفي هذا الإطار قاموا بتصفية الكونت برنادوت والجنرال مالا آرثر والحاخام بنيامين شولتر الذين تمردوا على اللوبي الصهيوني وهددوا بفضح أسراره.

٢ـ التغلغل في صفوف النخبة وفي المراكز العليا للدولة كما يشغلون اليوم نحواً من ٨٠٪ من المراكز الرئيسية في لجنة الطاقة الذرية الأمريكية ومعامل الأبحاث، وهذا ما يفسر خلفية سرقة هؤلاء اليهود للمواد المشعة من المحطات النووية الأمريكية وتهريبها إلى الكيان الصهيوني عام ١٩٦٨ عن طريق ميناء جنوا الإيطالي.

٣ـ التركيز على عقول القادة وغسل أدمغتهم وحشوها بالعقيدة الصهيونية ودفعهم إلى تبني القضايا الصهيونية والدفاع عنها، ومن ذلك ما ورد في كتاب ـ المنظمات اليهودية الأمريكية وإسرائيل ـ لمؤلفه لي أو بريان من أنه:

«نتيجة لمؤتمر أمستردام اليهودي عام ١٩٣٣/أخذ الإعلام اليهودي في أمريكا يشن حملة شعواء على ألمانيا ويطالب بمعاقبتها اقتصادياً فاستجابت الحكومة الأمريكية وفرضت ضرائب عالية على البضائع الألمانية مما أدى إلى الكساد وانتشار البطالة في ألمانيا وهذا بدوره أدى إلى توجه العاطلين عن العمل إلى الإنتاج الحربي مما تسبب في قيام الحرب العالمية الثانية) وبهذا يقول تشمبرلن (لقد جرّنا اليهود نحن والولايات المتحدة إلى الحرب العالمية».[١] كما وقف الإعلام الأمريكي وما يزال إلى جانب العدو الصهيوني في الحروب المتتالية عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧، وعام ١٩٧٣... وإلى أيامنا هذه..

مزاعم الصهيونية:

بدأ هؤلاء الصهاينة سياسية التزييف والتغريب بشكل عملي بعيد عقد اجتماعهم الأول في سويسرا، وقد سرقوا حتى اسم منظمتهم من العرب، فلفظة صهيون ليس إلا اسم رابية في أورشليم كان قد أقام عليها اليبوسيون أبناء عمومة الكنعانيين العرب. حصناً قبل ظهور بني إسرائيل (قوم موسى) بحوالي ٢٠٠٠ عام.[٢]

وقد قامت منظمة إرهابية في روسيا سموها ـ (أحباء صهيون). قامت بحركات سرية ضد الحكم القيصري، ثم أخذت تعنى بفلسطين وتسعى لاستعمارها كوطن قومي لليهود. وما لبثت هذه المؤسسة أن أصبحت مؤسسة سياسية استعمارية دولية ذات جهاز تنظيمي واتخذت من اضطهاد اليهود ذريعة لتنظيم حركة يهودية سياسية تستهدف أول ما

تستهدف تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين بحجة حقوق اليهود التاريخية فيها.

وقد وجدت الصهيونية بعد تحرر اليهود في أرجاء أوربا ومنحهم الحقوق المدنية والحرية الكاملة للعيش في المجتمعات الأوربية، وجدت ظروفاً مواتية لنشاطاتها. فبدأت نشاطها المنظم بدعوى معاداة الشعوب للسامية وبنشر أسطورة مفادها أن فكرة إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين قديمة، فمنذ هدم هيكل سليمان قبل ما يقرب من ألفي عام واليهود يتطلعون إلى تحقيق حلم العودة إلى فلسطين أرض الميعاد، وقد تكونت نتيجة للمساعي المبذولة لتحقيق هذا المشروع المبني على الخداع والتضليل، المنظمة الصهيونية العالمية في أخريات القرن التاسع عشر والتي تمخض اجتماعها الأول في سويسرا عن برنامج سري مدروس عرف فيما بعد ببروتوكولات حكماء صهيون.

ومن أجل إقناع العالم بحقهم في العودة إلى أرض الميعاد لجؤوا إلى تزوير التوراة بما يتناسب مع تلك الآراء، ثم مضوا يطلقون عدة مزاعم وافتراءات لإثبات حقهم مستخدمين في ذلك الكذب والتدجيل وقلب الحقائق، وتوظيف حتى العلم نفسه من أجل مزاعمهم...

ومن هذه المزاعم التي أشاعها الصهاينة وضللوا بها العقول زعمهم أن اليهود جميعاً في العالم من اصل فلسطيني وأنهم حين يطالبون بفلسطين إنما يطالبون ببلادهم، وهي دعوى ملفقة لتبرير عدوانهم على الشعب الفلسطيني وطردهم إياه.

وقد أشاع تلك الفرية بعض هؤلاء الصهاينة من أجل غاية كانوا يخططون لها وهي هجرة اليهود إلى فلسطين لإقامة الكيان الصهيوني.

ولكن الحقيقة تفضحهم. فيهود أوربا من أصل أوربي صميم، اعتنقوا الدين اليهودي على أيدي مبشرين من اليهود في القرن الثالث قبل الميلاد. وما بعده، وقد كانت لهم مستعمرة واسعة في حوض نهر الراين الشمالي والأوسط ومن هناك انتشروا في وسط أوربا وشرقها وغربها.(٣)

يقول الدكتور أحمد سوسة: «والذين يزعمون ذلك الزعم. أن اليهود في جميع أنحاء العالم متشابهون في السحنة والمنظر والتقاطيع لأن قانون الوراثة يقضي حتماً بأن الفروع تشبه الأصول». ولو نظرنا إلى هؤلاء اليهود في مختلف الأقطار لوجدنا بينهم الشقر ذوي العيون الزرق والشعر الأصفر، وبينهم السمر ذوي الشعر المجعد في الحبشة، والسود في جنوب الهند. فهم ينتسبون إلى عدة سلالات..، ونسي هؤلاء الصهاينة أنهم من أصل جرماني أو سلافي أو بلقاني. وإن القول بأن يهود العالم مشتقون من تلك الطائفة الصغيرة زعم ظاهر البطلان وأثبت بطلانه عدد كبيرمن علماء الأجناس. ولكن الدعاية الصهيونية لم تتورع عن طمس الحقائق لإفساد التاريخ. ومن الواجب أن نفرق بين انتشار بني إسرائيل وبين انتشار دينهم، فانتشار الدين اليهودي قد خلق أجيالاً وطوائف من اليهود لا تمت بشيء سوى صلة العقيدة وبعبارة أخرى أن انتشار اليهودية قد قضى على بني إسرائيل كسلالة جنسية متميزة.(٤)

ويرى الباحثون المختصون أن يهود العالم ثلاثة أقسام: الإشكنازيون، الذين ينتسبون إلى اليهود الألمان أو الذين ينحدرون من أصل ألماني. لغتهم اليديش. وهناك طائفة السفارديين وهم الذين انحدروا من أصل اليهود الذي هاجروا إلى شبه الجزية الإيبرية خصوصاً بعد فتح المسلمين لها عام ٧١١ هـ وكانوا يتكلمون الإسبانية حتى القرن الثاني عشر الميلادي وبعد خروج العرب من الأندلس هاجر هؤلاء اليهود إلى جنوب أوربا وشمال أفريقيا وبلدان الشرق الأوسط.. والطائفة الثالثة هم اليهود الشرقيون وهم الذي غادروا فلسطين إثر السبي والطرد وقد انتشروا في العراق وإيران وأفغانستان ومصر وشمال إفريقيا.. ويرى د. سوسة أن اليهود الإشكناز وهم الأوربيون المتهودون لم يتسن لهم ولا لأجدادهم أن يروا فلسطين في حياتهم والغريب أن هؤلاء هم اليوم غلاة الصهيونيين وزعماء الصهيونية العالمية.

فاليهود إذن تشتتوا في الأرض وذابوا في دماء الشعوب، على حين أن أهل فلسطين بقوا في أراضيهم منذ خمسة آلاف عام ولم يغير حكم داود وسليمان عليهما السلام والذي لم يطل أكثر من ثمانين عاماً، ولا حكم إسرائيل ويهوذا، لم يغير هذه الحقيقة التاريخية. لأن هؤلاء اليهود لم يتركوا أي كيان سياسي يهودي خاص بهم في تاريخ فلسطين، ولكنهم تركوا ديانة يهودية مقتبسة من تراث كنعاني أو بابلي أو آرامي وأن عهد الملوك بما فيهم عهد داود وسليمان كان عهداً كنعانياً بحضارته ولغته وثقافته وقد فشل اليهود في إنشاء مملكة زمنية يهودية دائمة لعدة أسباب: منها أن الكيان اليهودي لم يتم على أساس قومي راسخ أصيل في ثقافته

ولغته وتقاليده ووطنه، ولأن اليهود لم يملكوا أي تراث خاص بهم فمعظم ما مارسوه من لغة وثقافة ودين وتقاليد مقتبس من الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين، أما اليهود فلم يكن لهم وطن إذ كانوا غرباء طارئين على فلسطين، والسبب الثاني أن كيان إسرائيل كان قائماً على الاغتصاب والاعتداء على شعب له قوميته وتقاليده وثقافته وحكمه، عاش في فلسطين منذ خمسة آلاف سنة، فجاء اليهود عازمين على طرده وزعموا أن الرب وعدهم بذلك (وأنه سيحارب بنفسه من أجل تحقيق ذلك لهم).

ورغم كل ذلك فما يفتأ هؤلاء الصهاينة يرون أن اليهود المنتشرين في بقاع الأرض يكوّنون شعباً واحداً، في الوقت الذي نراهم ينتمون إلى مختلف القوميات، وليسوا قومية واحدة، ولهذا راح الصهاينة يحاولون أن يجعلوا من نغمة اضطهاد اليهود قومية يهودية إسرائيلية بربط يهود العالم بعجلة المصير الواحد والولاء الواحد لإسرائيل. وبذلوا لذلك أقصى الجهد لتجسيم خطر اللاسامية وذلك لحمل أكبر عدد ممكن من اليهود على الهجرة إلى اسرائيل وخاصة بعد أن شعر زعماؤهم بخطر ذوبان اليهود في البلدان التي يعيشون فيها.

ومن الأساليب الإجرامية التي ارتكبتها الصهيونية أنها تواطأت حتى على اليهود أنفسهم فاتفقت خفية مع بعض أولياء الأمور في بعض البلاد العربية التي كانت تخضع للنفوذ البريطاني لشن حملة إرهابية مصطنعة ضد اليهود كي يضطروهم تحت هذا الضغط المدبر للهجرة إلى فلسطين

وتم لهم تشويه سمعة العرب من جهة، وخدمة المصالح الصهيونية من جهة أخرى، فأنت ترى أن الصهيونية هنا لم تمانع بالتضحية بعدد من يهود العالم لتحقيق أهدافهم السياسية وهم يحاولون اليوم صهر يهود العالم من مختلف القوميات والأجناس في قومية يهودية واحدة قائمة على الدين واللغة، ولهذا أسرعوا إلى إنشاء معسكرات تثقيفية خاصة يلقنون فيها اليهود قبل انتقالهم إلى فلسطين اللغة العبرية والمبادئ الصهيونية.

ورغم أن الإحصاءات قد أثبتت أن هؤلاء اليهود قدموا إلى ـ الكيان الصهيوني من١٠٢ دولة معظمهم لا يحسون برابطة تربط بعضهم ببعض ولكن إسرائيل تحاول أن تصهر الجميع فتجعل لهم لغة واحدة هي اللغة العبرية وتاريخها هو تاريخ اليهود بالشكل الذي تريده.

ولما حاول بعض هؤلاء اليهود الاعتراض على تلك الأسس التي أرادت أن تجعل منهم قومية واحدة وأن مخاطر ذاك أكثر من منافعه لهم، عندها لجأت الصهيونية إلى خدعة جديدة وهي ادعاؤها أن الصهيونية واليهودية شيء واحد لا يمكن الفصل بينهما. وأن اليهودية قومية وكل من انتسب إلى هذا الدين هو صهيوني بغض النظر عن البلد الذي ينتمي إليه وفي هذا يقول وايزمان:

(إن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان ولا يمكن تدمير الصهيونية بدون تدمير اليهودية).

ولكن الكاتب اليهودي مكسيم روونسون قام في عام ١٩٦٨ في بعض كتبه ليدحض تلك الدعاوى الصهيونية متنبئاً لها بالفشل. فقال: « إن الصهيونية وإن نجحت اليوم في خلق الدولة اليهودية فإن إقامتها تبقى على أسس غير سليمة، وإن القوة التي تعتمد عليها لن تدوم إلى الأبد. إن إسرائيل ستلقى نفس المصير الذي لاقته هذه الإمارات اللاتينية في فلسطين ».[٥]

وعندما راح بن غوريون عام ١٩٦٢ يزور اليهود في الدانمارك، حثهم على الهجرة إلى إسرائيل فوقف رئيس الجالية اليهودية هناك يقول له: « إننا نحن الدانمركيون لا نريد مكاناً آخر لنعيش فيه حياة أسعد من حياتنا هنا، إننا جزء أصيل من الشعب الدانمركي فنحن دانمركيون أولاً ثم يهود ».

واليوم ما زال الكيان الصهيوني يعمد في دفعه اليهود للهجرة إلى إسرائيل على الكذب والخداع والتضليل، فاليهود الروس كانوا يتوقعون أن يذهبوا إلى أمريكا ولكن أمريكا أغلقت الأبواب في وجوههم عمداً وبالاتفاق مع الصهيونية العالمية ليتم إرغامهم على الذهاب إلى فلسطين ليكونوا سداً كبيراً في وجه الانتفاضة.

افتراءات عجيبة:

ورغم أن القضية الفلسطينية صارت من أكبر قضايا التحرر في العالم وخاصة في أمريكا نفسها إلا أن الأقلية الصهيونية القوية المتنفذة في أمريكا أسهمت بشكل كبير في إدخال إسرائيل في الوعي الأمريكي

من خلال تأثيرها الإعلامي والسياسي والمالي... كما أن استراتيجية الولايات المتحدة جعلت إسرائيل حامية لمصالحها في المنطقة، ولهذا فأنت ترى أن بعض الأمريكيين يروحون في عدائهم للفلسطينيين حداً أبعد من الصهاينة أنفسهم. وأول سياسات التغريب التي زرعتها الصهيونية في أذهان الأمريكيين هو التشكيك بوجود شعب اسمه الشعب الفلسطيني أو القول بعدم وجوده، وقد فعل ذلك بن غوريون وغولدمائير ومناحيم بيغن من قبل وأصر عليه شمعون بيريز الذي صرح عام ١٩٨٦ (بأنه لم يكن في فلسطين شعب حقيقي عام ١٩٤٨) وزعم أن القلة الموجودة يومئذ دعاها الزعماء العرب للخروج فخرجت ولم تعد، وكان ذلك ـ في رأيه ـ خير للبلاد، لأن العرب كانوا يعيشون في حاله شبه بدوية..... ومما يزيد الأمر فظاعة إقدام ـ جوان باترز ـ وهي أستاذة يهودية أمريكية على تأليف كتاب عام ١٩٨٤ تنكر فيه وجود الشعب الفلسطيني استناداً إلى إحصاءات ومقارنات مزعومة[٦] وقد لقي الكتاب ردود فعل إيجابية في الأوساط الإعلامية الأمريكية.. وحجتها كما يقول د. ادوارد سعيد: «بأن الفلسطينيين الأصليين كان عددهم عام ١٩٢٠ إبان الانتداب البريطاني ربع مليون نسمة وقد بلغوا عام ١٩٤٨ حوالي (٨٠٠/ألف) وفي رأيها هذه زيادة غير طبيعية، ولذا فهي قد وجدت حلاً لهذه الزيادة غير الطبيعية، يتناسب مع الرؤية الصهيونية ويخدمها رأت أن هذه الأعداد الهائلة جاءت من سوريا ولبنان وفلسطين للعمل في المزارع والصناعات التي ازدهرت على أيدي القادمين من المستوطنين الصهاينة، وهي فرية تحمل عوامل نقضها في ذاتها، ففي ملفات الانتداب البريطاني وشواهد

الأحداث من القادة العرب، أن الفلسطينيين لم يخرجوا مختارين وإنما تحت ضغط المدافع ودوي القنابل، والمجازر التي أقدمت عليها الصهيونية، والكاتبة غالطت في الأرقام التي ذكرتها، كما أنها نسيت أن بعض الكتاب من الأمريكيين أنفسهم قال بعكس ذلك مما ينبئك أن هؤلاء الصهاينة يطلقون الفرية ـ ولو كانت في رسالة جامعية أو أكاديمية ـ وهم يعلمون أنها بينما يستطيع الآخرون كشفها تكون قد فعلت فعلها في المجتمعات الأمريكية والعالم وزرعت في عقول هؤلاء الناس تلك الأفكار المزيفة، وحتى لو وجدت الآراء المضادة فإن الإعلام الصهيوني وسيطرته هناك يحول دون وصوله إليهم بحيث يبقى ما نشروه من آراء هو السائد والمهيمن»

ومن المسلمات الخاطئة التي انفرد باختراعها الصهاينة ووافقهم عليها الأمريكيون، أن الـ ٤٠ ألف فلسطيني الذين غادروا الأرض المحتلة عام ١٩٤٨ فعلوا ذلك بضغوط وأوامر وتوجيهات الملوك والرؤساء العرب ومن الجامعة العربية أو الهيئة العربية العليا وما يزال الصهاينة يكررون ذلك وقد كشف د. اداورد سعيد ـ كذب هؤلاء الصهاينة وطريقتهم في افتعال أخبار عن طريق كشفه لحديث دار بين الصحافي البريطاني جون كيمحي وهو محرر جريدة جويش كرونيكل، والذي وضع عام ١٩٥٣/ كتيباً للحكومة الصهيونية عن اللاجئين والذي ذكر فيه أنهم خرجوا بإرادتهم أو بطلبات من العرب... فاهتم بالقضية الصحافي أرسكين تشايدرز وهو ابن رئيس جمهورية ايرلندا، فاتصل هذا بالصحافي الصهيوني البريطاني وطلب منه أن يذكر مصادره التي

اعتمدها في أن الفلسطينيين خرجوا بإرادتهم فأجابه بعد مدة (إن ذلك أمر معروف ولا يحتاج لإثبات) فلما جادله في ذلك وضايقه أجابه (إن المهم ليس سبب أو أسباب مغادرة اللاجئين بل كيفية حل مشكلتهم الآن).(٧)

فانظر إلى هذه السياسة التغريبية في مجال الإعلام الصهيوني وكيف يلقي هؤلاء الصهاينة الأخبار دون تحقق من أجل حرف الفكر الغربي وإقناعه بمقولات كاذبة تنبيء بأن شعبنا خرج بإرادته مما يعطيهم الحق في النزول في فلسطين طالما أن فلسطين صارت أرضاً بلا شعب وهم شعب بلا أرض.

ولكن نسي هؤلاء الصهاينة أنهم إن استطاعوا تضليل الرأي العام عشراً أو عشرين سنة لكنهم لن يستطيعوا تضليله إلى الأبد، إذ ما يلبث أن يبرز في الساحة الأمريكية من ينقض لهم تلك الآراء ويدلل على بطلانها.

الاستشراق الصهيوني:

وما زال الفكر الصهيوني يغزو الغرب بوسائله المتعددة مستخدماً الإعلام والصحافة والسينما والمسرح والمحافل، قابضاً بيده على إعلام الغرب وسياسته واقتصاده ومن ثم استطاع السيطرة على هذا الفكر وتمكن بالتالي من محو آثار العداوة التي يكنها المسيحيون لليهود نتيجة مؤامرتهم على السيد المسيح، ثم تابع الفكر الصهيوني دوره مستخدماً

الجامعات الصهيونية والدراسات الأكاديمية وتربية كوادر استشراقية كان لها الدور الكبير في تشويه الإسلام..

ومنذ أيّام الرّسول ﷺ قام هؤلاء اليهود في معارضة الدّعوة الإسلاميّة وسخّروا ما في حوزتهم للقضاء على الإسلام وعلى نبيّ الإسلام، ورغم أنّ الإسلام تمكّن من القضاء عليهم مبكّراً إلا أنّهم عادوا بصورة جديدة حين اعتنق بعضهم الإسلام وراحوا يبثّون سمومهم من خلال ما عرفناه بالإسرائيليّات الّتي ساهمت في إبعاد المسلمين عن الفهم الصّحيح للقرآن وتفسيره.. كما ساهم هؤلاء اليهود في انحراف المجتمع الإسلاميّ عن مساره الصّحيح بما أسسّوه من حركات هدّامة أو شاركوا فيها مثل السبئية والقرامطة والحشّاشين والراوندية..

وإذا كانت اليهوديّة قد استندت في عدائها للإسلام على أسباب دينيّة فإنّنا نجد الصهيونيّة اليوم قد استخدمت العامل الديني منطلقة من دوافع عنصريّة إمبريالية ساهم في خلقها الجو الفكري الاستعماري الذي ساد أوربا عبر القرن التاسع عشر الميلادي، وقد توجه الصهاينة إلى فلسطين بهذه الروح الاستعمارية الحاقدة مما ينبئك أن الصهيونية بجذورها الفكرية الاستعمارية لا ترتبط بالدين ولا تقيم له وزناً وإنما اتخذته وسيلة من وسائل تحقيق أغراضها التوسعية.

وفي الوقت الذي نظر فيه الغرب فرأى أن الحروب الصليبية لم تجْده فتيلا، لهذا ارتأى أن يغزو المسلمين عن طريق آخر هو طريق الفكر فكان من جراء ذلك أن تأسست حركة الاستشراق التي راحت

تدرس ديانات ولغات وآداب وفنون شعوب متعددة، وتركز في دراستها على الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية واللغة العربية، وبهذا نرى وإن كان ظاهر حركة الاستشراق أكاديمياً أو علمياً إلا أنه يعد حلقة من حلقات المجابهة القوية للإسلام، وهذا طبيعي جداً إذا عرفت أن حركة الاستشراق إنما نشأت في أحضان الكنيسة وبجهودها ودعمها ولهذا فالاستشراق استمرار للحروب الصليبية في ثوب جديد براق ظاهره التعرف إلى الحضارة الإسلامية للاستفادة منها في بناء حضارة الغرب وباطنه هدم الكيان الحضاري الإسلامي وتشويهه وتقديم البديل له المتمثل بالبناء الحضاري الغربي.

ولهذا كان التركيز على القرآن الكريم أولاً ثم على شخصية النبي العربي ثانياً ثم الطعن بالإسلام ثالثاً. يقول فلهاوزن: «لم يبق الإسلام على تسامحه بعد بدر بل شرع في الأخذ بسياسة الإرهاب داخل المدينة.... وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول، أما اليهود فقد حاول أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد».(٨)

وهذا الافتراء مردود على فلهاوزن فإن تسامح المسلمين مع أسرى بدر خاصة والمعاملة الحسنة التي لاقوها ما كان قوم فلهاوزن ليقوموا بنفس الخطوة التي خطاها رسول الله من إطلاق سراح الأسير إذا علم عشرة من المسلمين، فإذا عرفت رحمة الإسلام وحسن معاملته للأسرى أدركت أن فلهاوزن هذا يكذب على الإسلام، فأين الإرهاب في المدينة، والمنافقون لم يثرهم الإسلام وإنما هم الذين وقفوا في الصف المعادي له

فاقتضى الأمر تأديبهم أو حسبانهم في عداد الأعداء ورغم ذلك كان النبي ما يزال يرضى بهم في صفوف المسلمين ورغم أن الله تعالى أطلعه على أسمائهم إلا أنه رفض أن يكشفهم للناس لعلهم يتوبون أو يذكرون أما اليهود فليس الإسلام هو الذي أظهرهم بمظهر الناكثين للعهود، بل هم الذين وسموا أنفسهم بذلك الوسام فنقضوا العهود مع رسول الله غير مرة. فكيف ينقضون العهود ثم يروح فلهاوزن ليدين بذلك الإسلام، ثم نستمع إلى فلهاوزن هذا يتحدث عن الإسلام فيقول:

« وإن فيه سذاجة الفكر الإسلامي المفزعة المقلصة للمخ البشري، مغلقة منافذه في وجه كل لطيفة وكل إحساس رقيق. فمنذ القدم كان الفكر الإسلامي مضاداً للفلسفة رافضاً للعلم». العجيب بعد ذلك أن هذا الفكر الإسلامي المفزع المقلص للمخ البشري هو الذي علم أجداد فلهاوزن هذا في عصور الظلمات، ولا أدري إن كانت أمخاخهم قد فرعت وتقلصت بعد ذلك لعله يقصد أن قنبلتي ناغازاكي وهيروشيما والحربين العالميتين اللتين أثارهما الغرب تنبئ عن إحساس رقيق جداً بحيث سمحت بقتل ما يزيد عن مئتي ألف إنسان ولم تنجرح لذلك مشاعر فلهاوزن.. ومن العار أن يسم هذا المستشرق الإسلام بأنه يرفض العلم وهو الذي جعل للعلم دولة وسلطان ظل أبناء الغرب على موائدها حتى القرن الثامن عشر.

ولكن من يرى هذه الرؤية هو نفسه الذي لا يجد في اليهود خطراً على العالم ولا في الصين واليابان وإنما يجد الخطر كل الخطر في

الإسلام يقول: «اليهود لا خطر منهم، والخطر الأصفر ـ الصين واليابان ـ لا يهم لأن الدول الديمقراطية تقاومه، أما روسيا البلشفية فهي اليوم حليفتنا، ولكن الخطر الحق هو خطر الإسلام لما فيه من الحيوية الكامنة والقدرة على الانتشار والتسلط فهو السور المنيع أمام الاستعمار».(٩)

وهذا اعتراف صريح من فلهاوزن بالتآمر مع الاستشراق الصهيوني أولاً واعتراف بحيوية وعظمة الإسلام ثانياً واعتراف صريح من أن الغرب لا يناهض الإسلام إلا من أجل مطامعه الاستعمارية وكان على فلهاوزن هذا أن يسأل نفسه أيمكن لدعوة إنسان مزور أن يكون لها من الحيوية والاستمرار بحيث تظل ممتدة طوال هذه القرون؟

أما عوامل التلاقي بين الاستشراق الصهيوني والاستشراق الغربي فهي أنهما يحملان عداوة تاريخية موروثة للإسلام وأهله، وكلاهما يعتبر الإسلام صورة محرفة منقولة عن اليهودية أو النصرانية ـ وقد رددنا هذه الفرية من قبل ـ ويتفقان على أن الإسلام أكبر خطر على المشاريع الإمبريالية كما يلتقيان على ضرورة السيطرة على العالم العربي والإسلامي، ولهذا قام الغرب بمناصرة الحركة الصهيونية منذ نشوئها وحتى تأسيسها لهذا الكيان في فلسطين. وبهذا صار الكيان الصهيوني يمثل ضمانة استمرار السيطرة الاستعمارية على المنطقة العربية أرضاً وفكراً أو ثقافة وحضارة..

ومن هنا كان هؤلاء اليهود بحاجة إلى الدراسات الاستشراقية ليستفيدوا منها في فهم طبيعة العرب ومجتمعاتهم وعاداتهم وأخلاقهم،

فكان من أجل ذلك أن التقى الاستشراق الصهيوني مع الاستشراق الغربي على قدم وساق وساهم كل منهما في تشويه الإسلام والمسلمين.

وسواء أكان الاستشراق الصهيوني يعمل تحت إشراف الاستشراق الغربي أو منفرداً فالقضية لا تختلف لأن هدفهما واحد وهو ديني وسياسي. أما الهدف الديني: فيرمي إلى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهودية عليه، وأما الهدف السياسي: فيتلخص في الترويج للحركة الصهيونية فكرة ودولة.

وهكذا ظهر في الاستشراق الصهيوني رجال إعلام بارزون أمثال: غولد تسيهر ودوركايم، ومرجليوث ورينارد لويس وردونسون، وبرزت أهمية هذا الاستشراق الصهيوني عندما استطاع التغلغل والسيطرة على الفكر العربي ونشر أفكاره وخاصة بعد أن استطاع محو آثار العداوة بين اليهود والمسيحيين، وتوصلوا بعد ذلك إلى طبع العهدين القديم والجديد معاً وكرسوا حاخامات يشرفون على تدريس الكتاب المقدس لطلبة الغرب ويعرفونهم على الأفكار الصهيونية وأهدافها..

الأثر الصهيوني على حركة الاستشراق:

إلى جانب الأثر الصهيوني على حركة الاستشراق والذي بدت جوانبه في كل ما كتبه غولد تسيهر ومرجليوث دسّاً على الإسلام وتشويهاً له. فإن الجوانب الكبرى لهذا الأثر ظهرت في ميدان الإعلام العالمي وقضية معاداة السامية ودور الجامعات الصهيونية

أما قضية الإعلام العالمي، فاليهود يمتلكون أكبر المجلات والصحف وشركات البث التلفزيوني وهم يعرفون كيف يسخّرون هذه الوسائل دعماً لمخططاتهم وتحكماً في مقدرات الشعوب وقد وضح هذا الأثر على الغرب في خطاب أوريان أركند بنيويورك عام ١٩٣٧ إذ قال:

«عن طريق وكالات الأنباء العالمية يغسل اليهود أدمغتكم ويفرضون عليكم رؤية العالم وأحداثه كما يريدون هم لا كما هي الحقيقة. وبأفلام (السينما) يغذي اليهود عقول شبابنا وأبنائنا ويملؤونها بما يشاؤون فيشب هؤلاء ليكونوا أزلاماً لهم وعبيدا. فخلال ساعتين من الزمن ـ مدة عرض الفيلم ـ يمحو اليهود من عقول شبابنا وأجيالنا الطالعة ما قضى المعلم والمدرسة والبيت والمربي ستة أشهر في تعليمهم وتثقيفهم وتربيتهم».(١٠)

وقد صرح قادتهم في بروتوكولات حكماء صهيون في البروتوكول الثاني عشر: (بأن الأدب والصحافة هما أعظم قوتين خطيرتين ولهذا السبب ستشتري حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات وسننشر فيها آراء معارضة لنظراتنا لنوهم القراء بالثقة فينا وسيقعون عندئذ في شركنا، وفي المقام الأول سنسيطر على الصحافة الرسمية التي ستكون دائماً يقظة للدفاع عن مصالحنا. وستكون لنا جرائد شتى تؤيد الطوائف المختلفة: من ارستقراطية وجمهورية ـ وثورية بل وفوضوية أيضا، .. .. وبهذه الإجراءات سنكون قادرين على إثارة عقل الشعب وتهدئته في المسائل السياسية، وسنكون قادرين على إقناعهم أو بلبلتهم بطبع أخبار صحيحة أو زائفة حسبما يوافق غرضنا..).(١١)

ويجب أن تعلم أن وسائل الإعلام هذه التي يوجهها اليهود هي الوسيلة الأولى للمعرفة الغربية استشراقية كانت أو غيرها، وإذا حاول الغربيون نشر أفكار تخالف ما يريدون منعوهم ذلك لسيطرتهم على الصحف وإلا أسكتوهم بالرشوات أو بالإغراءات وقد يصل الأمر بهم إلى حد الاغتيال.. ومن هذا نفهم لماذا دفعت الصهيونية مبلغ ٣٠٠ ألف دولار لوقف نشر (الكتاب رقم ١٣) للصحفيين الدانمركيين داغ الكريستسين وديفيد تناين، اللذين فضحا الأعمال والمخططات الإرهابية لتصفية وقتل العرب في بلاد اسكندنافيا، وكذلك قاموا بملاحقة واغتيال معظم مؤلفي كتاب ـ قضية فرانكهايم ـ وهو المصرف اليهودي الذي تبين أنه كان يمول الحركات النازية في العالم واشتراكه في قتل اليهود من قبل ألمانيا النازية).[١٢]

فمن يجرؤ بعد هذا من الإعلاميين الغربيين على قول الحقيقة لا بد تترصده الصهيونية العالمية لتتخلص منه وإلا وسموه (بمعاداته للسامية).

وإذا قيل فلان معادٍ للسامية فمعنى ذلك أنه معادٍ للكيان الصهيوني ولإسرائيل ومصالحها في المنطقة يقول ريغان (أن كلمة معاداة السامية لهي أكثر فعالية من أكثر تهم التعصب التي تقذف علينا في هذه الأيام. إنها تحمل في طياتها نفحة النازية والقتل الجماعي).

وبعد أن أزال الصهاينة كل دواعي العداوة بينهم وبين الغرب سهل عليهم أن يلتقوا مع الفكر العربي وتقوم دراساتهم معاً على الطبيعة

العدائية للعرب والمسلمين، وبهذا حاولوا إسكات كل الدعوات التي نادت بضرورة اعتدال النظرة الغربية تجاه المسلمين، كدعوات توماس كارليل وأمثاله المنصفين، وكان هذا أول أهداف الدراسات الصهيونية، والهدف الآخر هو أن ترفع تلك الدراسات من شأن اليهود وتقلل من شأن العرب أو تساعد على إحياءكل الدعوات التي تؤكد مقولة أرض الميعاد والعودة إلى فلسطين، منطلقين من دراسات مرجليوث وغولد تسيهر وريتان وجب، .. .. وبعد تركيز تلك الدراسات على تشويه الإسلام اتجهت إلى فلسطين بحيث صار موضوعها يحظى باهتمام خاص من قبل الأوربيين من مستشرقين وصحفيين وفنانين ودارسي الكتاب المقدس، واتصل بذلك دراسات للمستشرقين بحثوا فيها عن دور اليهود في الجزيرة العربية واستيطانهم وعلاقاتهم بالعرب وكانت هذه الدراسات فرصة كبيرة لتشويه وقائع التاريخ وأحداثه وتحريف النصوص المقدسة وتطويعها لمصلحة اليهود ومنها دراسة إسرائيل ولفنسون عن (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام) ويتوازى مع هذه الدراسات الأخرى التي تنال من العرب والمسلمين في لغتهم ودينهم وقيمهم وحضارتهم فقد رأيت كيف أرسلت وزارة المستعمرات البريطانية - مرجليوث - ليعرض على رئيس المجمع العلمي بدمشق الأستاذ محمد كرد علي بضرورة استبدال العربية بالحرف اللاتيني، كل ذلك من أجل القضاء على لغة القرآن وتجذير الطائفية والفرقة في العالم العربي، وقد تركت تلك الدعوات أثرها عند بعض العرب الذين حملوا لواءها مثل طه حسين وعبد العزيز فهمي ولويس عوض، وكاد المجتمعون في

مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن يوافقوا على قضية استبدال الحرف العربي باللاتيني لولا تدخل الدكتور المرحوم عمر فروخ والذي عارض بشدة هذه الدعوة، وعندها استشكل الأمر على د. طه حسين والذي قال: «(إذا لم نفعل ذلك فكيف يمكننا كتابة فكتور هوغو».[١٣]

غريب رأي طه حسين هذا وكأن فيكتور هوغو لا يفهم إلا إذا كتبنا أدبه بالحرف اللاتيني !!!..

أما الجامعات الصهيونية فقد كان لها علاقة وطيدة بحركة الاستشراق، فقد عمل اليهود على ربط صلاتهم بالمستشرقين عن طريق تتلمذ كثير من مبعوثيهم على أيدي مشاهير المستشرقين أمثال جيوم وغيره.. بل إن بعض هؤلاء الصهاينة استطاع تسلم زعامة تدريس الإسلام والدراسات القرآنية مثل شاخت في جامعة كمبردج وأكسفورد وقد عرضنا عليك كيف التقى د. مصطفى السباعي بشاخت هذا وحاوره في علومه فوجد أنه لا يفقه شيئاً من الفقه وهو يدرّسه.

هذا إضافة إلى ما تقوم به تلك الجامعات من دراسات استشراقية تستهدف تشويه الحقائق وتركز على دراسة الحروب الصليبية ومعاني الجهاد فتتناولها من منظور صهيوني مشوه لعرضه على أنظار الغرب كما أن الصهاينة عمدوا إلى الحضور الفاعل إلى مؤتمرات المستشرقين ليحاولوا جر هذه المؤتمرات نحو الأهداف التي تخدم مصالحهم، ففي أحد المؤتمرات العامة للمستشرقين في كامبردج عام ١٩٥٥ جاء اليهود من مختلف البلدان للمشاركة حاملين أفكارهم العنصرية، مما جعل

المؤتمر يتحول إلى مسرحية هزلية لم يترفع أحد الصهاينة عن ذكر أن مسيلمة أستاذ النبي محمد وأن قصر الحمراء بغرناطة كان من عمل اليهود.[١٤]

هذه هي الصهيونية أكبر حملة تغريب فكرية وثقافية في العالم، وتزداد فعاليتها عندما تركزت حملتها الشعواء على الفكر الإسلامي وعمدت إلى قلب حقائقه بالتعامل مع حركة الاستشراق الغربي. ولهذا كان واجباً علينا كشف هذا التآمر الخفي والذي هو في حقيقته أشد فعالية على العرب المسلمين من احتلال فلسطين نفسها.

***

مراجع الفصل الحادي عشر

(١) كتاب ــ الإسلام والتحديات المعاصرة ــ مقال قلم التحرير ــ جمعية الدعوة الإسلامية ــ ليبيا.
(٢) العرب واليهود في التاريخ. د. أحمد سوسة.
(٣) الاستعمار والمذاهب الاستعمارية. د. محمد عوض محمد ــ مطبعة العلم دمشق ١٩٦١.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) العرب واليهود في التاريخ.. د. أحمد سوسة.
(٦) كتاب ــ لوم الضحايا ــ لإدوارد سعيد. عرض د. رضوان السيد في رسالة الجهاد عدد ٨٣.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) مجلة رسالة الجهاد العدد ــ ٧٣ ــ ٧٤ مقال ــ أثر اليهودية والصهيونية على الاستشراق لمحمد فتح الله الزبادي ــ
(٩) المجلة نفسها.
(١٠) في هذه الفقرة تلخيص لمقال الأستاذ الزبادي مع بعض الردود الجديدة.
(١١) الخطر اليهودي أو بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي طـ ٤ ــ دار الكتاب ببيروت.
(١٢) رسالة الجهاد العدد ٧٣ ــ ٧٤ مقال الأستاذ محمد فتح الله الزبادي.
(١٣) العدد نفسه.
(١٤) العدد نفسه.

الخاتمة

ما زال هؤلاء المستشرقون يتجنون في دراساتهم على الإسلام وأهله وتاريخه وحضارته، ويزعمون اتباعهم المنهج العلمي الحديث. بل وما زالوا يرون أنهم قد فاقوا أبناء الإسلام في تلك الدراسات غروراً وصلفاً، ولو كانوا ينشدون في دراساتهم الوصول إلى الحق ونشر الحقيقة لكان لهم من الفضل علينا ما لا نستطيع وفاءه، ولكن الواقع ينكر عليهم أن يكونوا كذلك. وكتبهم التي ملئت دساً وافتراء وتشويهاً تدين هذا المنهج الذي نهجوه، والطريقة التي سلكوها في إبراز تاريخ المسلمين ورسالتهم السماوية، كما أن عملهم في تحليل النصوص ودراستها وبتر أجزاء منها، وتحميل النص ما لا يحمل من أحكام ونتائج، كل ذلك نكته سوداء في تاريخ الحركة الاستشراقية. ثم كان ذلك التآمر المدروس والتواصل المستمر من هؤلاء المستشرقين كابراً عن كابر، من أجل الوصول إلى غرض واحد هو تشويه الإسلام والمسلمين والطعن برسول الله وأحاديثه وسيرته وصحابته، ومن أجل محو الصورة المشرقة للإسلام في نفوس أبنائهم أولاً وفي نفوس المسلمين ثانياً، ليتسنى لهم عرض بضاعتهم من الحضارة الغربية بما فيها من بهتان وباطل وعري وشهوات وخمور وخروج عن قانون الله.

إن القيم والأخلاق ومبادئ التوحيد والعدالة والسلام لا يمكن لأعلم أهل الأرض أن يشوه صورتها مهما أوتي من بلاغة وعلم وثقافة، ومهما أوتي من مكر وحيلة وروغان. لأنها كنور الشمس صفاء وصدقاً وإشعاعاً ومنذا يستطيع إخفاء ضوء شمس نورها يتلألأ. ومن عمه العقول عند هؤلاء المستشرقين ظنهم بأنهم قادرون على إطفاء نور شمس الإسلام

وتشويه صورته في نفوس الناس وأنهم لا بد بعد ذلك سيصرفون أقوامهم والعالم عن أن يسلموا ومن ثم سيحولون أجيال المسلمين عن دينهم إلى مذاهب فكرية جديدة زعموا أنها البديل عن الإسلام الذي مضى زمانه ومكانه.

ولكن المفاجأة كانت أكبر من هؤلاء فلقد لاقى مرجليوث وجب ولامانس وويلز وفيليب حتي وبرو كلمان ونيكلسون وفلهاوزن... لاقوا حتفهم (وعذراً لقد استعملنا نفس مصطلح فيليب حتي في موت الخليفة عمر) وما زال الإسلام يتلألأ نوره في الأرض، حتى دان به خمس سكان الأرض تقريباً، وما زالت أفكاره وقيمه وعلومه يصفق العلم لها ويتلاقى معها كأعظم ما اهتدت إليه العقول الراجحة في آخر القرن العشرين من أفكار وقيم. وهنا بهت الذي كفر، وأخذ هؤلاء المستشرقون وأتباعهم عن أنفسهم ورأوا أن الحق لا يمكن أن يصير باطلاً والنور لا يمكن أن يكون ظلاماً، ولكنهم رغم ذلك ما زالوا يرفعون راية العداوة لهذا الدين على الرغم من المرسوم الذي أصدرته سكريتارية الفاتيكان بالاعتراف بالإسلام ديناً سماوياً، في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ووثائقه المطبوعة عام ١٩٨٤ وقد تعددت وسائل هذا الغزو الفكري للإسلام وأهله ما بين استعمار وتبشير واستشراق كما امتدت جذوره لتمس لغة المسلمين وقرآنهم وإسلامهم ونبيهم وتاريخهم وحضارتهم. وكأنما اقتسم هؤلاء المستشرقون أدوارهم في الكيد للإسلام، بل كأنما تقاسموا بالله ليبيتن الإسلام ثم ليصبحن وليقولن ما شهدنا مهلك أهله، في الوقت الذي يكونون قد بيتوا ما بيتوا من التشويه والتزييف والدس والافتراء.

وقد جاء هذا الكتاب لكشف هذا الافتراء ـ أو بعضه ـ والذي يكاد أن يشوّه الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين. ولهذا تراني ركزت في الفصل الأول على بيان صفاء عقيدة الإسلام من الشوائب الباطلة، وبينت آثارها العظيمة في المجتمع، ثم أوضحت أن الفكر الإسلامي فكر ملتزم، لا يمكن أن تطيح به الأهواء أو تحرفه الميول والمطامع، فله قواعد ثابتة يلتزم بها في الكتاب والسنة، وفي نفس الوقت يملك ديناميكية التطور حسب الزمان والمكان، وهذا يدفع ما رمى به المستشرقون هذا الفكر من أنه خيالي أو غير علمي. ثم تحدثت عن الغزو الفكري بشكل عام وأظهرت أن القرآن الكريم عرض علينا نماذج لهذا الغزو في العقيدة والدين، والطعن بالأنبياء والقيم والأخلاق، فليس علم المستشرقين جديداً علينا ولكن زاد الظاهرة سوء تخلف المسلمين عن تمسكهم بقيم دينهم ومحاولتهم تقليد الغرب في كل شيء..

وفي الفصول التالية ناقشت مطاعن هؤلاء المستشرقين بلغة القرآن، وكيف ركزوا حملتهم أول الأمر على تشويه هذه اللغة وحاولوا إبدال فصيحها بعاميها وإلغاء الإعراب فيها. وإدخال الحرف اللاتيني بدل الحرف العربي ـ كما فعلت تركيا ـ ولكن كانت كلها محاولات فاشلة فقد حفظ الله كتابه ولغة هذا الكتاب. ثم حاورت هؤلاء المستشرقين في مطاعنهم بالقرآن وكيف حاولوا إنكار أن القرآن وحي سماوي فافتروا لذلك أسباباً زعموا فيها عن رسول الله أنه مريض أو أنه صاحب مخيلة واسعة وأن القرآن سجع كهان وأنه مأخوذ عن اليهودية والنصرانية وكلها أسباب واهية لا تثبت أمام النقد والتمحيص.

ثم تحدثت عن مطاعن هؤلاء المستشرقين وافتراءاتهم على رسول الله ﷺ. وكيف بدا حقدهم واضحاً عليه لدرجة أنهم افتعلوا له أوصافاً وأخلاقاً ما أنزل الله بها من سلطان، هذا على الرغم من إشادة عشرات المستشرقين من المنصفين برسول الله. وبعدها بينت مطاعن هؤلاء المستشرقين في الإسلام، وكيف حاولوا تعريته من التوحيد والأخلاق والقيم الحضارية وأنه ليس إلا فترة مرحلية ظهرت بسبب نشوء ظلم الرؤساء والقادة لأهل مكة وقد انتهى دوره ولم يعد يصلح لهذا الزمان، فكان أن أوضحت خلود هذه الرسالة وصلاحيتها لكل زمان ومكان بدليل انتشارها في كل دول أوربا والغرب. وفي الفصل الثامن أوضحت دور هؤلاء المستشرقين في تشويه تاريخ العرب وزعمهم أنه لا دور لهم في الحضارة الإنسانية.

وأخيراً تحدثت عن الصهيونية كأخطر ظواهر التغريب في بروتوكولاتها وأساليبها الجهنمية الماكرة وتآمرها مع الإمبريالية ضد مصالح الشعوب، من أجل حرف الإنسانية عن طريق الفضيلة والهدى والصلاح، ثم بينت دور الاستشراق الصهيوني وتعاونه مع الاستشراق الغربي، وتلاقيهما على أهداف لا تخدم الإنسانية بشيء.

هذا الغزو الفكري الذي قام به الاستعمار والتبشير والاستشراق بكل وسائله وطموحاته وكيده لأمة الإسلام ـ وإن استطاع أن ينال من المسلمين ـ بأن يغريهم بالمطامع أو بانفتاح دنيا تبرجت بشهواتها ونسائها، وأن يضل شبانهم بما لديه من خمرة وفسق وفجور وأفيون وحرية مطلقة وإن حاول غزو المجتمعات الإسلامية في عاداته ولباسه

وتقاليده وقيمه العارية وخلاعته ووسائط رفاهيته... إلا أن العقيدة في نفوس المسلمين لم يستطع أن ينال منها شيئاً، بل إنك لتجد المسلم وقد مال إلى الدنيا وشهواتها واستغرق فيها لتجد عنده إحساساً بالندامة والخروج عن تعاليم الله، مما يؤكد لك أن قيم الإسلام وعقيدته ليست زبداً فوق بحر لا يلبث أن يزول وإنما تمتد جذورها داخل قلوب المسلمين، وهذا هو أخوف ما يخافه الغرب أن تستيقظ العقيدة ويعود الإسلام إلى المسلمين من جديد بل هم صرحوا بأن الإسلام يملك هذه العودة ويملك قلب الأمة الإسلامية بين عشية وضحاها، وقد أزعج هؤلاء أنهم يعرفون أن الدين حقيقة يمكن أن يفعل ذلك ولا يحتاج من المسلمين إلا إلى تمسكهم بكتابهم وسنة نبيهم، وفي الوقت الذي نجد فيه أن كثيراً من المستشرقين استجابوا لنزعة الغرب الحاقدة وصليبيته البغيضة ومناهجه الاستعمارية في قلب القيم والأخلاق عيوباً يدان بها الإسلام، في هذا الوقت نجد عشرات المستشرقين قد درسوا الإسلام وتاريخ المسلمين وحضارتهم. ولا بد في خاتمة هذا الكتاب من أن نعرض جملة من أقوالهم لأنها في حقيقتها ليست إلا رداً على تلك الافتراءات التي عرضنا لها، بل هي كذلك تدين هؤلاء المستشرقين الذين خرجوا عن قواعد المنهج العلمي، مستجيبين لأهواء أو عصبيات أو حقد قديم.

فهذا ـ أوزالت ويرث ـ عندما درس الإسلام لم يلبث أن قال متعجباً: «إذا كان الإسلام هو هذا أفلا نكون جميعاً مسلمين». وهذا ما يدلك على أن هذا الدين يخاطب الفطرة في الناس جميعاً. ونسمع

جيبون يقول: «عقيدة محمد ﷺ خالصة ليس فيها لبس ولا إبهام والقرآن شاهد عدل وبرهان قاطع على وحدانية الله.

وقد أنصف ـ أرنولد توينبي ـ الإسلام حين قال: «لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب بل إن للعالم أجمع نصيبٌ فيها، ولما لم يكن هناك غير إله واحد كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة». ألا ترى أن كلمة توينبي هذه تفسير واضح لقوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

وعلى الرغم من افتراءات فيليب حتي إلا أنه لم يستطع أن يقول في الإسلام إلا أن: «دين محمد دين عملي صريح وقلما يشير القرآن إلى هدف عالٍ يصعب نواله». أي أنه دين الإنسانية أما غوستاف لوبون من أنصف حضارة العرب فيقول: «إن للإسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين أدخل إلى العالم التوحيد المحض، وتشتق سهوله الإسلام من التوحيد المحض وفي هذه السهولة سرُّ قوةِ الإسلام».

والمسيو إدوارد مونتييه يرى أن (الإسلام في الواقع حضارة قائمة بذاتها). أما أقوال هؤلاء المستشرقين المنصفين في رسول الله فقد بلغت من القوة والصراحة والموضوعية حداً حتى ليبدو أن قائلها قد أسلم.

فالبروفسور شيريل عميد كلية الحقوق في جامعة فيينا يرى: «أن البشرية لتفتخر بانتساب محمد إليها، ذلك الأمي الذي استطاع أن يأتي بشريعة سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمتها بعد ألفي عام».

أما غوستاف لوبون فيرى أنه: « إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ ».

أما برناردشو الفيلسوف الإنجليزي فقد أزعج كثيراً من مواطنيه بصراحته يوم أعلن: « أن أوربا بدأت تحس بحكمة محمد وبدأت تعشق دينه كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمتها به من أراجيف رجال أوربا في العصور الوسطى وسيكون دين محمد هو النظام الذي تؤسس عليه دعائم السعادة والسلام ». وهو يرى: « أن بوادر العصر الإسلامي الأوربي قريب لا محالة » بل هو منح محمداً ﷺ وسام الأهلية لقيادة العالم إلى ما فيه خيره ورشده: « إني أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه لتم له النجاح في حكمه ولقاد العالم إلى الخير وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم كله السلام والعدالة المنشودة ».

ونستمع إلى كارليل يعيب هؤلاء الذين يزعمون أن محمداً مزور وخداع: « لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يدعيه المغرضون »ويؤكد مقولته: « ولو أن الكذب والفحش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان مثل هذا التصديق والقبول فما الناس إلا حمقى مجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وضلال ـ هل رأيتم معشر الناس أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره، عجيب والله إن الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب ».

وهذا ما دعا القس لوزون إلى مدح النبي حيث يقول: «إن محمداً ﷺ وبلا التباس ولا نكران من النبيين والصديقين بل إنه نبي عظيم جليل القدرة والشأن». وقد ركز السير فلكد الأمريكي كلمته على عقل النبي حيث يقول: «كان عقل محمد من العقول الكبيرة التي قلما يجود بها الزمان».

أما هنرى دي كاستري الفرنسي فقد رد في كلمته على من ادعوا أن القرآن من كلام محمد: «كيف يتأتى أن تصدر تلك السور والآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق بأنها آيات يعجز فكر بني البشر عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى». وأعلن روسو خضوعه التام واتباعه لمحمد بقوله: «من الأوربيين من يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمداً يمليه عليه بتلك اللغة الفصحى، وبصوته المشع المقنع لخر ساجداً على الأرض وناداه قائلاً: أيها النبي يا رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار».

رضي الله عن صحابة رسول الله الذين عرفوا قدر هذا النبي فأحبوه ذلك الحب الذي دفعهم إلى نشر هذا الدين في أرجاء الكون.

فإذا أضفنا إلى هذه الكلمات الرائعة أسماء هؤلاء العظماء الذين أسلموا مؤخراً ومعظمهم على مراتب عالية في بلدانهم كالمستشرقين الإنجليزيين: اللورد هدلي وجون فيلبي، والفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي، والمستشرق أيتيين دينيه والذي تسمى ـ ناصر الدين دينيه ـ والمستشرق ـ محمد أسد ـ والمستشرق فانسان مونتييه أستاذ التاريخ

واللغة العربية بجامعة باريس والذي قال: «اخترت الإسلام لأنه دين الفطرة» وغيرهم.

هؤلاء المستشرقون وأمثالهم يشهدون ـ وفي هذا العصر بعظمة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان بل ويرون أنه الدين الوحيد الذي يملك المقدرة على وحدة الإنسانية وخلاصها من مآسيها.

إن الحقيقة يمكنك أن تشوهها زمناً، ولكنك لا يمكنك أن تطمسها إلى الأبد وكذلك حقائق الإسلام فهي أوضح من أن يحجب شعاعها هؤلاء المستشرقون مهما ادعوا من كذب وافتراءات وتأويل، ولا بد أن تظهر هذه الحقائق وتسود العالم لأن الباطل زبد (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

فإذا سطعت شمس الإسلام من جديد كان ذلك إيذاناً لأهل الأرض بمولد عيش سعيد للبشرية وإشراقة نظام متكامل يجمع الشعوب والأمم على الحب والعدل والسلام والمحبة..

***

الفهرس

❖❖❖

صدر للمؤلف

١. موضوعية الإسلام في مواجهة الصهيونية ١٩٩٠.

٢. عالمية الإسلام وقضايا العصر ١٩٩٠.

٣. الدنيا والآخرة في ميزان الإسلام ١٩٩٠.

٤. إيقاظ العقول ١٩٩٤.

٥. الإعجاز القرآني والتقدم العلمي ١٩٩٧.

٦. دور العرب والمسلمين في ركب الحضارة والعلوم - دار الأقصى ٢٠٠٢.

٧. الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين - دار الأقصى ٢٠٠٢.

محمد عللوه